obeikan.com

بين القلب
واللا قلب

بين القلب واللاقلب
مقالات
رضا شكر

دار الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف - من شارع مؤسسة الزكاة - المرج - القاهرة
موبايل : ٠١١٤١٨٢٤٥
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام : د.إسلام فتحى

تصميم الغلاف : محمد عبد السلام
إخراج داخلي : الحلم للدعاية والإعلان

رقم الإيداع :٢٠١٦/٢١٤٩
رقم الترقيم الدولي : 978-977-798-032-6

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

رضا شكر

بين القلب واللاقلب

الحلم للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

إلى أبي وأمـي مصـدر الحنـان في حيـاتي.. إلى أبي الروحـي اللـواء أركان حـرب: عـادل سـليمان يسري..

وأخي الكبير/ عماد يسري

إلى أمّـي الصغـيرة وأختـي: بسـمة، منبـع الخـير في دربي.. وإلى توأمـي ونصفـي الآخـر وأجـدع أخ: عـزب...

إلى

التـي مسـكت يـدي لأكتـب.. وعرفـت معهـا معنـى القلـب والحـب، وبجوارهـا دلفـتُ بعيـدًا عـن الـلا قلـب..

وبعيدًا عنها عرفت اللا قلب...

إلى

من علمني معنى الحياة وعرفت بوجودها معنى الصدق والإخلاص...

إلى

«التي غابت قبل أن تحضر»

obeikan.com

إهداء خاص إلى:

أخي وصديقي الكاتب المُترقب/ حازم حمدي
أول مـن قـرأ لي حتـى قبـل أن أقـرأ أنـا لنفـسي! صاحـب الـروح العاليـة والكلـمات الرقيقـة
الـذي أرسـله اللـه لي عونًـا وعضـدًا ليشـد عـلى موهبتـي المتواضعـة.. لا حرمنـي اللـه منـه ولا مـن جميـل نقـده.. وثمـين إبداعـه...
و
أخـي الشـاعر الحصيـف الفصيـح: محمـد خميـس الحـاوي؛ الـذي أحـاول الاقتـداء بـه وإن كان في غـير جـدوى..
ولكـن يكفينـي إقتفـاء أثـره ولي شرف معرفتـه.. بـارك اللـه لي في مجالسـتك والنهـم مـن علمـك وجميـل خُلقك.
إلى
صديقي الروحي والأقرب/ أحمد جمال زيان..
و
صديقي الصدوق/ أحمد الحسيني
إلى
أيمن وسارة.. جوهرتا الحياة...
إلى
أجمل أصدقاء في الدنيا.. وأروع دفعة دخلت كلية الألسن

obeikan.com

«لأنك حبيبتي وحلمي اللي غاب
قلبي بيرفض يبطل عذاب
وكل اللي غايب تملّي بينسا
ودايمًا يفكرني بيك الغياب»
تتر مسلسل آد وجميلة.. كلمات عمرو قطامش

obeikan.com

«ماذا يفعلون باليأس. اليأس صنو الموت. لا أريد من العالم شيئًا إلّا أن يرفع سكينه عن عنقي.»

محمود درويش.. يوميات الحزن العادي.

obeikan.com

بدون مقدمات

بداية،

لا أعرف كيف تُكتب المقدمات، ولم أفكر يومًا أن أكون واحدًا ممن يكتبونها؛ ناهيك عن عدم ولعي بها!

جلست أفكر فيما يجب أن أخطه وماذا أتركه، فقررتُ مصارحة صديقي القارئ بكل ما يخص الكتاب وما يهمه أن يعرفه عنه وعن صاحبه وفكرته.

لم تأتِ فكرة هذا الكتاب على بساطٍ وثير، أو قفزت إلى رأسي بغتة تدق وتُلحُ كما تفعل غيرها من أفكار الكُتّابِ والأدباء، وإنّما في أصلها، ولا تزال، صرخات قلوب تئن وجعًا، وضجرًا، وحزنًا؛ قلوب وهنت لما أصابها في معمعة الحياة. فقد رأيت في حياتي، القصيرة جدًا إذا ما قورنت بغيرها، الكثير والكثير ممن لاقوا من عذابات الدنيا، وتجرعوا من ويلاتها، واكتووا بنارها، وهي صامدة كافرة بعواطفها ومشاعرها، متجاهلة آوجاعهم وألالامهم. وبالطبع، لم أفلت من قبضتها الحديدية النارية؛ فتجرعت العلقما وانكسرت أحلامي تارة ووهنت قواي تارة أخرى، وقمت فقاومت لأنكسر من جديد وأعاود النهوض! فعرفت أنّ حياتنا جميعًا تتخبط بين القلب واللا قلب. وجاء القلب في صورة الإبتسامة التي نختلسها من بين فكي صروف الحيوات التي نحياها، وهو الأمل الذي نتشبث به لينقذنا من ظلام محيطها، أو كلمة الحب التي نقولها على يقين بقوتها وقدرتها على انتشالنا مما نغرق فيه من مستنقعات الأيام، وكذلك هو الإيمان الذي نتحلى به لنتجاهل كل ما يوهن عزمنا ويفتت قواتنا. وبان لي اللا قلب: أنّه بذور اليأس التي تنبت خلسة في دواخلنا لتنغص أسمارنا، وهو الفراق الذي أشبه بالموت في ثوب الحياة، الشعور بقلة الحيلة وخيبة الآمال، التوهان. وأخذت أسأل نفسي هل لي أن أكتب

ما تكتظ به عقولنا وتمتلئ به قلوبنا الواهنة؟ فأرشدني الله إلى أن أكتب محاولًا في حروفي الاقتراب من الواقع قدر المستطاع مع ما تسمح به اللغة من صياغات أدبية تهون على قارئي ما سيجده بين دفتي هذا الكتاب. وإن كنت كثيرًا ما شعرتُ بالحيرة في ذلك؛ فهل هو اعتراض على قضاء الله أنّ نقول ما يؤلمنا؟ أم أنّه مجرد طردٌ له من ثنايانا حتى لا يهمس في القلب إلى الحد الذي يحطمه؟! فقفز إلى عقلي قول تينيسون في هذا الصدد، والذي أبدع ترجمته صديقي الشاعر: محمد خميس الحاوي:

قد أراه بعض ذَنبٍ صوغَ حُزني في الكلام
شأنُ نَظمٍ كالطبيعةِ بَوْحٌ لا تَفَهَّمَهُ الأنام
تُضْمرُ الرُّوحَ الطبيعةُ يُضمِرُ النَّظمُ النِّظام

مثل طائرة نراها ماخرة عباب السماء عن قصدٍ مرسوم وهدفٍ مرومٍ، تعصف بها الريح، أو تهدأ، لكنها في سيرها لا تنحرف أو تتمايل.. وذلك بفضل ربانها الذي يثبت نظره على غايته، قد لا تراه الأبصار الشاخصة، لكن الطائرة وركابها يشعرون بزمامها في قبضته، وسيره المنتظم الواعي. كذلك حياتنا، ما هي سوى طائرة يسوقها كل منّا إلى غايات متباينة بتباين أصحابها، تعصف بها رياح القدر وتضربها رياح المصير، فهناك من يترنح ويقع ليموت وينتهي دوره على حلبة الحياة، وعلى النقيض، هناك من يتشبث بأحلامه ويتعلق بإصراره حتى يصل أو إلى أن يموت واقفًا صامدًا مهابًا من تلك المراوغة.

وعندما أمعنت النظر وجدتُ أنّ جُل الضحايا من الشباب الحائر المسكين، والذي أنا بدوري واحد منه، فحاولت أن أجسد ما يلاقيه وما يتجرعه. وأردتُ لهذا الكتاب أن يصحح مفاهيمًا عفا عليها الزمن وقضت عليها سمات الحقبة التي نحياها الآن. أردتُ أن

يكون منبهًا يوقظنا من نومنا المتواصل. يوقظ بشريتنا. أردتُ أن أؤكد أنّ الحب ليس عيبًا والأحبة ليسوا مجرمين يا سادة؛ إنّهم ملائكة معذبون، تهيم في جحيم أفكار أباءٍ جامدة متصلبة لا تعرف معنى التفاهم ولا التسامح، كل متمسك برأيه ويراه الأصوب، وكأنّه أنزل من عند الله! فوقعت القطيعة بين قلوبٍ أصفاه الله لتكون وعاءً لمحبته واستقبال فيضه الإلهيّ. فعرفت أباءً لا يهمهم سوى الراحة المادية التي حسب تصورهم ستجلب الراحة النفسية!! فكيف ذلك؟! فشعرت بقلوب تحتضر، وشباب ينتحر، وعقول تضمحل، وإذا قلت لي: أنّ هذا ليس حقيقيًا أو «لعب عيال!»، سأقول لك: يؤسفني أنّه حقيقي، وليس كما وصفته؛ فلو كان، ما فعل أصحابه ما فعلوه لأنَّ حياتهم لم تستمر كما كانت قبله؟! فلغة الحب لا يجيدها الكثير.

ويؤلمني أن أقدم لك أحد ضحايا تلك النوعية الجشعة من الأباء. قرأت في إحدى المجلات، التي للأسف لا أتذكر اسمها، عن شاب اسمه أحمد، يعمل موظفًا في بنك ويبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا. كان يحب فتاة اسمها «سارة» وبسبب تقلباتها وتقلبات أهلها معه، في حين يود هو أن ينال رضاها ورضا أهلها؛ ويسمع ما يدفعه ليكمل مشواره، اقتنى تليفونًا محمولًا ثانيًا له وسجل رقمه الخاص عليه تحت اسم حبيبته، وفي بعض الأحيان يرسل لنفسه رسالة رومانسية ليظهر اسمها فقط على الشاشة؛ ويشعر بالحنان وشوقها له، حسب ما قاله هو عندما سئل لما فكر في ذلك. وذكر مثالًا من تلك الرسائل قائلًا فيه: «أحمد الغالي، أفتقدك لدرجة الألم.. متى سأراك؟»

فكيف لقلوبنا لا تعتصر ألمًا وحنقًا وضيقًا وغيظًا من تلك القلوب العمياء والعقول الصماء؟!

ومما أردتً أن ألفت الأنظار إليه والقلوب: أنّ الحب لا يتعلق

بالحبيب والحبيبة والشاب والفتاة فقط، وإنّما هناك الصداقة التي تقوم عليه، وعلاقة الزاوج التي يكون ملاطها المقدس هو الحب. فالكون بأجمعه يستمر بالحب ولولا الحب ما دامت الحياة على وجه البسيطة. والعلاقات الإنسانية ما هي إلا أثواب متناثرة من الحب.

فيضم الكتاب، أو هذا ما حاولته، بين دفتيه كل هذه الصراعات والألوان المختلفة لكلمة الحب، ممتزجة بأنين أصحابها وهنّات قلوبهم. ولا يفوته ذكر زهرة الحياة ورونق العيش: المرأة! فقد كرست مقالاتًا متعددة حولها؛ منها ما تراه معها ومنها على النقيض. وكل ما أؤكده لك هو أن تقرأ شيئًا صادقًا صادفته في حياتك أو قد تصادفه أو عرفت من صادفه. وبما أنّي طالب في كلية الألسن_ أي من المفترض أن أعمل مترجمًا!_ والمترجم قلما ما يتدخل في ثنايا النص، ولا يقول كلمته إلا في مواقف نادرة؛ ولذا أريدك أن تعرف أن ما سوف تقرأ مجرد ترجمة للواقع، وقد تجدني أتقنت الترجمة أو أن ترجمتي ركيكة ولا تروق لك.. بيد أنها ربما تروق لغيرك! فلكلٍ منا قصته_مأساته، مشاعره، أفكاره، حواشيه...

أو كما يقول ألبير كامي: «لأنه لكي نتحدث عن كل شيء ولكل الناس فلا بُدَّ أن نتحدث عما يعرفه هؤلاء الناس وعن الواقع المشترك؛ فالأحلام تتغير، أمّا الواقع فهو وطننا المشترك.»

ثمة اعتراف يتحتم عليّ قوله:

لن تجد بين طيّات هذا الكتاب العقاد يكتب، ولا الحكيم ينسج خيوطه الحريرية فوق منجل الورق، أو عبدالوهاب مطاوع يحلل ويفنّد.. وكذلك لا يقطن أستاذي أنيس منصور يحدثك في عذوبته المعهودة؛ فلست كل هؤلاء ولن أكون، وإن كانوا مصابيح دربي وعقلي. ولكن، قد حان الوقت ليقول التلميذ كلمته. وما أضمنه

لـك، أنّـك سـتجد شـخصًا يشـبهك كثـيرًا وسـتقرأ نفسـك بـين سـطور هـذا الكتـاب، وتجـد حروفـه تلمـس شـغاف قلبـك، وجملـه تنسـدل منـك دون وعـي، وإن ضـاع ذلـك ولم تجـده، فأرجـو أن تغفـر لي إضاعـة وقتـك الثمـين، وكذلـك وقتـي في كتابـة مـا تلقيـه بـين يديـك الآن!

obeikan.com

obeikan.com

اعتراف

«حبيبي...

نعم.. أنت حبيبي...

لا أعرف ماذا أقول لك ولكنّي أعرف أنّها لا بُد أن تكون الرسالة الأخيرة منّي إليك.. نعم.. منّي؛ فلم تكن تكتب إليّ ولم تكن تقل لي شيئًا، لقد كنت أنت الملك شهريار وأنا شهرزاد أو شهرزادك! كل يوم بل كل ساعة وكل دقيقة أقص عليك قصص حبي لك.. واشتهائي لسماع كلمة منك.. وأروي لك مأساة حبي وصلبه على خشبة مسرح تجاهلك. ولكنك يا سيدي شرقيٌّ أصيل لا تدمع عينك إلا لمشاهد ممثلة أمامك على الشاشة وتعرف بأنّها ليست حقيقية، أمّا أن تتعاطف معها وتصدق بإمكانية حدوثها على أرض الواقع، فهيهات هيهات!

بهذا الخطاب أقول لك ما لم أستطع قوله قبل ذلك وأكرر لك ما سمعته في أوانه.

فهذا الخطاب هو الاعتراف بخطيئة حبي لك، وعجز قلبي أمام شيطان قلبك، وضلال عقلي في سراديب قولك.

فقد جلست على رمال شطآنك في لهفة من تحمل له الأمواج حبيبًا غائبًا.. وفي حسرة من تجلب إليه نعي فقيد لا يستطيع إكمال حياته بدونه! أتسائل في ألمٍ: ما الذي ستزخر به مياهك اليوم، ويقذف به بحرك؟ فقد كنتَ على دراية كاملة بملوحة مياهك، ومع ذلك، أشتهيها في نهم الظمآن وشره الجوعان.. كنت ظمأنة لكلمة منك وجائعة لحبك لي. أحلم بك فتزداد نشوتي، ولكنّها ما تلبث أن تتلاشى عند يقظتي! صورة البحر تذكرني بك وبحالتي؛ فأنا غريقة فيك وأنت لا تبالي. تتحرك في ثقة وخُيلاءٍ دون الالتفات إلى ضحاياك؛ فهم كُثر. فهل كنت ضحيتك أم ضحية نفسي أم ضحية ظروفٍ لم تواتِ

أحلامي؟!
أعرف أنّي ضعيفة أمامك ومعك، وأنت تفرح بهذا الضعف بين يديك وترى أنّه قربانٌ لدخول معبدك والصلاة أمام محراب حبك... لم أكن لك سوى نكهة عاطفية تضيفها إلى يومك لينضط مذاقه وتختلف حلاوته عن غيره وتتجدد أماله وثقته وثقتك معه. ربما لم أتجاوز كوني أرملة حبك؛ ولكنّي أرملة لم تتزوج! إلا في خيالها وبقلبها.. أيُخيل إليك ذلك؟!
تعرف أني لا أنتظر منك إجابة، فطالما انتظرتها ولم تأتِ.. ولست بحاجة إليها الآن.. فقد عرفتُ كل شي عن نفسي...
كنت أقبض على يدك بقوة، و أفركها بأصابعي على أمل خروج ذلك المارد.. العفريت.. الحب من بين أصابعك. آملة بقدومه ليحقق لي كل ما أتوق إليه، لكنه لم يأتِ، ولن يأتي. نعم لقد كنت أنت «جودو» الذي انتظره صمويل بكيت في مسرحيته، وانتظره المشاهدون، وترقبه الممثلون ولم يأتِ ولن يأتي. فأنا أؤمن بالوجود في عالمٍ يكتظ باللا معقولية والعشوائية، وهذا العالم هو عالمك. هذه العدمية اللا متناهية كأنها القدرية الطائشة الملتبسة، التي تفقد الإنسان بوصلة حياته وقدرته على الإختيار وأن يسلك دربًا بكامل وعيه وفي حرية واضحة الملامح، مرصوفة الطريق، قوية الأركان. ربما هو اليأس من تحقيق ما يسيطر عليّ.. ربما هي الضجر والضيق بما آلت إليه حالتي معك.. ربما.. ربما.. فحالاتي معك لا حصر لها. إنّ كل جريمتي معك كانت أن طلبتُ منك: لحظة حب بصدق.. لحظة نقاء وطهارة ويقين في صفاء. لم أطلب منك الشفقة؛ فأنا يا عزيزي شرقية مثلك في هذه السمة، لا أطيق الشفقة ولو من نفسي.. اضجرت بهذا الإحساس.. ومللت.. وقرفت.. من ذلك الشعور البائس الذي بحاجة لمن يُشفق عليه.

لقد أردت أن أحيا على هامش تلك القاسية التي تأبى لسكانها أن يسكونها سوى على هامشها أو مختفين بين سطورها القدرية الصارمة. فلم أكن غير ريشة «نفختها» الظروف والأقدار لتطير وتلف في الهواء ولا تعرف أين ستقع، فوقعت على أرض ملعبك فكنت غنيمة لك وملك يمين قلبك! وأدركت شيئًا غريبًا، فكل إنسان يطلب الحرية والانفلات من براثن الاستعباد، أمّا أنا فطلبت قيودك واستعبادك لمشاعري وتملكك لعواطفي، أطلب أن تضمني لأملاك وأكون تحت وصايتك وحماك. ولكن، كما كنتُ غريبة في أطواري معك وتفكيري لك، كنت أنت كذلك ورفضت دعوتي وأحللت قيودي وأطلقت سراحي لأسير تائهة في دهاليز هيامي بك.

وقد كانت عباراتك لي مثل الحكم بالإعدام.. وكنت تنطق بالحكم بنفس الطريقة التي ينطق بها القاضي في المحكمة بعد اقتناعه باستحقاق الموت. ولم تسألنِ حتى قبل تنفيذ الحكم فيما أرغب أن أناله قبل مفارقة الحياة؟ إذن لقلتُ أن أقضي معك دقائق أخرى وأختلس إليك نظرات سريعة ولطلبتُ أن تحبني! نعم.. أطلب منك الحب، كما طلبته كثيرًا قبل ذلك، وحتى أنّ هذه المرة سيكون لي عذر اشتداد سكرات الموت فلا أعرف ما أنطق. لكنّي يا حبيبي، واسمح لي أن أقولها، طلبتها منك وأنا في كامل قواي العقلية وليتك استجبت لي. لقد كنت أنتظرك وأنا بجوارك.. وأترقب مجيئك في حضورك.. أحلم بالصلاة على عتبات محرابك.. والسُكر حتى الثُمالة من خمر حُبك.. لقد كنت أحلم بك وأنت تحدثني وأراك في يقظتي ولا أعرف كيف أراك في حضورك؛ لقد كنت، يا سيدي، حاضرًا غائبًا.. تتكلم في كل شيء وتقول أي شيء، إلا ما أتمنّى سماعه.

فقرّر كل من عرفنا وعرف حبي لك بأنّي مجنونة وأفضل مكان لي هو مستشفى الأمراض العقلية؛ فكيف لفتاة مثلي، في كلية الهندسة

وجميلة، كما يزعمون، وعاقلة، وقارئة أن تقع في حب زميلٍ لها دون أن تعرف كيف تفلت من قيودها وقلبها الذي يصفّد عقلها وحياتها بأغلال الهيام والحب! مساكين.. هم لا يعرفون أن للحب سلطان لا يدري به أصحابه، وقوى لا يقدر على تهدئتها إلا الله. ولكن يا ترى من منّا هو المسكين؟؟ ألم تقل أم كلثوم من قبل: «أهل الحب صحيح مساكين...!» لا أنكر بأنّي مجنونة بحبك، ومجنونة حين أحببتك، وجُننتُ أكثر حين وافقت قلبي وسمحت له أن يزرع حروف اسمك ومعالم حياتك فيه. أنا لا أراك.. لكني أرغب... ولا أحادثك.. بيد أني أحلم.. وليس لوصالك سبيل، ولا لحياتك طريق.. فكيف أحيا؟! ليت حبي لك لم يكن سوى كابوسًا؛ فنحن دائمًا سرعان ما ننسى الكوابيس أو نعتبرها «تخاريف»، ولكنه كان حلمًا جميلًا ضائعًا في ثناياي؛ والبشر لا ينسون حلمًا أعطاهم وقتًا يتمنونه حتى بعد أن ينزوي.

ضبتُ نفسي متلبسة بحاجتي إليك وحبي لك، فكان حبًا مع سبق الإصرار والترقب! أي الترقب لإحساسك بي وكلمة تخرج منك تثبت الأمل في أركاني.. فأخذتُ أدوّر في منعطفات يومك، وسردايب حياتك كي أجد شيئًا يعلقك بي فلم أجد سوى قلبك؛ وهو لا يشعر بي ولا يريد ولا يحاول. كم تمنيتُ أن تخطأ يومًا وتقول أحبك، ولو صدفة أو خطأً عابرًا. لكني اكتشفت شيئًا غريبًا، وهو أنني في حبك كنت تلك الفتاة المسكينة التي عاقبتها الآلهة الإغريقية بأن جعلتها عندما تنظر لشيءٍ يتحول إلى حجر؛ فأصبحت الحياة كلها أحجارًا والبشر كذلك. وكنت لا أنظر إلا إلى قلبك، فتحول إلى حجر ولم يعد يشعر بشيء! أترى أهي خطيئتي أم خطيئتك أم عقاب؟

وفي أحيانٍ أكثر أشعر بأنّي حين سعيت لحبك وطلبت سماع كلماته وعباراته منك، كنت مثل «بروميثوس» ذلك البطل الإغريقي الذي سرق النار رمز النور والمعرفة وأعطاها للبشر. أمّا أنا فسرقت لحظاتٍ

مـن وقتـك واختلسـتُ نظـراتٍ إليـك وأعطيتهـا لقلبـي فـكان النـور والمعرفـة والـدفء.. ولكـنّ الأسـطورة تقـول: بأنّـه لا بُـد مـن عقـاب؛ فجـاء عقـابي أن ينهـش بعـضي بعضًـا، ويفتـت قلبـي أضلاعـي، ويكـوي حبـي جوارحـي، فأصبحـت أنـا النـسر والكبـد المعـذب في آنٍ واحـد. ومـع ذلـك، فهنـاك مـن يقـول: بـأنّ بروميثـوس خلصـه هِرَقـل أو هيراكليـس ، أمّـا أنـا فأعـرف أنـك لم ولـن تخلصنـي مـن عـذابي ولعنتـي.. حبـك.

أقـول لـك حقيقـة؟ مـع علمـي بمـا سـيؤل لـه مصـيري معـك وأنّـه لا بُـد مـن نهايـة مأسـاوية لأحلامـي فيـك.. كنـت أجـد بجانـب الفرحـة والأمـان والطمأنينـة.. أجـد نفـسي بوجـودك.. أعـرف أنّ بقـاؤك معـي مسـتحيلٌ، ولكنـي أحبـك... كانـت أبيـات صـلاح عبـد الصبـور تـترد في أذني وأنـا أحادثـك وأنظـر إليـك:

«لو أننا

لو أننا، وآهِ من قسوةِ «لو»

يا فتنتي، إذا افتتحنا بالـمُنى كلامَنا

لكنّنا..

وآهِ من قسوتها «لكننا»!

لأنها تقول في حروفها الملفوفةِ المشتبكه

بأننا نُنكرُ ما خلّفتِ الأيامُ في نفوسنا

نودُّ لو نخلعهُ

نودُّ لو ننساه

نودّ لو نُعيده لرحمِ الحياه...»

تعـرف بالطبـع أنّ المتحـدث هنـا هـو العاشـق لحبيبتـه ولكنـي معـك قلبـت موازيـن الحـب؛ فتخزلـتُ فيـك.. ووصفـت حبـي.. وكتبـتُ معلقـات في وجعـي علقتهـا عـلى أسـتار قلبـي المنهـار بـين منحـدرات الحـسرة ومواسـم البـكاء. أرجـوك أن تُكمـل القصيـدة!!

أنـا لا أتفلسـفُ عليـك في خطـابي ولكنّـي أردت أن أقـول مـا قلتـه ومـا لم أقـل. ولا تنـسَ أني في أول الخطـاب قلـتُ: أنـا لا أعـرف مـاذا أقـول! فتلمسـتُ الكلـم عنـد غـيري وجسـدت اختلاجـاتي في صـورٍ تعهدهـا وتعرفهـا وتقرأهـا كثـيرًا.. كـما أعـرف ولعـك بالفلسـفة وشـعر صـلاح عبدالصبـور، فـوددتُ أن أعريـك أمـام نفسـك وأسـقط عنـك ورق الخريـف البـالي كي يعيـد نمـوه في ربيـع الليـالي! فحياتـك مفخخـة بذاتـك ومنزويـة عـن الباقـي، تُجلـس نفسـك فـوق عـرش الملـك وتـرى الأخريـن عبيـد شـوق مجالسـتك! لا أملـك المكابـرة بـأن أقـول: أنّـك لسـت ملـك عـرش عمـري، ولكـن يـا « أوزيمانديـاس» حيـاتي، قـد طالـت حـيرتي، واسـتطال وجعـي، واختلـتُ الأرضُ مـن تحتـي.. وتهـتُ في متاهـات مملكتـك.. فحـان وقـت إطاحتـك!!

أليـس معـي في المثـل الشـعبي القائـل:» كُـتر الأسى يعلـم البـكا!» ولم أبـكِ عـلى أحـدٍ سـواك، ولم أحـزن لـشيءٍ غـيرك، بـل لم أعـرف البـكاء والحـزن إلا حينـما عرفتـك، فاضجـرت وتضايقـت.. شـقيتُ وتعـسرتُ.. فـثُرتُ.. ثُـرتُ.. في امتعـاض خفـيّ واسـتنكار قلبـيّ.. ولكنّـي تجاهلـت كلَ شيءٍ هـذه المـرة وكفـرتُ بـك، أسـتغفر اللـه، وكفـرت باحتـمال حبـك لي...

لـن أحـكي لـك القصـة كاملـة؛ فيكفيـك منهـا تلـك الكلـمات: لقـد جاءتنـي أمـي تسـألني عـن رأي في الارتبـاط بابـن خالتـي؟ ولم أقـل شـيئًا: لم أرفـض ولم أقبـل! سـكت.. تحـيرت.. صُدمـتُ.. انفجـرتُ.. ولكنّهـم اعتـبروا سـكوتي موافقـة! أليـس السـكوت علامـة الرضـا؟ وإن كان، في الحقيقة، لا، السـكوت ليـس علامـة الرضـا؛ فهـو كثـيرًا علامـة الحـزن، والضيـق، والتفكـير، والحيرة.. والانكسـار والحسرة وقلـة الحِيلـة... مـن قـال أنّ السـكوت معنـاه الرضـا! فَلِـمَ لم أعتـبر سـكوتك وعزوفـك عـن الـكلام موافقـة عـلى حبـي وارتضـاء البقـاء معـي؟!

وقالوا لي: مبروك!

وأخـذ الأخـرون في تريـد تلـك الكلمـة التـي لا معنـى لهـا.. مثـل كل شيء لا معنـى لـه.. حتـى أنـت! وأحسسـت براحـة عندمـا وافقـتُ عـلى هـذا العقـد أو الارتبـاط.. فـما لجـرحٍ بميـتٍ إيـلامُ.. وأنـا ميتـة أتظاهـر بالحياة... وأخـيرًا لـك سـلامي إن كان لسـلامي مـكانٌ في عالمـك ولسـلام ذاتـه حيـزٌ فـارغٌ في دنيـاك! وقبـل أن أضـع النقطـة الأخـيرة في هـذا الجـواب أود أن أقـول لـك: لا أعـرف هـل أدعـو عليـك أم أغفـر لنفـسي؟!

وأسأل الله أن يقيني بؤس الذكرى ولوعة الفكر...

والسلام...

...

obeikan.com

obeikan.com

رسالة إلى التي غابت قبل أن تحضر

لا أعرف ماذا سأقول لكِ.. ولا أجد ما أبثه رسالتي، بيد أنّي على يقينٍ أنّ هذه الرسالة الأولى مني لا بُدَّ أن ترسل؛ فقد حان وقتها ووجب عليّ إخراج ما حبسته في نفسي طويلًا على الورق مرفرفًا مع بساط الآماني حتى يأتي إليكِ! فهلا قرأتي؟

وأعرف، أيضًا، أنّ رأسك مليئة بالأسئلة المارقة وعلامات التعجب الهادرة الفارقة.. ينزل السؤال تلو الآخر على حين غرة منكِ فيقطف ثمرة إبتسامتكِ وفائدة إصرارك وإجلالك.. لحبك ونفسك ولي! لم أكن لكِ سوى سوطًا ينزل على ظهر إخلاصك جالدًا له في غير إكتراثٍ، بل متشدقًا بإبتسامة خائنة فاضحة سافرة؛ تسفر عن لا مبالاة بقلوب تئن ومشاعر تحتضر وعواطف تستنجد ونظرات تستغيث وعقول تتخبط بين الحب واللا حب.

وكل ما سأحاول فعله، الآن، هو إزالة تلك العلامات المتراكمة لتتضح الرؤية وتنجلي الأمور وتنكشف أسرارها ويعرف كل منّا نفسه أو على الأقل ليعرف كل منّا حقيقة الآخر. ولكن بالرغم من الخطوة القاتلة والطريق الوعر الذي أسلكه في كتابة رسالتي هذه وما قد أفقده عقب قراءتها من قناعٍ واهٍ لطالما حاولت الحفاظ عليه، أمام نفسي وأمامك وأمام الناس، قد خططتها.

للأسف،

في بداية علاقتي بكِ،

كنتِ لي كمنبع ماء مالح في وسط الصحراء الحارقة، فكيف لا أرنو إليه.. أتذوقه وأنا أعلم أنه سيزيد عطشي؟! صدقيني، لقد أردتكِ ولم استطع.. حلمتُ بكِ، فكان كابوسًا.. رأيتكِ ووجدتكِ شبحًا! لقد أحببتكِ وتمنيتُ أن أبقى معكِ! ولم أتوقع يومًا الفراق لنا سبيل.

أتعتقدين أني لا أُذبح مئات المرات في كل مرة أراكِ ولا أنظر إليكِ ولا أسمع صوتك.. هل تظنين أن القلب لا ينزف والعقل يئن، والهوى يشنقني والعشق يذبحني؟! لأول مرة في حياتي أتمنى أني لم أقابلك من ذي قبل؛ فقد كنتُ ميتًا لكني لم أذق طعم الحياة الذي فقدته. فأشد عذاب لأهل النار هو رؤية مقعدهم في الجنة لو أحسنوا ورؤية نعيم أهل الجنة.. وقد رأيت ودققتُ وسكنت.. فخرجتُ. فأنا أدم الصغير؛ الذي أكل من الشجرة ليسكن في الجنة للأبد ولا يُحرم من إطلالتها البهية، لكنه سقط.. سقط.. هل ندمتُ؟ بالطبع. لكن الذي يأكل من الشجرة لا يرجع الجنة مرة ثانية.

استغفرتُ.. وتبتُ.. وندمت.. ولم أجد لي عزمًا! بيد أنّي لا يمكنني أن أرجع الجنة وأرى حوريتي.. وأأكل من ثمر أشجارها.. وأشرب من مائها.. وأسكن في ظلال الأحبة. فهل عاد أبي أدم وحواء، ولم يكن لهما عزمًا؟! لقد غفر الله لهما، فهل ستغفرين لي؟ وهل لو غفرتي لي، سأرجع لمملكتكِ أم ستكتفين بالسماح والعفو؟

هل سأرجع أنا؟!

ثمة طُرق في حياة الإنسان قد يسلكها مُخيرًا، ولكنه يُكملها مُجبرًا!! وبعضها نسلكها مُجبرين ومخيرين!!

مثل الحياة نفسها لا نأتيها بمحض إرداتنا؛ فلا أحد يسئل قبل ولادته، أيحب أم لا؟! أما إختيارنا، ففي طريقتها وأسلوبها وما تحلمه بين طياتها.. فهل هناك أضعفُ منا؟ هل ثمة مسكين غيرنا؟!

أكنتُ مخيّرًا معكِ أو مُسيّرًا؟!

ليت قلوبنا تعقل، وعقولنا تحس وتشعر!!

اعتراف: لقد أذنبت، فسقطت والخطأ خطأي والعذاب جزائي. أحب أن أعلمكِ أن الحياة فقدت الحياة معي.. والدنيا لم تعد كما كانت.. والأشجار صماء.. والناس ماتوا.. ولم يبقَ غيري على الأرض؛ ليذوق؛

فقد بال أمره! لقد طعنت نفسي بخنجرٍ في ضلوعي، حتى إذا تألمتُ نهرتُ نفسي وأنبتها؛ فهي صاحبة الخنجر وحاملته.. لقد قتلتُ نفسي مع سبق الإصرار والترصد! أود أن أقول لكِ: إني أراكِ الآن بين سطوري أو سطورك! أشعر بسخطكِ عليّ ودعائك أن يأخذ الله حقكِ ممن ذبحكِ وذبح قلبك.. أرى عقلك يدور في رأسك؛ يسأل ويتعجب ولا يعرف إجابة شافية.. أشعر بقلبك يهدأ عقلك ولكنه لن يستمع له تلك المرة؛ فلو سمع كلامه من قبل ما قُتل وما مات.. لا يُلدغ مومنٌ من جحرٍ مرتين.

كنت أشعر عندما أراكِ أن قلبي قفز من بين ضلوعي وسقط تحت قدمي، وأن كل خطوة تقع عليه.. تضغط عليه.. لكنه لا يموت ولن يموت؛ ليبقى العذاب مُجددًا مثل عذاب ألهة الإغريق لمن يغضبهم. فهل أغضبتَ ألهة الإغريق عندما افترقنا؟! كنتُ صورة جديدة من تنتالوس الإغريقي الذي حكمت عليه الآلهة بأن يقف في بحيرة من الماء العذب تحت أشعة الشمس، وكلما اشتد عطشه ارتفع الماء حتى يبلغ شفتيه.. فإذا انحنى عليه ليشرب، هبط الماء حتى ساقيه، ثم يرتفع حتى شفتيه وهكذا إلى الأبد، ويظل تنتالوس عطشان والماء تحت شفتيه.. كنتِ أمامي ولا أستطيع أن أنظر إليكِ..

أكتبُ لكِ وأنا أعرف أنها رسالة محكوم عليها بألا تقرأيها.. ولكني أريد أن أرى عذابي أمامي.. أسجله فأطلع عليه في كل وقت وأي وقت.. كما أنه من الممكن أن تحدث معجزة وتقرأين كلامي وتعرفين أني لست بالقبح والسوء.. والأنانية التي تعتقدين أني أمتلكها.. هل هي محاولة استسماح أو رجاء مني لكِ بالعفو والغفران؟ هل أتذلل على أعتاب قلبك؛ فمن الممكن تترأفين بحالي؟

قال تعالى:» {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ

عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرٌ}

لِـمَ تـزداد الأشـياء قيمـة ورونقًـا بعـد فقدانهـا؟ هـل رأيتـكِ أجمـل بعدمـا رحلتـي أو رحلـتُ؟! إنـكِ دائمًـا وأبـدًا أجمـل وأقيـم، بيـد أن الوقـت لم يتـح لي أن أظـل مـع تلـك التحفـة الثمينـة.. أو ربمـا لا أسـتحقها ولسـتُ أهـلًا لهـا. لم أنجـح في جعـل قلبـي متحفًـا لـكِ. ليتـكِ تعرفـين أني لا أحـزن لحـزني وألمـي عـلى قـدر حـزني وألمـي لمـا قـد تكونـين فيـه.. تشـعرين بـه.. وأنـا السـبب فيـه. كل مـا أقـول لـن يقـول مـا بي.. ومـا يغـوص بداخـلي؛ فـلا أحـد يشـعر بمـا بداخـل الغريـق ومـا ينتابـه لحظـة الغـرق، ومحاولـة التشـبث بقشـة.. حتـى ولـو كان مـن يحـاول إنقـاذه! صحيـح، أنـكِ بـلا ذنـب؛ فأنـا الذنـب! إلا أن اللـه قـد غفـره لـكِ.. وتخلصتـي منـي.. خلصـكِ اللـه منـي.. كـم أن اللـه لطيـف خبـير.. ليـت قلبـي كتـاب لتقرأينـه وتعرفـين وتريـن وتدققـين النظـر...

في صغـري، كنـت أعتقـد أن الممثـل الـذي يمـوت في العمـل الفني_سـواء فيلـم أو مسلسـل_ فلأنـه يريـد أن ينهـي دوره فيـه لينتقـل لغـيره في مـكان أخـر ومـع مخـرج ومنتـج مختلفـين! لا أعـرف مـن أيـن جاءتنـي تلـك الفكـرة، ولكنهـا حقيقيـة عنـد تطبيقهـا عـلى الواقـع والحيـاة.. والمـوت أو الفـراق أي مـوت شـخص في حيـاة أخـر بعينـه.

فالشـخص الـذي يخـرج مـن حياتنـا؛ فهـذا لأن هنـاك دورٌ أخـر منتظـره في ثنايـا حيـاة غيرنـا.. قـد يكـون أهـم وأفضـل عـن الـدور الـذي كان معنـا.. وكذلـك المـوت؛ فمـن يفقـد حياتـه تنتظـره حيـاة ثانيـة أبديـة لا مـوت فيهـا.. يفـر مـن نوائـب الحدثـان وصروف الزمـان.

هـل مـتُ في حياتـك لأحيـا في آخـرى؟ أم أنـكِ أنـتِ التـي سـتحين في عـالم غـيري، ولذلـك أوصـدتي البـاب في وجهـي؟!

كتـب الشـاعر الإيطـالي دانتـي عبـارة شـهيرة عـلى بـاب جهنـم في ملحمته» الكوميديـا الإلهيـة» تقـول: أيهـا الداخلـون اطرحـوا عنكـم أي أمـل في

النجاة!! هل عندما ابتعدتي عني، اقتربتُ من جهنم؟ هل أنا على وشك الوصول؟ أهناك أمل في النجاة.. أم أترك كل أمل في النجاة؟! بعض العصاه سيدخلون النار ليشهدوا عذابًا على قدر ذنوبهم.. ويخرجون منها إلى الجنة ونعيمها. هل لي أن أعرف إذا كان ذنبي يستحق العذاب الأبدي أما أني سأرى الجنة لاحقًا؟! لو أنّ لي جنة قادمة، ربما تصبرني وتعزيني على ما به من جحيمٍ بداخلي.. والجائع يحلم بسوق العيش! أعرف أنكِ تقولين أني لا أشعر بشيء مما في قلبك وعقلك وحياتك، بيد أني أريد أن أقول أن صمتي.. وإعراضي عن المصارحة بما في داخلي ليس إلا قناعٌ هشٌ يمكنكِ أن تسقطيه بنظرة من عينك.. أو كلمة بصوتك الملائكي.. أو لمسة من قلبك الطاهر الساحر.. وقُبلة من طيفك الفيّاض.. إن جذوة قلبي تلتهب وتحرقني وأنا لا أعرف لها وسيلة أو ماءً غيرك! فما أكثر الأيام التي ليس بها من الحياة إلا اسمها!.. نشعر بأننا من كماليات الحياة؛ لن تتأثر كثيرًا بنا أو بدوننا. ولو سألتيني ماذا أتمنى بعد موتي: لقلتُ: أن أبعث دون أن يعرف أحد وأراقب الجميع وهم لا يشعرون.. وألبس فيهم إلى أن يموتون؛ فأرى أوضح وأصح وأعمق. أعرف من كان يحبني بصدق ومن كان ينافقني. كم يومًا أخذوا لينسوا وجودي بينهم؟ لكني أخشى ألا أتحمل مأساة ذلك.. وأسرع بدفن نفسي دون أن يسير أحد في جنازتي هذة المرة سوى أنا وحسرتي! فأكون الميت الذي فضّل الموت على الحياة!!

ثمة أوقات في حياتنا، نصبح بعدها أمواتًا تلعب دور الأحياء! فما أصعب الحياة عندما تتحول من جنة إلى حجيم بسبب كلمة واحدة. قولي لي ما الحل؟ لقد أدمنتُ الحزن إلى حد الهذيان؛ فأنا غريق بحره.. وضحية أمواجه العاتية.. فكل يومٍ يمر بي، هو يومٌ جديد للإنتظار.. وكل ليلة هي أول ليلة لي في قبر الوحدة وهجر الحبيب..

غريب، أن تصبح الحياة كالموت والموت هو غاية الحياة.
ليتني أعرف ما لا أعرف، وليتني أفهم ما أعرف!!

أنا لم أنسْ شيئًا؛ لكني دفنتُ نفسي في نفسي بنفسي لنفسي!!

أوقاتٌ كثيرة أشعر بأني مثل نوح عليه السلام؛ سأظل أكتب وأقول وأتضرع.. ولن أصل إلى ما أحب أن أصل إليه_أنتِ وجنتكِ ومحرابكِ ومغفرتكِ. أخشى بأن قلبكِ قد تحول إلى أرضٍ صماء لا ينفعها ماء ولا تنبت زرعًا. هل ينفعها هطول المطر_دموعي؟ وأحيانًا أخرى أرى نفسي مثل «يوحنا المعمدان» الذي وصفته الكتب المقدسة بأنه «الصارخ في البرية» أي الذي يصرخ في الصحراء، فلا يسمعه أحد.. والذي يقوله ولا يُلتفت له.. وأن الذي يفعله يشبه الجنون، أهو هو كذلك! وكان جزاءه في أخر الأمر: أن قطعوا رأسه، وقدموه على طبق من فضة لامرأة الملك التي كان يوحنا يتهمها بالزنى؛ لأنها قتلت زوجها وتزوجت أخاه_ وهذا ينافي التعاليم الدينية. هل قُطعت رأسي؛ فمن هول ما بها لا أشعر بها؟! كثيرًا ما أتحسسها على كتفي؛ خشية أن تكون قد سقطت مني دون أن أدري! فأنا أرى رأسي كشارعٍ كبير، في إحدى المناطق العامرة.. فالأفكار في رأسي بمثابة السيارات، بل هي كذلك!؛ فالفكرة لا تعرف الأخرى وليس هناك وجه شبه بينهم إلا أنهم في نفس الشارع - رأسي. وكذلك وجهتهم متباينة: الأفكار من الشرق للغرب ومن الهند لمصر ولا استقرار.. لا أعرف نهاية هذا الشارع المسرعة سيارته – أفكاره، المتلاصقة جنبًا لجنب.. الشاردة ضوابطه.. الممحيّة معالمه!.. ولو سألتني عما بداخلي، لقلت: أسئلة أبدية، أولها: لماذا؟ وأخرها علامة استفهام ؟!...

تندهشين كثيرًا، وتسألين من أكون؟ هل أنا خيّر أم شرير؟ أنا من به الخير أم الشر؟ كيف لي أن أكون بتلك القسوة؟!

رسم الفنان العالمي ليوناردو دافنشي لوحة جدارية تجسد العشاء

الأخير للمسيح مع تلامذته، وسماها «العشاء الأخير». لكن الفنان كان يريد نماذج يجسد بها الخير والشر في شخصية المسيح ويهوذا الذي خانه. ظل يبحث دافنشي.. وفي ذات مرة وهو يستمع لفرقة موسيقية وجد شخصًا يمكن أن يجسد شخصية المسيح بامتياز! فعرض عليه، وذهب معه لبيته ورسمه في مكان المسيح. ولكن تبقى المشكلة الأكبر، وهي من أين يأتي بمن يشبه يهوذا؟ إنه يريد أن تبدو عليه علامات الشر ويوحي وجهه بالذنب الذي سيقترفه! وظل حوالي ثلاث سنوات يبحث.. يغدو ويروح.. لكن لا فائدة.. حتى إذا ذهب في يومٍ ليشرب الخمر، وجد رجل من السُكارى يمكن أن يكون هو. طلب من مساعده أن يأخذه للمنزل وفعل، والشخاذ لا يفهم شيئًا. وجاء دافنشي وشرع في اللوحة، حتى إذا انتهى منها نظر الشخاذ إليها وقال: لقد رأيتُ هذة الصورة من قبل! فاندهش ليوناردو، وسأله متى؟ فقال: من ثلاث سنوات، قبل أن أفقد كل شيء، جاءني رجل وطلب مني أن يرسمني تجسيدًا للسيد المسيح!! أي أن الخير والشر موجود بداخل كل منا. ومن الممكن أن يكون الإنسان خيّر الآن ثم يفعل شرًا أو يقترف ذنبًا. وكل بني أدم خطاء. لا أقول ذلك لإباحة الشر أو الذنب، فقط أريد أن أبين أن الخير والشر جزء أصيل من تركيب البشر. وأحيانًا، يكون الوقت والظروف والأشخاص الذين يحيطون بنا هم أصل الفعل وسببه. فكيف تحولتُ من مسيحكِ إلى يهوذا؟!!

بعد ألم الفراق.. يأتي ما هو أصعب منه: المراقبة بعده.. والرؤية دون القدرة.. ولو توفّرت القدرة، انسحبت الجرأة!!

ضبتُ نفسي متلبسًا بشعورٍ غريب، واسمحي لي أن أستعير التعبير منكِ: أتعذب وأتعب فوق ما تتحمله قواي.. وأنهار من الدموع تتدفق بداخلي.. وتتمزق أركاني وأنا أراكِ دون أن أجرؤ أن أكلمك..

في كل مرة أراكِ فيها، أتمنى لو أني يمكنني أن أعتذر لكِ. وهل يفيد الإعتذار! فهيهات هيهات. فالقُبلة على جبين الميّت لا تفيده بشيء، بل حتى لا يشعر بها.. كنت في خضم ذلك كله أسعد بعذابي.. وأبتهج بألمي وانهياري! هل أجد سلوى في ذلك؟ أم أني أؤكد لي أني كنت أحمقًا حينما أقدمت على هذا القرار الأحمق؟!

في خضم الحياة، لدى كل منا إرادة أو قوة لا تريده أن يبكي على أحد_ ولا حتى نفسه. تجعله يقفز من الفراش، ويستأنف طريقه.. ويُكمل مشواره.. يجفف دموعه.. وينزع أوجاعه من قلبه وعقله؛ ليضعها على كتفه لحين يلقيها في محيط الحياة. فبعض اللحظات في حياتنا مثل مثلث برمودة؛ لو أقدمت عليها بجبال الكون لاختفت! فكذلك أحزاننا في تلك اللحظات تنطمر تمامًا دون أن نعرف سر هذة البقعة أو اللحظة! وهذا هو السر الجميل الذي لا يهمنا أن نعرفه بقدر ما يسعدنا فعله. فتجلدي ما هو إلا مكابرة وكبرياء.. وانتظار لدوري في زيارة هذه البقعة من المحيط.

فلو قولتي لي: ماذا تريد؟ لقلت: أريد أن أحيا دون تعب.. و أستمتع بشبابي دون مشاكل أو كلل.. وأكمل حياتي بلا قلق ولا اضطراب.. وأن أنام خالي البال: لا أحمل هم شئ ولا أحد.. أن أنغمس في يومي لدرجة تنسيني الغد، وليس أن أعيش فى يومي حاملًا على عاتقي هموم المستقبل، متأملًا، متخوفًا، قلقًا، حائرًا بها قبل أن تنزل.. باختصار، أريد أن أحيا يومًا بمثابة حياة يحياها المرء في ما يقارب القرن!.. ولكني أعلم أنكِ ستقولين لي: أنني بالغت في نومي هذة المرة!..

بين قلبي وعقلي، حياة لا أفهمها.. ولغة لا أعيها جيدًا... فقط، أقف حائرًا!!

أعذريني... سامحيني...

****

«أعاتب دهرًا لا يلين لناصحٍ ... وأخفي الجوى في القلبِ والدمعُ فاضحِ
وقد أبعدوني عن حبيب بحبه ... فأصبحتُ في قفرٍ عن الأنس نازحِ»
عنترة بن شداد

******

«علينا أن نربي قلبنا مع كل حب على توقع احتمال الفراق ، و التأقلم مع فكرة الفراق قبل التأقلم مع واقعه... ذلك أن في الفكرة يكمن شقاؤنا»
أحلام مستغانمي_نسيان com

«لا أضرب الأمثال مدحًا للنوى
ليت الفراق ويومه لم يخلق
ما في الوداع سوى تعلثم ألسن
وذهول أرواح وهمّ مطبق...»
إيليا أبو ماضي

openkan.com

obeikan.com

حلمتُ يومًا

بعض الأحلام تعلمنا كيف نحلم وأحيانًا بماذا نحلم، والبعض الأخر يحرمنا أن نحلم!!

الأحلام: هي واقع عجزنا عن تحقيقه أو نريد تحقيقه!!

قل لي بماذا تحلم، أقل لك ما يشغلك!!

أحلام البعض.. هي كوابيس للأخرين!!

٢٠١٤/١/٢

يحمل مثل هذا التاريخ في طياته الكثير لأمثالي من المهوسين بالكتب والمولعين بالمكتبات.. إنه أول الشهر، أي سأزور حبيبتي.. وأتحدث مع أهلها.. وأحملها على بيتي واضعًا إياها في محرابي...

دخلت المكتبة كعادتي لأنتقي ما أريد وما أحتاج من الكتب. كالعادة، أندهش.. أتمنى لو أن لي مثل هذا المحراب.. توجهت لقسم الفلسفة؛ فأنا أقرأ فيها كثيرًا وطويلًا.. أحاول أن أجد إجابة لما يتردد في عقلي. وكثيرًا ما كنت أسأل نفسي: لماذا الفلسفة وكتب التحليلات النفسية تسليك وتسلبك_كذلك_ عقلك ومالك؟ فلم أجد إجابة غير المثل الشعبي:»إسأل عليل ولا تسأل طبيب».. كثيرًا ما كنت أشعر أنني مريض وكل الفلاسفة والعلماء والأطباء والمشاهير هم السبب في مرضي! وهم الذين يعرفون العلاج! لأنهم كانوا مرضى مثلي بداء مزمن، يعرفه كل من حاول أن يفهم.. ويعي ما يدور حوله.. ويلمس ما يجول بخاطره.. إنه مرض الأفكار الشاقة المؤبدة_ كما يقول أستاذي الكبير أنيس منصور. لم يقل أحد منهم لي ما هو سر نجاحه أو كيف أصبح ما أصبح.. كلهم يقولون كلامًا معادًا لا يسمن ولا يغني من جوع.. كلها ألغاز وعليّ أن أجد حلها إذا أردت أن أصل مثلهم_وأنا أريد. والكتب ليست إلا روشتات مكتوبة لأمثالي من المرضى.. وهي عدد لا نهائي. والغريب أنني لا أهدأ أو أشعر بتحسن

بعدما أصرف كل روشتة بل أصاب بتعقيد أكثر وخيبة أمل وحسرة وحيرة وقلق وخوف.. فأنا لا أعرف كيف يكتبون تلك الروشتات؟ وهل لي يومًا أصبح فيه معافًا وأكتب لغيري روشتة تشفيه وتكفيه عناء البحث والتجربة والفكر والقراءة المستمرة.. أكفيه عنائي الذي أخذ شبابي وعقلي وقضى على قلبي.. وسلب حبي ونفسي..

أخذت أتجول بين الكتب. ذاك لجان جاك روسو، والأخر لفريدريتش نيتشه.. وعلى اليمين كتب ألبير كامو، وعلى اليسار مؤلفات الفرنسي الكبير أندريه موروا... وهناك كذلك ديكارت وسقراط وأرسطو وأفلاطون.. وكل ما تريد من الفلاسفة وعلماء النفس.. هؤلاء الأطباء الذين يصيبون أمثالي بالأمراض! فهل من مصلحتهم أن أظل وغيرى مرضى حتى يربحون؟ ولكن ماذا يستفيد هؤلاء من مرضي بعد موتهم؟!

وجدت كتابين للفيلسوف الألماني فريدرك نيتشه بعنوان: أفول الأصنام وإنسان مفرط في إنسانيته.. وتناولت كذلك كتاب مذكرات جان جاك روسو.. ووجدت غايتي التي كنت أحلم بها:الكوميديا الإلهية للشاعر الإيطالي دانتي..

أخذت كنزي وخرجت ناحية المترو. وصعدت السُلم، وقطعت التذكرة. نزلت أنتظر تلك الدنيا الصغيرة المتحركة على عجلات من الحديد؛ فهو يحمل بداخله الملايين من القصص والمآسي والأفكار وأيضًا الأحزان. «إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ»... بالرغم من كون المترو أسرع مواصلة في مصر، في بعض الأحيان يتأخر أو ربما يتلكع؛ فهو يعرف أننا سننتظره مهما تأخر.. وكنت أحسده على ذلك؛ فهو لا يخشى فوات شيء ويعرف أنه مهما تأخر سينتظره الأخرون.. ليتني كنت مترو!! وعلى كلٍ، إنه ليس شيئًا جديدًا؛ فلا شيء في مصر يسير كما ينبغي بالرغم من أن أكثر كلمة شائعة بين المصرين هي «ماشي»! ولا

شيء يمشي، وإن مشي فإنه يمشي معوجًا.. متخبطًا.. متسكعًا.. تنبهت إلى ما أحمل في يدي وأخرجت كتاب مذكرات جان جاك روسو وشرعت في القراءة، بيد أنه لفت نظري على الجانب الأخر فتاة تجلس على قدميها «بنوتة» صغيرة تمسك في يدها مجلة «ميكي»، والأم تقرأ في كتاب لم أستطع أن أتبين عنوانه، ولم أتبين وجهها لأن البنت كانت على قدميها وحجبت عني رؤية وجه والدتها.. ولولا معرفتي الجيدة بمجلة ميكي وألوانها ما عرفتها. شدني شكلهما، وتمنيت لو رزقني الله بزوجة مثلها؛ تربي أولادي على القراءة من طفولتهم..

قامت الأم ومسكت بيد البنوتة ووقفت تنتظر وصول المترو؛ فقد أخذت اللمبات المعلقة في سقف المحطة تضيء معلنةً عن قدوم المترو... معقولة... إنها... حلم عمري الضائع.. هي.. «حياة».. نعم، حياة.. كانت اسم على مسمى_كما يقولون. زميلتي في الجامعة قبل أن تكون حبيبتي.. لم تنظر تجاهي قط؛ ولِمَ تنظر ناحيتي، فأنا لم أعد أساوي شيئًا في حياتها ولا ذاكرتها.. ولا أستحق ذلك! وصل المترو، وصعدت وعيني مصوبةً عليها! وذهب المترو بعيدًا.. بعيدًا.. وأنا طارقًا ناظرًا ناحيته...

رُب صدفة خير من ألف ميعاد.. وأحيانًا أخرى تكون أشد من العذاب...

رجعت البيت.. لا أشعر بشيء في الشقة ولا أرى غير وجهها هي.. دخلت حجرتي مباشرة، وارتميت على السرير، ساندًا رأسي على حافته... تخرج التنهيدة تلو الأخرى.. حاولت أن أنام؛ فقد كنت أشعر أن النوم هو نهر التسامح عند الإغريق... نهر لِيث.. يجعلنا نتصالح مع أنفسنا والأخرين والأهم من ذلك هو تصالحنا مع أفكارنا القابعة على قلوبنا، الجاثية في روؤسنا... ولكن لم يأذن ليَّ النوم بتلك الهدنة هذة المرة... فالأفكار مثل الأسلاك الشائكة، تمر الفكرة وتترك ندوبًا

في عقلي وفي نفسي وروحي.. لا أعرف كيف أعبر تلك الأسلاك.. ولم أفلح في ذلك! كانت حالتي أقرب إلى ما أطلق عليه»الهلع الفكري»، أي أن الفكرة تخوف الأخرى وتخوفني أنا أيضًا.

هل قويت ذاكرتي فجأة، أم أن الأتراح سهلة الاستدعاء عن الأفراح؟!

كان يوم الخميس.. الموافق ٢٠١٢/٥/٢٤.. فلا أستطيع أن أنسى هذا اليوم. إذ كيف أن أنسى يوم أن فقدت حياة.. وفقدت معها حياتي..

أنا: حياة.. أنا.. احنا.. أنا مش هقدر أكمل في علاقتنا كدة!

هي: أيه! وكده إزاي يعني؟!

ـــ يعني، أنا لا أعرف ماذا نصنع بعدما نتخرج، وأنا ليس لدي أي عمل أتقدم به لكِ.. ولا تنسي هم الجيش.

ـــ لكن.. الحب الذي بيننا.. كما أننا نستطيع أن نحارب أي شيء ونقاوم أية صعوبات ونتحدى العالم مع بعض. ولا تنسى أنك مثقف وخريج كلية عالية، يعني أي حد يتمنى تشتغل معه! فَلِمَ كل هذه المخاوف والهواجس التي تقتل حبنا وتنهي علاقتنا بهذه الطريقة المأساوية؟

ـــ هل نسيتي والدكِ حينما ذهبت إليه؛ لأعرض عليه موضوعنا؟!

قال: أنت بتشتغل أيه؟

أنا: أنا لسة في أخر سنة في كلية أداب جامعة القاهرة. وحاليًا بتدرب في مجلة.. وأحيانًا تنشر لي بعض المقالات الأدبية والفلسفية.. وإن شاء الله لما أتخرج هتعين معيد، وإذا لم يوافقني الحظ، سأعمل في التدريس بجانب الكتابة.. حتى أكون كاتبًا بإذن الله.

والدها: مممم.. يعني عاطل؟! وعايزني أجوز بنتي لطالب لسة بيدرس وبياخد مصروفه من أهله! يا بني، بنتي أنا تعبت علشان أوفر لها المستوى الذي تراه الآن_ويمكن هو اللي جذبه ناحيتها. ولا

أستطيع أن أتركها تعاني مما عانيت أنا وأمها منه منذ خمس عشرة سنة..

أنا: لكن أنا مش عاطل، حضرتك! كما أنّي مثقف ومتعلم والمستقبل أمامي واسع، وإن شاء الله سأكون كما أريد وتعيش بنت حضرتك في المستوى الذي تريده لها.

هو: ممكن كلامك يكون صحيح، لكن بعد كام سنة ستصل أو ستعيش بنتي كما أريد؟

أنا: ربنا وحده يعلم! كما أني لا أتواكل على شيء ودائمًا في حالة بحث عن عمل وأخر. وأنا أحبها وهي تحبني؛ وسنتحمل المشقات في سبيل أن نكون معًا. ولا تنسى حضرتك أنك وصلت لما تريده مني الآن بعد خمسة عشرة سنة! فكيف أخلقه أنا في يوم؟

هو: حب! الحب لن يطعمكم أنتم وأولادكم إذا جعتم.. ولن يجعلكم تنامون في اطمئنان دون خوف من دَينٍ يلاحقكم.. الحب الذي تتحدث عنه، له أصحابه! ركز يا بني في مستقبلك الذي تحلم به وتراه واسعًا أمامك، ودع الحب لوقته..

أنا: لكن .....

هو: بدون لكن... ربنا يوفقك يا بني...

****

ـــــ أنا لا أستطيع أن أظلمك أكثر مما ظلمتك معي؛ عندما أحببتك وتركت لنفسي العنان وسمحت لكِ بأن تتركي عنان خيالك وعقلك كذلك. إن الحب وحده لا يُجدي إذا لم يكن معه صلابة الواقع وحصن الأيام، وحضن المجتمع. والمجتمع لا يحكم علي أمثالنا إلا بأننا شوية عيال! لا نعرف ماذا نريد ولا ماذا يجب أن نقوم به. إننا في حالة من الرفض المجتمعي. نعم.. نحن أبرياء ولا نفعل شيئًا لا يليق؛ فالحب لا يشين صاحبه، بالعكس هو زينة النفس وحُليّ الروح. ولكن الخيال

الجامح لا يسمن ولا يغني من جوع. والأباء اليوم لا يقتنعون بما نقتنع نحن الشباب به. وكل منهم يريد أن تعيش ابنته في مستوى لا يقل عن المستوى التي إعتادت عليه.. ولا يهمه أي شيء أخر مهما كان. فلتقولي لي ماذا أقول لوالديكِ عندما أتقدم لكِ؟ ماذا أعمل؟ ما هو راتبي الشهري؟

ـــ قل لهم الحقيقة! قل لهم أنك تحبني وأنا أحبك. وأننا سنبدأ معًا وسنصل بجانب بعضنا البعض.

ـــ ومن الآن يصدق الحقيقة أو على الأقل يعترف بوجودها؟!

في الحياة لا توجد حقيقة، غير تلك الحقيقة!! لا أحد يريد الحقيقة، الكل يتظاهر!

ـــ ولِمَ لم تقل لي من قبل؟! فالذي يربط بيننا ليس حبلًا واهيًا تمزقه كيفما تشاء ووقتما تريد؛ فالذي يربط بيننا، هو ما يربط تلك البشرية جميعًا.. ويوحد هذا المجتمع الذي تخشاه وتتحاشاه.. إنه الحب.. نعم الحب، الذي جعل الحديد يلين، والحجر يئن.. والقلوب تُصفّى. إنه البوتقة الإلهية التي تنصهر فيها القلوب فتلتحم؛ ويصبح من المستحيل الفصل بينها، إلا بأن تدخل نفس المرحلة في درجة من الإنصهار الروحي والبدني تفوق قوة تحمل البشر. إنك تحكم علينا الآن «بموجات فوق حزنية» لن نقوى عليها.

ـــ لم أقل لكِ قبل ذلك؛ لأني أحببتكِ!.. نعم.. وحلمتُ يومًا بأننا سنكون معًا في بيتٍ واحد، وتحت سقفٍ واحد.. لكني لم أكن أدرك وقتها أن ليست كل الأحلام في حياتنا نحققها أو حتى على الأقل نعرف طريقها! الذي يربط بيننا هو كما قولتي: الذي يربط الكون وهو الذي أوجد الخلق.. ونشر الحياة على ضِفاف الحياة. كما أني كنت أحاول جاهدًا الوصول إلى شيءٍ يجعلني أأخذكِ من بيتكم إلى بيتنا.. لكني لا أملك الآن إلا بضعة كتب أعكف عليها ليل نهار..

وأنهل منها كالظمآن في وسط بحيرة! فماذا أفعل بهم؟ ولنفترض أن والديكِ وافقا على زواجنا.. ماذا نفعل بعد ذلك؟ نرجع نعتذر لهم ونطلب رحمتهم ومساعدتهم، أم نموت غيظًا؟ فلتقولي لي: إذا جاءنا ضيوف ونحن لم نكن على استعداد.. ما هو موقفنا؟ هل أذبح لهم الكوميديا الإلهية.. وأقدم لهم مذكرات شارلي شابلن بعد الغذاء! كما أن أولادنا نحن ماذا يأكلون، أعرف أني نسيت أن بحوزتنا الفردوس المفقود لميلتون! ونصنع لهم حجرة من الكتب ونفرش لهم جنتهم من الورق.. كما لو كانوا آدم وحواء وقد تساقط عنهم ورق التوت. وبعد ذلك، يأتي اليوم الذي تلعنين اليوم الذي عرفتيني فيه.. ويأتي أولادي يقولون لي: أنهم قرأوا في كتاب المدرسة أن للأبناء حقوق وعلى الأباء واجبات، فأين تلك الحقوق والواجبات؟!

ـــــ لا أعرف كيف لشخص مثلك يكفر بالعلم ويكفر بالأمل ويترك كل أحلامه تذهب سُدى في خنادق الحياة الموحشة.

ـــــ أنا لم أكفر بشيء.. كل ما في الأمر أني حررت لساني وقبله عقلي من اللجام الذي قيدتهما به.. وفككتهما من الحديد الذي وضعتهما فيه.. إني لم أقل غير القليل مما أحبسه بداخلي، وما يحمله الكثير من الشباب الآن في قلوبهم.. فهم يعتصرون بالداخل.. يتمزقون في صمت.. يحترقون في همس.. إن مثلي ومثل هؤلاء المساكين_الشباب_ مثل حال عبد الحليم حافظ في أغنيته «لست أدري»؛ فحالنا يردد دائمًا: جئت لا أعلم من أين ولكني أتيتُ.. ولقد أبصرتُ أمامي طريقًا فمشيتُ.. وسأبقى سائرًا إن شئتُ هذا أم أبيتُ.. كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري.. أنا لا أذكر شيئًا من حياتي الماضية.. أنا لا أعلم شيئًا عن حياتي الآتية... فكيف لأمثالنا أن يطمعوا في حياة لا يرون لها أية ملامح ولا يعرفون لها شكلًا محددًا... إن أمثالنا لا يستطيعون غير الحلم بالسعادة؛ فهم لا يرونها ولا يعرفونها... والمرتبطون بهم،

محكمون عليهم بالتعاسة الأبدية!

ـــ وهل كل هؤلاء الذين تطلق عليهم مساكين، سيتركون ما يحلمون ويهربون مما لا يقدرون.. ويثنون الطرف عما لا يرونه كما أرادو؟! أي ظروف_تلك_ التي تسمح لك بأن تحطم قلبً حلّق في سماء شاسعة وترك كل ما يربطه بواقع يحيط به لأجلك... إن السعادة لا تُعد بطول الأيام التي نفرح بها أو ربما نضحك على متنها؛ إنها شعور خفي يُبحر في أعماق الإنسان، يستكشف معادن مغمورة بل قد تكون منسية أو ربما نجهلها.. إنها كلمة قد نسمعها ممن نحب.. إبتسامة عفوية تنطلق من قلب نهواه ونتمناه.. إنها لحظة نكون بها مع من يمثل لنا الحياة والكون إن شئت. إنني أتحدث عن الحب! ليس حبًا بعينه، إنه كذلك كل أنواع الحب: حب بين الرجل والمرأة التي يحبها.. بين العائلة أو بين الأصدقاء.. وبين الإنسان وشيءٍ يهواه، قد يكون كتابًا أو أغنية أو ورقة خُطت بيد غالية في تعداد النفائس.. يصدق ذلك أيضًا على ثوانٍ قد يعيشها الإنسان بين نفسه، يغوص في طياتها؛ يستكشفها من جديد ويحدثها بما يخبو في نفسه وتأنف أن تحدث أحدًا غيره بها... تكمن السعادة في كل شيء يتخلله كلمة:» الحب»؛ فالسعادة حب للحياة والحياة ما هي إلا حب للسعادة والتعلق بها. وزبدة القول: ابحث عن السعادة في الحب وعن الحب في مكانٍ ينبع منه سعادتك؛ فلن يسعدك إلا من يحبك ولن يحبك إلا من يهمه سعادتك!

ـــ تعرفين تمام المعرفة أن الميثولوجيا الإغريقية ذُكر فيها أن الإنسان خُلق له أربعة أذرع.. وأربعة أقدام.. ورأس له وجهان.. ولكن، تحاشيًا لقوتهم، فصلهم زيوس لجزئين.. وحكم عليهما أن يظل كل منهما في حالة بحث عن جزئه الأخر حتى يجده.... فإذا كنت نصفكِ الأخر، فحتمًا سنلتقي.. وإذا لم أكن هذا النصف.. فكيف السبيل إلى لقائنا؟!...

وقد جاء ديننا الإسلامي بما يأكد تلك الأسطورة؛ فقال تعال:» وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»

ـــ صحيح، أعرف ذلك. وأعرف كذلك أنكم معشر الرجال جديرون في الإقناع لما تريدون.. تختلقون الحجج وتدحضون براهين الأخرين.. تجعلون من البحر طحينة! تستدلون بما أنكرتموه من قبل، وكفرتم به واستخففتم بمن قاموا به قبلكم. وأعرف، أنك تريدني تبعًا لك.. أو ربما أعجبتك حاجتي إليك. تريدني أنتظرك في ألم وعلى مضض.. أترقبك؛ لتذيب ثلوج اليأس وتشعل فتيل الشوق والحنين.. أردتني مشدودة إليك بهذا الحبل المقدس الذي اسمه «الحب»! تتوه مني ملامحي حينما أراك؛ فلا أرى غيرك ولا أشعر إلا بهمسك.. أتضاءل بجوارك.. فليس لي ماضٍ ولا حاضرٍ ولا مستقبلٍ إلا بك! ويتضاءل الكون بأجمعه في عيني. تعشقني كتابًا من كتبك بين يديك؛ تتأملني وتقرأني على مهلٍ. ترى كم أن ولْهى بك، وتستمتع بكلمات عيوني الصامتة التي تعلن حبها وعشقها لك.. تريدني أتعرّى على شاطئ الحب أمامك؛ فلا يبقى شيء يخصني لا تعرفه أو تملكه.. وأتجرع العشق خمرًا.. وأهلوس باسمك على ملأ من الناس دون وعي أو خوف وتوجس....

أعتذر لك في البداية.. أعتذر لك عن حبي لك.. وكل لحظة صدقتك فيها وصدقت نفسي.. أعتذر لقلبي ومشاعري اللذين جردتهما أمامك من كبريائهما؛ ولكن عزائي هو أني لست صاحبة تجربة في الحب من قبلك، فكنت صادقة في كل شيء.. أما أنت فما عزائك؟ أتريد الحقيقة؟ نعم، أنا أحبك، ولكني أكره الرجل الجبان! وأنت جبان؛ لا تملك حتى أن تقف أمام نفسك من أجل نفسك، فكيف لنفسك أن تنجو؟!

تندهش الآن من قوتي وكلامي.. فرُبما توقعت غير ذلك.. لكن لا

تحـزن فأنـا أيضًـا توقعـت غـير مـا قولتـه ليّ الآن بكثـير. حلمـتُ يومًـا بحيـاة نرسـمها معًـا.. ونبنيهـا بحبنـا.. ونحياهـا بإرادتنـا.. حلمـتُ بأنـكِ فـارسي وحصنـي ومـلاذي.. تخيلتـك «آخيـل» فقدمـت لـك أسـلحتي وأمتعتـي لتنتـصر بي ولي، ولكنـك لم تكـن لي غـير «كعبـه»!!

سـأرحل عـن شـاطئ أوهامـك.. سـأترك لـك عالمـك كـما تريـد، ولكـن قـد نلتقـي فيـما بعـد ولـن تجـرؤ آنـذاك أن تحدثنـي، فضلًا عـن لو وجـدت الجُـرأة أن تنظـر ناحيتـي. ربمـا تختلـس نظـرة ناحيتـي، بيـد أنهـا لـن تكـون لـك سـوى سـوطًا يعلمـك مـدى مـا تفعلـه بيّ الآن.. ويذكـرك بأشـياءٍ ظننـت أنهـا ماتـت معـي برحيـلي أو ربمـا رحيلـك أنـت إن صـح التعبـير. ولتعلـم أني كـما خرجـت مـن حياتـك، سـتخرج أنـت في نفـس اللحظـة مـن كل كيـاني.

قولـت لي: بأنـك مثـل حـال عبـد الحليـم حافـظ في أغنيـة «لسـت أدري».. وأحـب أبـشرك بأنـك سـتكون أشـبه بـه في أغنيتـه «قارئـة الفنجـان»: مقـدورك أن تمـضي أبـدًا في بحـر الحـب بغـير قلـوع.. وتكـون حياتـك طـول العمـر كتـاب دمـوع.. مقـدورك أن تبقـى مسـجونًا بـين المـاء وبـين النـار.

ربنا يسامحك على ما فعلت.

أحب أن أتركك أنا قبل أن تنهي الكلام أنت وتسير بعيدًا...

فليذهـب كل منـا لقـدره ومصـيره في سـلام كـما بدأنـا في سـلام.. فالحـب لا يعـرف الحـرب.

يا الله!

ليتكِ تعرفين أني من أجلك عاندت الكثير.. وتحديات الأهوال.. ووقفت في وجه الصعبات.. ولكنها كانت أقوى من العناد وأعتى من الضربات التى أوجهها.. وأقسى من أن تنهزم.. لتجعلنا نعبر في سلام. من أجلك قاومت تلال الأهوال والأحزن، وقفزت في بحر الدموع فغرقت. فأنتِ تعيشين الآن وأنا والموت رفيقان.

سحقًا لهؤلاء الراحلين؛ يذهبون دون أن يأخذوا معهم كل ما يخصهم.. فلا بد أن يبقى شيء في النفس، وتقطن الأحزان الروح.. فهم لا يموتون فينا، إلا بعد أن نموت نحن أولًا.

أشتهي النوم، ولا أعرف كيف السبيل إليه وبعقلي هذا الكم الهائل من ملوحة الأفكار!!

obeikan.com

obeikan.com

تتبلور حياة الرجل من البداية إلى النهاية في كلمة واحدة من أجمل ما ينطق، هي المرأة!

فهو مشدود لها كطفل رغمًا عنه.. وحين يشد عضده قليلًا.. وكذلك حين يكون غلامًا فهي مأمنه.. وعندما يكون شابًا يجد نفسه منجذب لها رغمًا عنه؛ يفكر فيها، ويسهر لها ويود لو كانت معه.. وعندما يصبح رجلًا يرتبط بها أكثر أو لها، المهم أنه تعلق بها أو وقع فيها. فالزواج يجعلهما متلاصقان تمامًا، يجعلهما جسدين بروحٍ واحدة_أو على الأقل هذا ما يجب أن يكون. وحتى عندما يموت وحينما يفكر بأنه سيموت ويدخله الله سبحانه وتعالى الجنه؛ جزاءًا وفقًا لأنه تحمل هذا الكائن طوال حياته.. لا يجد مهربًا إلا أن يفكر في الحور العين! وأنه سيتزوج في الجنه ولن يمل أو يضجر منهن؛ لجمالهن ورقتهن وبكورتهن... وقد نجد من ينوي أنه سيتزوج زوجته الدنيوية هناك!! وإن شح هذا النوع من السوق الآن.

والمعنى أنه لا حياة للرجل بدون المرأة أو لا تفكير للرجل غير المرأة.. إنها طبيعته...

ولا أحد ينكر أن العكس صحيحًا ولكنه قد يكون ليس بنفس الدرجة عند الرجل...

ما هي الدنيا؟ الدنيا ليست إلا حواء وأدم.. رجل وامرأة.. ذكر وأنثى.. ومهما قلنا عن الزواج وبالغنا في تهويله، وترويع المقبلين عليه، فهو العلاقة الحميمية الصحيحة التي يرنو إليها كل فرد.. بل من المفترض أن يكون الزواج دافع لاستكمال المسيرة العاطفية التي بدأت قبله.. وليس لوأد وهجته وإخماد حرارته.

فمن أجمل ما قرأت عن عادات الحضارات في الزواج، عادة البابليين؛ حيث كان في كل سنة هناك مزاد يعرضون فيه فتيات بسن الزواج.

وكان من الطبيعي أن يدفع الرجال مبالغ طائلة للحصول على الفتيات الأجمل. فكانت تُجمع هذه الأموال لتكون مهرًا للفتيات الأقل جمالًا كي يتسنّى لهنّ إيجاد زوج. حتى أن المؤرخ الأسطوري هيرودوت اعتبر هذه العادة الأكثر حكمة ونبلًا بين كل عادات البابليين.. وهي كذلك! ومعنى ذلك أن الرجل للمرأة والمرأة للرجل وإن كابر كل منهما في رغبتة للأخر وحاجته إليه.. وأقرب تشبيه لحالتهما: هي مثل أن ينفر أحدنا من حرارة الشمس اللاسعة واصفًا إيّاها بأنّها لا تُطاق، وعندما يحل الزمهرير نتلمس أشعتها، ونتسابق على أماكن نزولها. وإعراض الرجل عن المرأة ونفور المرأة من الرجل أشبه بتلك الحالة؛ فكلٌ منهما يريد ويحتاج الأخر لا محالة. وهكذا خُلق الكون. والأنسب لهما هو الالتصاق الزوجي الروحي منه قبل الجسدي. ثمة خيط لا يُرى، ولكن يُدرك من الفاطنين لحكمة الله في خلقه، بين الاثنين. بيد أن الرجل والمرأة بعد الزواج يدرك كل منهما أن الحياة بينهما تبدلت عن ذي قبل.. وأنها فقدت كل معانيها؛ فهو لم يعد يحبها وهي لم تعد تشعر به.. ويبدأ كل منهما في إلقاء اللوم على الأخر وتحميله الآثام والواجبات الزوجية. يتغلغل إلى كل منهما رأي غريب، أن الحب لما يعد وقته الآن؛ فلديهما أولاد لا بد من التفكير في مستقبلهم والحصول على المال اللازم لضمان عيشة هنية لهم ويتجنبون في مستقبلهم كل ما عانوا منه في صغرهم. وهذا كله بالطبع غير صحيح؛ بل الوقت الذي يصبح كل منهما في حاجة لحالة حب وحنان وإحساس هو بعد الزواج. بعد أن تتراكم المشاكل وتنزوي الأحلام ويبدأ الواقع يفرض نفسه في وضح النهار وفي سكون الليل؛ فلم يعد للتنميق مكانٌ ولا للشرود سبيل. يلغي كل منهما الأخر ولا أقصد أنه لم يعد يفكر فيه، لا، بل لم يعد يفكر في تفكيره ويبحث في داخله ويتأمل شخصيته. فلو تأملت المرأة قليلًا لأدركت كم التعب والجهد

الـذي يبذلـه زوجهـا مـن أجلهـا ومـن أجـل أولادهـا.. ولـو نظـر الرجـل قليـلًا لأدرك مـا تعانيـه مـن أجلـه ومـن أجلـه بيـتٍ صغـير لطالمـا حلمـت بـه وفكـرت في شـكله وأسـلوبه مـن قبـل تكوينـه بكثـير. وأجمـل مـا في المـرأة أنهـا طالمـا تحـب شـيئًا أو شـخصًا لا تيـأس منـه ولا تعـرف لليـأس طريـق.. ولا تمـل الانتظـار؛ فهـو ليـس ضائعًـا عندهـا.. إنهـا تفكـر.. وتحلـم وترسـم وتـرى وتدقـق النظـر في حبيبهـا وترسـم لـه صـورة جميلـة لـتراه قبـل أن يـأتي وتسـمعه قبـل أن يتكلـم... وفي كثـيرٍ مـن الأوقـات يتناسى الرجـل تلـك السـجيّة في غـير عمـدٍ منـه؛ اعتقـادًا منـه بـأنّ عقـل المـرأة لا بُـد أن يكـون مثلـه تمامًـا... وأنّهـا تُـدرك أنّ العمـر يجـري ولا مفـر مـن الاعتنـاء بمـا هـو أوجـب! ولكنـه ينصـدم بواقـعٍ غـير هـذا!

فعـلى سـبيل المثـال: كان الأديـب الكبـير فيكتـور هوجـو يجلـس عنـد عشـيقته ممثلـة المـسرح غـير المعروفـة جولييـت، وكانـت قد ملئت الشـقة بصـوره وأعـدت لـه في غرفـة نومهـا ركنًـا بـه مائـدة للكتابـة ومصبـاح قـوي ومدفـأة وأوراق لا حـصر لهـا وكانـت تقـضي الليـل بطولـه راقـدة في فراشـها ترقـب شـاعرها وكاتبهـا العظيـم وهـو يكتـب ولا ترفـع عينيهـا عـن رأسـه.. واسـتمر ذات ليلـة يكتـب ويكتـب حتـى سـطع النهـار عليـه وأنهـى إحـدى رواياتـه ورفـع رأسـه معتـذرًا لهـا وهـو يقـول: جعلتـكِ تنتظريـن طويـلًا؟ فبادرتـه بحـرارة: لم أكـن أنتظـر.. وإنمـا كنـت أنظـر إلى رأسـك النبيـل الملهـم.. فيتضاعـف حبـي لـك وإعجابي بـك.. وازداد سـعادة! وهكـذا كل يـوم وليلـة.. والمقصـود هنـا أنّ المـرأة عندمـا تعشـق فهـي لا تمـل وعندمـا تحـب فهـي لا تنفـر ولكـن حينـما تكـره فهـي لا تشـفق!

ثمـة فكـرة لا تمـط للحقيقـة بـشيء: وهـي أن العقـل لا بـد أن يسـيطر عـلى الحيـاة بعـد الـزواج ولا سـبيل إلا أن تتنحـى كل المشـاعر وتبـدأ الحياة بعد الـزواج تختلـف عـن ذي قبـل بكثـير. وهـذه الفكـرة ليسـت صحيحـة عـلى الإطـلاق فالطبيعـة لـكل مـن الرجـل والمـرأة لـن تتغـير حتـى لـو تغـيرت

الظـروف؛ فالمـرأة لا تـزال تبحـث وتعشـق المفاجـأت ولحظـات الجنـون مـع مـن تحب_زوجهـا. والرجـل لا يـزال يبحـث عـن الحنـان والحضـن الـذي بـات يذكـره بحضـن أمـه، تلـك الضمـة التـي كانـت تنسـيه العـالم بـكل مـا يحمـل. ومعظـم الرجـال يبحثـون عـن أمهاتهـم في زوجاتهـم وإن كان هـذا يضايـق الزوجـة في كثـير مـن الأحيـان؛ فهـي تحـب أمـه أو لا تحبهـا أيًّـا كان، لكنهـا ليسـت هـي! ولـن تكـون. فهـل أحبهـا لمجـرد أنهـا تشـبه أمـه؟ معنـى ذلـك أنـه كان يكـذب عليهـا في حبـه؟ المـرأة تعشـق شـعور أن مـن تحبـه هـو طفلهـا المدلـل، أو هـو صـورة مـن طفلهـا قبـل أن تـراه. ولكنهـا ترفـض شـعور أن تجـده يبحـث عـن أمـه فيهـا هـي! أي لا يـروق لهـا أن تجـده يقـول لهـا: أمـي كانـت تقـول.. أمـي طهيهـا أفضـل بكثـير.. أمـي لم أعتـد منهـا عـلى ذلـك.. دائمًـا كان نفـسي أتـزوج مـن فتـاة مثـل أمـي!! وفي حقيقـة الأمـر بعـد الرجـال يبالغـون في ذلـك. ومـن أمثلـة هـؤلاء الرجـال: الفيلسـوف العظيـم شـوبنهور: فقـد كان مـن أهـم أسـباب عـدم زواجـه أنـه يريـد امـرأة مثـل والدتـه.. وإن كان لـه سـببًا أخـر، وهـو أنـه كان يـرى أن الحـب ليـس إلا خدعـة مـن أجـل اصطيـاد الرجـل. والـزواج ضـد العلـم وضـد الفلسـفة. والإنسـان لا يدخـل التاريـخ لأنـه أب أو لأنـه فحـل، وإنمـا لأنـه أضـاف شـيئاً إلى الـتراث الإنسـاني!

وعـلى نفـس الملتقـى، نجـد بعـض الفتيـات يضعـن أزواجهـن في مقارنـة دائمـة مـع أبائهـن؛ فوالدهـا كان يأخذوهـم إلى الملاهـي كل أسـبوع. وكانـت تذهـب «للبسـين» يومـين في الشـهر عـلى الأقـل. وكان والدهـا أكـثر لطفًـا مـع أمهـا.. ولا يميـت الرجـل شيء كهـذا القـول. فهـو إذن ليـس مجـرد «كومبـارس» في حيـاة زوجتـه أو مرتديًـا قنـاع والدهـا، وإذا خلعـه انهـارت كل الأشـياء ولم يصبـح هـو. فالرجـل يشـعر بـأن زوجتـه تقلـل مـن رجولتـه.

وللأسـف هنـاك أمـر متعلـق بطبيعـة الرجـل، وهـو أنـه معتـاد عـلى

إخفاء مشاعره، طالما ليس ثمة داعي قوي يدعوه لذلك؛ فهي زوجته وتعرف ما بداخله وقد قال كل ما ترنو إليه، وسيقول ولكنه ليس الآن بالتحديد.

والمرأة كما هي أم بالفطرة، فهى تحب كذلك بالفطرة.. وتعشق الجنون في الحب والتخلي عن أية ذرة تفكرها بالضوابط والقواعد الإجتماعية العقيمة التي لا تُجدي بشيء إلا ما يروق لأصحابها. إننا لا نعرف متى نحب ولا من الذي سنحب! فلما عندما نحب نجد من يقول اشمعنى هذا؟ وليس ذلك الوقت الملائم؟! إنها بيروقراطية متعفنة لا يتقنها إلا أصحاب العقول الشائخة. فهى تقول لنفسها: علمني حبي ليك إني أدوب يا حبيبي فيك.. وفيك أنت بس! ولا يهمني غيرك؛ فالعالم هوأنت.. وقلبك هو الكون.. وكلامك هو أكسير الحياة...

أما الرجل فهو رجل بالفطرة ولو لم تنجح الفطرة في بناء ذلك الكيان، فالبيئة كفيلة. فالأب يقول له: أنت رجل البيت من بعدي.. والأم تقول له نفس المعنى ولو اختلفت الكلمات. إنه نسخة مصغرى من والده! والبنت لا تخرج إلا معها أخوها الكبير أو الصغير؛ فالمهم أن يكون معها «راجل».. الدنيا لم يعد فيها أمان! وبعض الأباء لا يرون أي إساءة لو ارتفع صوت الأخ على أخته الكبيرة_فهو الولد أو الرجل. أما لو أغضب الابن أخته الكبيرة ونهرته، فهى فضيحة وتنهال الكلمات على غرار:أنتِ متربتيش.. المفروض صوتك ميعلاش كده! أنتِ عايزة لما تتجوزي تعلي صوتك على زوجك؟! ولا يهدأ البيت إلا لو اعتذرت، وربما يقبل أخوها إعتذارها. فهو إعتاد ذلك من صغره وإعتاد أن يقول فيُسمع له.. ويأمر فيُطاع. وكذلك نشأ على إخفاء مشاعره!

فمن حقه أن يحب، ولكن ليس من حقه أن يقول ويعلن ذلك. فلو

علمت زوجته أنه يحبها ولا يمكن أن يستغني عنها.. فلن يأخذ منها حق ولا باطل. ويا ويله لو كانت حماته على قيد الحياة، فسيرى النجوم في عز الظهر وفي العصر والمغرب والعشاء والفجر كذلك! ولهذا السبب، فلابد أن «يذبح لها القطة من أول يوم» حتى لا تجرأ أن تنظر إليه أو تناقشه في كلمة. ويكبر الشاب على هذه التعقيدات النفسية ويجد أن ما بداخله كبير.. عميق.. حقيقي.. ولا يعرف هل يبوح به؟ ولو باح به ما هو ضمانه ألا تنقلب عليه زوجته وحماته؟ إنه مسكين.. ولكن هل المشاعر جريمة؟ أم أن الحب ضعفًا؟ ولو كان كذلك فهي تحبني إذن هي ضعيفة مثله! بيد أن ضعف المرأة في الحب هو قوتها ولا ينقصها شيئًا بل إنها تُفضل الضعف في الحب على المكابرة في غيره.

وكثيرًا ما تكتشف المرأة أنه لا يقول لها كلام حب بعد الزواج كما كان قبله_في الخطوبة أو في أيام الحب. ويبدأ يلعب الفأر في رأسها وأمها في أذنها. فلابد أنه زهق مني و»لاف» على غيري.. وهذا ليس صحيحًا إطلاقًا، كل ما في الأمر أن الرجل يرى أنه قال ما يجب أن يقوله في الوقت المناسب، ولا داعي للتكرار والرغي؛ فهي عادة النساء، لكنه نسي أنها امرأة فتحب إعادة الكلام ولا تمل منه ولكن المشكلة أنه لا يتقن ذلك. ويصدق هنا قول أستاذنا الكبير أنيس منصور:»إذا أردت أن تثير قلق زوجتك يجب أن تبقى هادئًا!»

وزبدة القول، تكمن في كيفية إدراك الموقف وفهم كل منهما للأخر. كلما كان كل منهما على دراية بالاختلافات بينه وبين الأخر ، كان قادراً على تفسير تصرفاته وفهم احتياجاته وتلبيته.. وبالتالي إسعاده بالطرق التي تلائمه. «فالرجال من المريخ والنساء من الزهرة.» ولا بد أن تقوم العلاقة على الإحترام المتبادل بينهما.. وليحترم كل منهما أهل الأخر، ولا يقف على الواحدة كما يقولون. والمثل الشعبي المصري

يقـول: "لجـل الـورد ينسـقي العُلّيـق" بمعنـي أنـك عندمـا تسـقي الـورد فـإن الإنـاء الـذي يحتـوي عـلى الـورد يحصـل عـلى المـاء تباعًـا، ولـو لم يحتـوِ هـذا الإنـاء عـلى ورد لمـا حصـل عـلى مـاء.

obeikan.com

obeikan.com

التي حيّرت الكون

الإنسان مخلوق عجيب.. غريب..

منذ الوهلة الأولى لخلقه وهو في عين الاختلاف والاندهاش

رأته الملائكة غامضًا.. عويصًا..

دخيلًا في الناموس الكوني...

واختُزل الخلاف لينصب على جزءٍ من مفهوم ومعنى ودلالة الإنسانية، وهو المرأة!

«هي السبب! كلهن وش مشاكل! منهّن لله! دول خرجونا من الجنة.. الله يخرب بيتهن كان زمانا في الجنة دلوقتي بدل الهم اللي احنا فيه.» تلك الكلمات وأكثر منها تسمع ألسنة الرجال تلهج به في غضبهم، وعند اجتماعهم مع بعضهم البعض يتحدثون عن تلك الفتنة التي زرعها الله عزوجل بين ظهرانيهم.

للأسف هذا هو رأي الكثير منّا؛ فهناك الكثير ممن يرون أنّه لولا أمُنا حواء ما خرج أبونا آدم من الجنة وما نزلنا لدار الشقاء. والمرأة منذ بدء الخليقة سبب حيرة وقلق وخلاف، فهل هي السبب أم لا؟ بالرغم من أنّ الله قال: «فوسوس لهما الشيطان...» ولم يقل لها. وفي موضع آخر قال: «فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجر الخلد وملك لا يبلى» ومع ذلك فنحن مازلنا في حيرتنا حتى الآن متسائلين من السبب؟ ولو كان الأمر له تلك الأهمية لأخبرنا الله ولكنّه ما هو إلا تنفيذٌ للإرادة الإلهية. لكنها المرأة التي حيرتنا.

حيّرت المرأة العقلاء وجننت الفلاسفة والعظماء، واختلف على طبيعتها العلماء والكُتاب بل أثارت القضايا العالمية والأراء المتباينة حول هل الأصح أنّ نكون معها أم ضدها. فكان الكل يُدلي بدلوه على حسب ما يخرج منها وما يعاصره معها. والمرأة حريٌّ بها

وبتميزها ألا تُرى بعينٍ واحدة.

والعقاد يقول في هذا الصدد: «فأنت ترى المرأة بالعين المجردة، وتراها تحت الميكرسكوب.. وترى أحشاء المرأة أثناء عملية جراحية.. وتراها عند الحمل والولادة والرضاعة.. وأن في كل هذه الأحوال ترى أشكالًا مختلفة للمرأة.. وإذا سألت الرسام عن المرأة حدثك عن خطوط الاستدارة حول النهدين والردفين والوجنتين والحاجبين، وإذا سألت الشاعر حدثك عن عينيها ولمساتها وآهاتها، وإذا سألت ذئب النساء حدثك عن قُبلاتها وأحضانها وعن الذوبان بين ذراعيها ليلة أو ليلتين، ثمّ حدثك عن امرأة ثانية وثالثة، وإذا سألت شهريار عن شهر زاد قال لك: إنّها قصة وقبلة ونوم عميق وليلة تمضي.. وإذا سألت عالم الحياة فإنّه يحدثك عن خلاياها وغددها وأمراضها الشهرية.. وإذا سألت الزوج وإذا سألت الابن والأخ.. فكلهم يقولون أشياءًا مختلفة.. وكلهم صادقون وكلهم كاذبون أيضًا. فالمرأة ليست تمثال الرسام ولا قصيدة الشاعر ولا خلايا الطبيب...»

ولذا تباينت الأراء حول المرأة بتباين أصحابها. والمدهش أنّ كل منهم كان معها وضدها في آنٍ واحد!

ومن أمثال هؤلاء كاتب الشباب، أنيس منصور؛ فله مقولات توحي بعداوته العميقة المتأصلة لها، وآخرى تعكس احترامه وتقديره لها. وكتابه قالوا يفي بالغرض، ولكني سأعرض بعضًا منها. فمن مقولاته التي في قائمة العداوة: «تبتسم المرأة عندما تستطيع، وتبكي عندما تريد!»، وقال أيضًا: «وراء كل ناجح امرأة، ووراء كل ناجح ثمّ فشل امرأة آخرى!»، وكذلك قال: «ندمت على أنّي ليس لي ابنة، فلمّا رأيتُ البنات ندمت على أنني ندمت!»، وأخيرًا وليس أخرًا، قال: «سعيد من يجد امرأة يحبها، تعيس من يجدها ثمّ يتزوجها!» فالقارئ لتلك المقولات يتيقن كل اليقين أنّ الكاتب ضدهن بل يخيل

إليه أنّه ضحية إحداهن! بيد أنّه على النقيض تمامًا قال: «المرأة كالشمعة إذا عرف الرجل كيف يمسكها أنارت له الطريق، وإذا أخطأ أحرقت يده!»، وأيضًا: «إذا أحبت المرأة ضحت بنفسها من أجل قلبها!» تجد نفسك في حيرة غائرة فمن هي إذن؟

بل إنّ الدرامي الإنجليزي شكسبير قال: «دمعة المرأة لو تجمدت لكانت أجمل لؤلؤة». وفي مسرحيته ترويض الشرسة، يصف أنفاسها في أنفاس «بيانكا» على لسان لوسنتو: «رأيتُ مرجان الشفاة يا ترانيو عندما افترَّت/ وعطّرت أنفاسها الهواء حولنا/ وكل ما رأيته فيها مقدُّسٌ وعَذْب.» ويقول كذلك: «في الحب تخلص المرأة لعجزها عن الخيانة!» وهناك من يُنسب إليه مقولة: «المرأة كالسجادة كلما أشبعتها ضربًا، زادت بريقًا ولمعانًا!»

ويقول القديس والفيلسوف أوغسطين: الرجل سيد المرأة والمرأة عبد. إنّها إرادة الله التي جعلت سارة تطيع إبراهيم وجعلته سيدها.. فزوجاتكم عبيد لكم، وأنتم سادة لهن!

والقديس بولس يقول: المسيح سيد الرجال، والرجل سيد المرأة. الرجل لم يخرج من ضلع المرأة ولكنها هي التي خرجت من ضلع الرجل، الرجل لم يُخلق للمرأة. المرأة خلقها الله للرجل..

والكاتب الفرنسي الكبير بلزاك يقول عنها: المرأة كالصحف لا تتألق إلّا إذا كذبت ولا تهدأ إلّا إذا جعلتك تصدق أكاذيبها. والرجل كالمجتمع لأنّه سوف يستسلم في النهاية!

ولكنّ وزيرة فرنسا فرانسوز جيرو فتقول عن تلك الأراء: أنّها تعوق تقدم المرأة في أداء دورها في المجتمع والذي هو في حاجة ماسة له. فبلزاك مثلًا، وهو عبقرية أدبية وفلسفية لا يفكر في طريقة للتعايش مع المرأة.. ولا يكون زوجًا وأبًا، إنّما هو مشغول بإزالة تلك المصيبة التي اسمها المرأة. ثمّ مطلوب منا نحن النساء أن نحترم مثل

هـذا التفكـير الـذي يجعلنـا ننظـر عـلى أنفسـنا عـلى أننـا مـرض أو داء أو بقعـة سـوداء أو لعنـة السـماء عـلى الأرض..

وتقـول أنّ الرجـال قـد قهـروا المـرأة بقوانينهم وحياتهـم. ووضعوا في روؤس النسـاء الإعجـاب الشـديد بالرجـل. وأنـه قضـاء وقـدر. وأنّ المـرأة مهـما حاولـت فهـو سـيدها ومولاهـا. وهـو حاكـم الأبـدي لأحلامهـا.. هـذا صحيـح. ولكـن المـرأة تـرد عـلى هـذا القهـر العـام بقهـر خـاص. فـكل امـرأة تنفـرد بزوجهـا وتتحكـم فيـه عـلى انفـراد.. فـماذا كانـت النتيجـة؟ إن المـرأة تحكـم الرجـل إن كان الرجـل لا يـدري بذلـك...

ولمـا سُـئلت: كيـف أنهـا هكـذا تشـعر بـأن المـرأة مظلومـة ولا يرسـم عـلى وجههـا أي حـزن لهـذه المأسـاة الحقيقيـة! كان ردهـا: أكـره هـذا الحـزن العميـق عـلى وجـه المـرأة.. وأكـره أن تحصـل المـرأة عـلى حقهـا بالبـكاء. وأكـره أن تكـون الدمـوع هـي مفـردات الحـوار بـين الرجـل والمـرأة. نحـن مطالبـات بـأن نجعـل للحيـاة لونًـا ورديًّـا.. نفـس الألـوان التـي نسـتخدمها غـي وجوهنـا.. إننـا يجـب أن ننقـل هـذه الألـوان إلى مـا تحـت الجلـد.. وإلا كان هـذا الوجـه المصبـوغ المرسـوم إعلانًـا عـن بضاعـة لا وجـود لهـا.. أو كانـت هـذه البضاعـة مجـرد إعـلان عديـم القيمـة.. إنـه مـن الممكـن أن يكافـح الإنسـان وهـو يضحـك. وأن يقاتـل وهـو سـعيد.. وأن يطلـب العـدل دون أن يشـكو مـن السلاسـل في يديـه وعنقـه. إننـي أكـره هـذا النـوع مـن الاحتجـاج الأخـرس!

ومـن أبلـغ مـا نطقـت العربيـة: النِّسـاءُ هـنَّ الدواهِـيَ والـدوا هُـنَّ

لا طيْبَ للعيْشِ بِلاهُنَّ والبَلا هُنّ

والكاتـب الأمريـكي مـارك تويـن في كتابـه: يوميـات آدم وحـواء يـسرد عـلى لسـان آدم قائـلًا: إنَّ هـذا المخلـوق الجديـد، ذا الشـعر الطويلِ، يُضايقنـي كثـيرًا. إنَّـه دائـم الحركـة، يتبعنـي أينـما ذهبـت. ثـمّ يقـول عـلى

لسانه بعد فترة معينة: حقًّا إنَّني أستطيعُ الاستمتاع بذلك؛ لأنني بدأتُ أدرك أنها مخلوقٌ جميلٌ جدًّا، فهي رشيقة القوام، نحيفة، ملفوفة، خفيفة الحركة... إنّها جميلة. وكأنّ توين يعكس التناقضات القائمة في رؤية الأنثى منذ اليوم الأول لها على البسيطة والتقائها بنصفها الثاني.

ومع عداوة العقاد القائمة المتصلدة للمرأة فهو يقول في تناقضها: «ففي طبع المرأة هذا التناقض الشديد.. والذي يجدون في تناقض المرأة دليًلا على أنّها كائن غير مفهوم، لا يفهمون المرأة.»

ويعجب العلاّمة أبو فهر محمود محمد شاكر، أن يجتمع هذا الفتك والقوة مع رقة الأنوثة ولينها في كيانٍ واحد فيقول: أأنثى ووحشٌ؟! جَلَّ خالِقُ خَلْقِه *** وسُبحان كاسِي الوحْشَ من رَوْنَقٍ غَضِّ

والفليسوف سقراط قال في حقها: المرأة أجمل هدية قدمها الله للإنسان.»، وقال غيره: «يكفي في أهمية المرأة أن ألوف الرجال يعجزون عن مليء فراغ وجودها عند أحدٍ منهم!»، بل قد زاد ثالثٌ وقال: «يكفي في عظمة المرأة أنّها امرأة.. ويكفي في مجد الرجل أنّه شريك حياتها!»

وفيلسوف التشاؤم وعدو المرأة شوبنهور قال عنها: لقد وهبت الطبيعة الفتيات جمالًا آخّاذًا وسحرًا وافرًا لسنوات قليلة. يستطعن خلالها أسر قلوب الرجال، وإيقاعهم في حبائلهن وحبهن. وهكذا يسارع الرجال في قبول شرف الانفاق عليهن. ولو فكر الرجال لما أقدموا على تحمل عبء الانفاق على النساء.. وكما يحدث دائمًا في طبيعة هذا العالم، وكما تفقد النملة جناحيها بعد أن يقوم الذكر بتلقيحها، فإنّ المرأة تفقد جمالها ويذبل سحرها بعد إنجاب ولدًا أو اثنين، ولو فكر الرجال بأنّ النساء اللواتي أوحين لهم بأغاني العشق وأناشيد الغرام قد ولدن قبل عشرين سنة لما ألقوا عليهن نظرة

واحدة. وأخيرًا، فإنّ الرجال أجمل كثيرًا وخصوصًا في تركيب الأجسام من النساء.» ويضيف في موضعٍ آخر قائلًا: ولا شك أنّ الرجل الذي وصف النساء بالجنس اللطيف قد غيمت عيناه!!

وبالطبع، قد حيّرتني وتوّهتني في تشخيص موقفي معها! وقلت عنها في الحالتين: مثنيًا ومستنكرًا. فقلت: المرأة في البيت هي النسمة التي تلفح وجوهنا بعد حرٍ شديد، وخروج المرأة من البيت كالخروج إلى الشمس بعد حضرة التكيف!! وعلى العكس قلتُ: المرأة أستاذة في التمثيل والرجل أستاذٌ في تصديقها!!

المرأة مخلوق متميّزٌ مُمَيّزٌ لا يضاهيه أحد ولا مجال بأن نقول بوضاعته أو دونيته مقارنة بالرجل؛ فالقوامة هي مسئولية لا سيادة، وقيادة بلا تميز، وإعطاء كل ذي حقٍ حقه.

والله سبحانه وتعالى يقول في سورة الليل: « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى...» أي أنّه كما ليس هناك تفاضل بين الليل والنهار، كذلك ليس هناك تفاضل بين الرجل والمرأة، بين الذكر والأنثى، بين الشاب والفتاة، بين الزوج وزوجته، وكلاهما ضروري للحياة مثل ضرورة صيرورة الليل والنهار في التعاقب، على الرغم مما يبدو من اختلاف بائن بينهما إلى حد التناقض.

وكل ذكر خُلق في رحم أنثى، وكل أنثى انحدرت من صلب رجل.

وخلاصة القول: أنّ المرأة لا يستطيع أحدٌ أن يحدد ماهيتها الحقيقية؛ فلم يصل أحد قبل ذلك ولن يصل، وكلها اجتهادات. ففي إخفاء حقيقتها وصعوبة إدراكها سر قوتها وصمودها أمام الرجل في حلبة الحياة. وأية كانت حقيقتها فيكفيها انتصارًا: أنها هي التي حيّرت الكون.

الستات بيعرفوا يكذبوا

زمان كانت علاقة الرجل بالمرأة واضحة...

فهو رجل وهي امرأة.. هو المسئول وهي المُنفّذة لرغباته وكلامه...

هو سي السيد

وكانت المرأة تتفنن في خلق معانٍ أكثر على تلك الكلمة وتعطيها مَدْلولات متباينة...

الشخصية القوية.. الحِمش.. الراجل!

وفجأة كفرت المرأة بالرجل وقدرته وقداسته.. وأصبحت تبحث عن رجل آخر بمواصفات أدق وأرقى؛ فلا بُد أن يكون جامعيًّا.. ثريًّا.. رومانسيًّا.. والرومانسية عند المرأة هي الكلمة الطيبة اللينة الهينة وأن تكون الكلمة العليا في البيت لها هي، ولا يقول الرجل كلمة إلا بعد موافقتها لميولها. لقد أردات المرأة أن تخلق رجلًا مفصلًا على كيفها!

وبعد ذلك.. رجعت ريمة لعادتها القديمة! واختنقت المرأة بتلك الأفكار البلهاء وحاولت إعادة الفكرة القديمة عن علاقتها بالرجل.. وأكدت أن الرجل رجل والست ست! وأنّ أقدس معبد للمرأة هو بيتها وتسبيحها هو تربية أطفالها وصلاتها هي مقاسمتها لفراش زوجها.

وكانت المرأة في تحولها وتغير مزاجتها تُحيّر الرجل معها؛ فهو لم يعد يعرف كيف يرضي ذوقها وما هي المواصفات التي تحلم بها كل فتاة؟

ومن البداية صاحب تغير وجهات نظر المرأة في العلاقة بينها وبين الرجل تغيرٌ جذريٌّ عند الرجل في اختيار زوجته. ففي بادئ الأمر، كانت تختارها أمّه أو أخته أو عمّته.. المهم ليس هو! وفي أغلب الأوقات يكون رأيه مثل أعضاء مجلس الشعب: تحصيل حاصل.

وعرفت أنّ عندنا في الريف، كانت تذهب أمّ العريس وترى التي عليها العين والنية. وتفحص البضاعة. فكانت تحتضن العروس لتتأكد أن ثدييها حقيقيين وليسا مشدودين بسوتيان.. وتلقي تحت قدمها إبرة خيط لتتأكد من قوة نظرها وقدرتها على التقاطها بسهولة. وكذلك، تضع حفنة من المسكرات في يدها لتكسرها وتتيقن من صلابة أسنانها.. أو أن تجلب لها عودًا من القصب لتكسره!

بيد أنّ المرأة رفضت كل ذلك.. وتمردت.. تحررت..

وخرجت من البيت.. ورجت العالم بضجة ترك باب البيت وراءها خارجة منه.. تلعنه.. تعلن قدومها.. فهي ستواجه العالم وتكتشف أسراره وتكتنف خباراته، بل ستروض العالم ليخضع لها؛ فهي من حكمت شعوب لقرون وشيدت معابد ومسلّات شاهقات، أيستعصي عليها ترويض جندٍ واحد في جيوشها: الرجل!

ونرى الكاتب النرويجي هنريك إبسن في مسرحيته الرائعة، الخالقة، القصيرة في حوار «نورا» مع زوجها حول تركها للبيت والأولاد: يقول الزوج: كيف ستواجهين العام بخباراتك الغضة؟

فيكون الرد: سأتعلمها. سأكتشفها. سأعرفها.

فضاق الرجل بكل ذلك وشعر أنّ العالم يتحرك حوله ويتبدل، والمرأة نفسها تتغير؛ فتختار شريك حياتها وبالشروط الموافقة لها، فكيف للرجل أن يرضخ لرغبات غيره. فشمّر عن ساعديه وأخذ يعرج على كل مكانٍ يقابل فيه فتاة أو امرأة، وبات يغازل هذه، ويُحدّث تلك، ويُمايل أخرى...

وعاندت المرأة أكثر وأطلقت أول أكاذيبها أنّها يمكن أن تعيش بلا زواج وبلا رجل.. بدون بيت.. بدون أولاد.. أن تعمل لنفسها وتنافس المجتمع الذكوري في وكره وتنتصر عليه.. فلا فرق بين المرأة والرجل في شيء!

فأخذت تتولى المناصب والوظائف وتجلس على قدم المساواة مع الرجل، وتزاحم الرجال في المواصلات.. وتُدخن السجائر والشيشة.. وترتدي ملابس الرجال.. وتضع قدمًا على قدم غير عابئة بفتحة الفستان الناطق بأنوثتها! فكل ذلك كماليات تضفي منظر الأنوثة ولكنها في الحقيقة بمية راجل!!

وصرخت المرأة تنادي بالحرية والانطلاق بعيدة عن قيود الرجل وعقائده ومعوقاته...

ولأنّ المرأة كانت، وربما لا تزال، مُحدثة حرية أخذت تبحلق في جوانبها وتغالي في حبها والحرص عليها.. وتتعالى وتتسامى عند الحديث عنها. فالعصر الجديد هو عصر المرأة وليس الرجل.

وشجعها الرجل على ذلك؛ مستمتعًا بعذابها وحيرتها المبعثرة فى طرقات الحياة. وهي لم تعد تملك الشكوى فهي من اختارت.. وإذا أحبت الاستقالة فلا مانع إطلاقًا. ولكنه يريد لها الحرية والكرامة والعمل...

والمرأة تعرف أنّ الرجل يكذب عليها، وتعرف أنّها تكذب على نفسها. فهي لن تستطيع السير في هذا الطريق طويلًا دون الحاجة للرجل ولن تملك قدرة هجر الرجل!

والدكتور مصطفى محمود في كتابه «عن الحب والحياة» يقول: «خرجت المرأة من البيت إلى الشارع.. والحقيقة أننا نحن الذين ضحكنا عليها وأخرجناها بحجة الحرية والتحرر والنهضة النسائية.. إلى أخر اللعبة التي لعبناها لتخرج من خدرها ونتمتع برؤيتها بكمٍ قصير.. وصدر عريان.. وأخيرًا بالمايوه.. كل هذا ببلاش.. بدون زواج... وصرخت شريكة العمر.. فقلنا.. عيب.. فين الكفاح.. أنتِ امرأة عظيمة مكافحة.. بطلة.. قديسة.. إنسانة حرة.. ولدت حرة.. وتعيشين حرة.. ولا نستطيع أن نحتكر شرف العمل لنا وحدنا...

وأنهى كلامه بتوجيه نصيحة لكل امرأة قائلًا: «ونصيحتي للمرأة أن تجمع في يدها الكفاءات والمؤهلات.. لتزغلل الرجل بجمالها وجسمها وكوارعها وشيكاتها وشهاداتها...»

وبالفعل، حاولت المرأة أن تنصت لنصيحة الدكتور مصطفى محمود وبدأت في مشوارها العلمي والوظيفي المخلوط بالأنوثة المرغوبة المُثيرة. فتجد الفتاة تقف وتلف رجل على رجل.. أو أن تميل على المكتب قليلًا، وهناك من تجلس عليه.. وكل ذلك ما هو إلا محاولة لفت الأنظار إلى أنوثتها وأنّها في المقام الأول أنثى.. أنثى.. وعندها كل مقومات الأنوثة، والرجولة بالطبع! وملابس المرأة، الآن، تعلن ذلك بصخب؛ فهي رجولية الملبس، أنوثية الطبيعة والمظهر.

للأسف.. الستات طلعوا بيعرفوا يكذبوا! مش زي ما كانوا بيقولوا: ما بيعرفوش يكذبوا!

فهي تكذب على نفسها وعلى المجتمع. بل إنّ أستاذنا العقاد يرى أنّ المرأة هي أستاذة الكذب ومبدعته؛ فيقول: «... هل هناك كذب أوضح من الزينة التي تضعها على وجهها، والشعر المُستعار على رأسها.. والسوتيان تشد به صدرها.. والكورسيه تشد به ردفيها.. والحزام تخنق به خصرها.. والكعب يرفعها عن الأرض ويرجرج جسدها؟»

وكل هذا معناه أنّها مخادعة؛ لأنّ المخادع هو من يلجأ إلى الأسلحة المسموحة والممنوعة، ولا يقدر على المواجهة ولا مفر من اللف والدوران. فهل المرأة تكذب فعلًا؟

وشيخ العربية، وعاشق العروبة، العلامة أبو فهر محمود محمد شاكر يقول عن فهم المرأة للحرية واتجاهها نحو تقليد الغرب في الملبس والحياة: «هذه المرأة وهي فن الحياة الذي يشتهى أبدًا أن يُبدع حتى في الأذى - ما تكاد تراها عندنا إلا دُمية ملفّقة من

الحضارات، وبدعها، ثيابها، زينتها، حليها، تطريتها، شعرها، بنانها، مشيتها، منطقها، كل ذلك أجنبي عنها، متكلف منتزع من مظاهر غانيات باريس وعابثات هوليود»

إنّ عمل المرأة لا يضر الرجل بالعكس هو مساعدة ومساندة له، ولكنّ ما يجلعه يثور هو طريقة العمل وطريقة فهم المرأة لأسسه وقواعده. وطريقة ملبس المرأة لا تضايقه بل تثيره الآن، وكلامها لم يعد يسترقه بل يدهشه ويتشدّه منه. ولا أحد يقول: أنّ المرأة لا تتعلم أو لا تدرس ولا تعمل ومكانها في البيت فقط؛ بل هي رجعية وجهلية أولى بحتة، بيد أنّ الأمر يتوقف على المرأة، وفهمها لحدودها وأنّ ثمة فروق بينها وبين الرجل وهناك من الاعمال ما تليق أكثر بها وهناك غيرها ما لا يليق ولا تقدر عليه هي...

فلا داعي للمكابرة والعناد، فأهل مكة أولى بشعابها.. والمرأة تعرف ضعفها الأنثوي الجميل الذي يجعلها أقوى مخلوق أمام رجولة الرجل بل في ضعفها إضعاف للرجل واستسلام منه.

****

ومن مظاهر كذب المرأة وعنادها: الحب.

فهي تحب هذه المشهد الدرامي الرومانسي الذي يجري فيه دومًا البطل وراء البطلة وهي ترفضه!

مع أنّها تحبه.. تعشقه.. ولكنها تقول: لا.. وألف لا.. فهي تحب أن يلهث الرجل وراءها ويتقطع نفسه؛ فالرجال، عمومًا، مثل طابع البوسطة... والمرأة تكره كلمة «لا» إذا قيلت لها، وتعشق هي النطق بها.

وعرفتُ، حقيقة، فتاة تبنت هذا المبدأ في حبها لشابٍ وكان يعلم بحبها له بل كان يشعر به وكل من حوله وما حولها يأكد له، وارتبط بها بعد فترة، ولكنها لم تنحِ هذه الفكرة ولا هذا المبدأ عن

تفكيرها ومعاملتها معه. فكانت دائمًا تأكد له أنّه محظوظ بخطبتها، وأنّه لا بُد أن يحمد ربنا ويبوس إيده وش وضهر إنّها رضيت به! وتثور وتغضب على أقل الأشياء ولأنّه كان رفيقًا بها وبحبها وحريصًا على تلك المودة، كان يكلمها يصالحها معتذرًا لا عن خطأ ارتكبه بل بسبب حرصه وحبه. حتى أدى ذلك في النهاية إلى انفصالهما والسبب هو الدلال وصناعة التقل ونظرية طابع البوسطة. وارتبط بغيرها، وباتت حزينة حائرة تتمنى رجوعه ولا تملكه وهو لا يملك هذا الخير الآن ولن يملكه!

وعادت إليه تتوسل في نعومة الأنثى لإحياء ما كان، وهي لا تدري أنّها بهجرانها وتفكيرها المريض قد اقتدحت نار الإباء في مكمنها بين طيّات هذه النفس الشموس التي تأبى الذُل حتى لو ممن تحب.

كل ذلك لتأكيد مقولة «الستات ما بيعرفوش يكذبوا» مع إنّها ليست صحيحة فهي كذبة. فليس هناك إنسان لا يكذب إلا الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والمرأة ليست رسول ولا ملك.

وأخيرًا، من شاهد الفيلم الكوميدي الذي يحمل عنوان تلك المقولة:» الستات ما بيعرفوش يكذبوا»، هو نفسه قائم على كذبة! لأنّه يضحد الفكرة ويطردها بعيدًا ولكن في ثوبٍ كوميدي وإن كان الكثير لا يتوقف على المغزى ولا يلتفت إلا نوادر إسماعيل ياسين وطرائفه.

لن أقول إنّ الستات بيعرفوا يكذبوا ولكني سأقول: الستات بني آدمين والبني آدمين بيكذبوا!

من ينسى أولًا؟

يولد الحب ويتمخض منه النسيان!

فالذي يحب ينسى كل شيء كان أو حدث قبل أن يعرف من يحب؛ ينسى نفسه.. وحياته الخاصة وقد يضيق صدرًا بحياته العملية، ويرى أشياءًا لم يكن يدري أنها موجودة وربما هي بالفعل ليست موجودة، لكنه يراها! إنه ينسى الألم والقهر والعجز والحلم الضائع.. أي يجد نفسه وكأنه قد خُلق لتو. ومن أساسيات الحب النسيان أو قد تستبدل كلمة النسيان بالغفران والمسامحة: فالحبيب لا بد أن يغفر ويسامح من يحب ولا يكون له بالمرصاد.. ولذلك، فالنسيان والحب لا يفترقان ولا يحق لهما ذلك...

خرجتُ من البيت، أبحث عن مكانًا أجلس فيه مع نفسي لأكتب مقال الأسبوع أو قصة الأسبوع لكي أرسلها للمجلة التي أعمل بها. والبيت لم يكن مناسبًا للاسترخاء والكتابة بعمق، أو في حقيقة الأمر قد لا أكون أنا من كنت في حالتي العادية؛ فلم أكن أعرف ماذا أكتب ولا عن ماذا؟ وليس لدي أية فكرة تسعفني بكتابتها وإرسالها.

جلست في كافيه ستاربكس في أول مكرم. وأخرجت اللاب توب من الحقيبة ووضعت له الشاحن حتى لا يقفل مني فجأة. ووضعت السماعة في أذني، استمع لبعض الموسيقى الهادئة.. وأخذت أسرح بخيالي لعلي أجد خاطرة أو فكرة هائمة على وجهها لا تجد لها صاحب، فأصحبها أنا إلى ورقتي وأعقد عليها قران الإبداع والكتابة فتصبح لي زوجة ورقية تقف بجانبي في محنتي الأدبية الآن.

«لا.. لا.. تلك الفكرة ليست جديدة.. وهذه سطحية تافهة.. لا.. فتلك عميقة وتحتاج إلى دراية كاملة!»

كنت أتجول بعيني في المكان كله بل أحيانًا أنظر بالخارج لي

أجد غايتي. وقعت عيني على فتاة في العشرينيات من عمرها.. شعرها حالك السواد وفي نعومة تفوق ملمس الحرير، تنسدل ضفائره على ظهرٍ مستوٍ.. خصرها ولا عود البان.. وعيونها عيون غزلان.. تحنو على الأرض بملمسها بمشية تجعل من يراها يقول: يا لحظ الأرض! جلست في مقابلتي تمامًا! في الحقيقة، كنت رأيتها أكثر من مرة في الكافية وكانت تجلس دائمًا مرحة وفرحة؛ فكيف لتلك أن تحزن؟ بل من يجرؤ أن يضايق القمر في بهيته.. من فقد قلبه ليعكر صفو بالها. لكنها تلك المرة، يعلو على وجهها الصبَاح أثر حزنٍ دفين.. وقصة ألم لم تروى بعد. كنت أود ألا أنزل عيني من عليها، لكنها نظرت ناحيتي، فارتبكت وجعلت أنظر إلى شاشة اللاب _وإن كانت الشاشة أقفلت لطالما أهملتها لدقائق. أخذت أختلس نظراتي لها على حين غرة بين اللحظة والأخرى. يا إلهي! كيف أفكر الآن في فكرة أحاول أصل إليها: فأين عقلي الآن؟ معها... لقد عذرت الآن الشاعر المسكين الذي حاول أن يسلي نفسه بأبيات تخرج ما يفيض به داخله، وإن كانت الأبيات ليست حقيقية أو حجة دامغة. فالشعراء لا يكتبون دائمًا ما يفعلون أو حتى ما يريدون.. وكما قال العرب قديمًا:»أروع الشعر، أكذبه!» فقال الشاعر:

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت لنا يا عبادي اتقون ... وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لا يعشقون.

في نظرة من نظرات الخلسة التي أختلسها ناحيتها.. وجدتها قائمة وتتجه ناحيتي. فتشاغلت بأن أجعل نفسي أكتب أي شيء على اللاب وأن أوحي بتركيز قوي. فجاءت.. ووقفت أمامي قائلة: ممكن أقعد معاك شوية؟ قلت: طبعًا! قالت: أنا أسفة لو كنت هعطلك لكن مش هأخرك كتير. صرخت بداخلي أقول: كل وقتي ملكك ولا أعرف كيف أشكر القدر الذي قادني هنا لأكتب _لأراكِ. لكني قلت:

لا طبعًا مفيش أي عطلة ولا حاجة.. تحت أمرك. قالت: أنا أعرفك إلى حدٍ ما.. ورأيتك كثيرًا هنا وكنت دائمًا تكتب على اللاب أو في ورق أبيض. وسرعان ما تنهي ما تكتبه حتى تنصرف أو تنهمك في قراءة كتاب تحمله في حقيبتك. قلت: تمام. لكن كيف عرفتي عن ما تعرفينه؟ قالت: لا أعرف عنك أشياءًا كثيرة؛ فهي ليست خصوصيات أو دقائق، بينما ما أعرفه هو أنك شاب مهندم الثياب كما أراك.. منمق العبارة.. وقد سألت النادل عنك فقال بأنك تكتب في مجلات شبابية وبأن مقالاتك تلقى دائمًا قبولًا حسنًا وبأنك متواضع وعلى خلق. فقلت لنفسي: الحمد لله إن ربنا جعل لنا القدرة على كتم ما بداخلنا وجعل الإبتسامة حلًا أنيقًا لكثير من المواقف. فقلت لها: دا صحيح كله. لكن ما الذي دفعك أن تسألي عني؟ قالت: هذا لا يهم.. وإن كان لا بد أن تعرف، فمن الممكن أن يكون فضولًا. المهم حتى لا أأخذ من وقتك كثيرًا، أنا كما أسلفت لك، أعرف بأنك تكتب قصصًا ومقالاتًا وأود منك أن أروي لك شيئًا وتكتب عنه! أريدك أن تصرح بما يثقل عليَ و أن تصرخ في وجه كل من يحول دون أمانينا.. وأن تشعر بما أقول لك؛ فقد أخترتك لأنك شاب ولا تزال في عمري أي تعرف ما أقول وتعي ما يجول في خاطري وداخلي. كنت قد قرأتُ لك قصة جميلة جدًا في كل شيء اسمها «قُبلة على جبين القدر». فالعنوان جذاب والقصة رائعة وفيها ما يجعلك تتوقف من نفسك ومع كل شيء؛ فهي كمنبة يعلو صوته ليقظ النائم.

قلت: أتمنى أكون عند حسن ظنك بي. تفضلي.. قولي ما يحلو لكِ أو ما تريدي أن تُدلي به...

قالت: نشأت في بيت لا أقول أنه ثري ولكنه على أية حال مستواه عالي.. والدي طبيب والدتي طبيبة، ولي أخ أصغر مني بعامين وهو في كلية الطب كذلك! أما أنا ففي كلية الصيدلة جامعة

القاهـرة. وفي رقـي مسـتواي الاجتماعـي تكمـن مشـكلتي؛ فهـي العقبـة التـي حالـت بينـي وبـين قلبـي.

تعرفـت عـلى شـاب في كليـة الأداب قسـم اللغـة الإنجليزيـة. وكان في قمـة النضـج الإجتماعـي والرقـي الروحـي والعقـلي والشـكلي. أحببـتُ فيـه شـبابه الناضـج، وفكـره الواعـي.. ورقتـه المتناهيـة وفتنتـه الخفيـة، السـاحرة. ليـس عجيبًـا أن أعجـب بشـاب بتلـك الصفـات، وإن كنـت بـين العـشرات مـن الشـباب؛ فكلهـم لا يرقـون لـه وليـس لديهـم قدرتـه عـلى تحمـل المسـئولية.. كنـت أشـعر برجولـة بصدق_بمعنـى الكلمـة. كان رجـلًا في كل شيء: كلامـه.. مشـيته.. حبـه.. صدقـه.. دراسـته.. وخلقـه.. ونمـا التـوق في فـؤادي كلـما لاقيتـه بـين الوقـت والأخـر، وأصبحت لا أطيـق الصـبر يومًـا واحـدًا عـلى غيابـه.. ولم أكـن أعـرف أنـه معجـب بي، وكان مـترددًا في إبلاغـي. وجـاء في يـومٍ وأخـبرني. كان يكـبرني بسـنتين وهـو في السـنة الأخـيرة وأنـا لا يـزال أمامـي عامـين للإنتهـاء مـن دراسـتي.

تخـرج في كليـة الأداب، أخـيرًا، وجـاء ليقابـل والـدي.. وشرح لهـما ظروفـه وأنـه سـيقدم شـبكة حتـى أتخـرج _أنـا_ وبعـد ذلـك يكـون قـد أكمـل ترتيباتـه ونتـزوج. لكـن والـدي رفـض! وكان سـبب رفضـه؛ أننـي لا بـد أن أتـزوج بشـاب في نفـس مسـتواي الاجتماعـي أو عـلى الأقـل يقاربـه. وأخـذت أشرح لهـما مـدى حبـي لـه ومـدى احتياجـي لـه وأنـه شـاب مجتهـد وسـينجح في حياتـه ويصـل لمـا يقولـون وأنـا معـه. ولكـن لا حيـاة لمـن تنـادي. وكنـت كلـما قلـت لهـم: بـأن المـال ليـس كل شيء وأن الحـب أهـم منـه، لا يقولـون إلا بأنـه علمنـي الفلسـفة الفارغـة وأن الحـب مـا بيأكلـش عيـش! وهـو لا يعـرف مـاذا يفعـل؟ هـو يريـدني وأنـا كذلـك ولكـن كيـف السـبيل إلى لقائنـا. وعندمـا ضـاق المطـاف قـال: بأنـه لا يعـرف مـاذا يفعـل لـكي يجعـل والـدي يوافقـا عليـه. فـما وجـدتُ مـن نفـسي إلا أن أقـول لـه: بـأني مسـتعدة أن يتزوجنـي الآن لـو قبـل ذلـك!

ولكن -مع حاجتي لذلك وحاجته- رفض وقال لي: بأني لا أستطيع أن أفعل ذلك حتى لو كان أبوايا لا يعبأني بي ولا بمشاعري! كيف أخونهما في تربيتي.. وأنه لا يجرؤ أن يشجعنى على عصيانهما، وطلب المحاولة مرة أخرى معهم. وأخذت أحاول مع والدي ولكنهما لم يوافقوا قط! عرفت لماذا قلت لك: بأن مستواي الاجتماعي هو سبب مأساتي.. فإذا كان الفقر يخلق قلوبًا، فهو أشرف وأرق وأغلى من ملايين الدنيا.

وكان الفراق لنا قدرًا ومصيرًا...

في الحقيقة جئت أقص عليك كل ذلك لسببين: أولهما: أن أخف ما أنوء به في حمله بداخلي، وثانيهما: أن أخذ رأيك في فكرة تراودني أو سؤال يطاردني: أترى سينساني مع الأيام أم أنه سيظل يحلم بي؟ وبما أنك تكتب كثيرًا عن الحب وما يتعلق به، أترى من ينسى أولًا الرجل أم المرأة؟

أخذني الصمت بعيدًا لدقيقة... فقالت: أين أنت؟

ابتسمت وقلت: معكِ. بالنسبة لسؤالك الأول: لطالما كان يحبك كما تحبينه وفعل كل ذلك من أجلك فلن ينساكِ مهما مر العمر به! لكني أحب أن أطلعك على شيء، وهو أن الحياة لها إطاراتها التي تحدنا بها.. وأسوارها التي تحبسنا ورائها، وقيودها التي تعرقل سرعتنا خلالها. أي أنه قد يتزوج فيما بعد ويجد نفسه مطالب بأن يحب زوجته بصدق ولا يفكر فيكِ كما كان! وإلا فهو يخونها في فكره وعقله؛ فالخيانة ليست جسدية فقط كما يعتقد البعض، قد تكون الفكرة خيانة والنظرة كذلك والرغبة.. فهي كل ما يبعد المرء عمن يحبه خلسة.

قالت: فكيف إذن لن ينساني مهما مر من العمر؟!

قلت: بأن تكوني ذكراه التي لا ينساها تعيشين في ماضيه لا في حاضره أو مستقبله. فالحب الحقيقي لا يزول نهائيًا بسهولة؛ إنه يترك أثارًا

عظيمة وندوبًا جليلة تقطن النفس والعقل. فهما بدأ الحب الأول باهتًا خافتًا، ومهما توارى وانزوى..سيظل في ثنايا القلب وسيظل لأصحابه مذاقًا خاصًا في القلب لا يُنسى. وأنتِ كذلك، ستكونين مطالبة بأن تحبين زوجكِ وتخلصين له وليس لكِ أي حق في أن تفكري بغيره وتستدعيه من ماضيه ليسكن حاضركما.

أمّا بخصوص السؤال الثاني: وهو من ينسى أولًا؟

جرت -للأسف- العادة بالاعتقاد بأن الرجل ينسى أولًا، وإن كان ذلك ليس صحيحًا دائمًا. وأرجع من يرى ذلك السبب إلى عدة أمور:

أولها: أن المرآة أكثر عاطفية وقلبًا من الرجل. ولذلك فإذا أحبت فهي تحب بكل كيانها، تحب بقلبها وعقلها وكل ما تملكه تضعه رهن احتياج من تحب. بيد أن الرجل تغلب عليه الأمور العقلانية المجردة. الرجل يعمل على أن ينسى فعلاً، ويشغل نفسه ـ عامداً أو غير عامد ـ بعمله وطموحاته فيضع الحواجز الكثيفة بينه وبين أحزان القلب الماضية حتى ينسى أو يتناسى.. أما المرآة تحب أن تظل تسكنها الذكرى الجميلة التي عاشتها ولا تتململ من كثرة استرجاعها وأن ترويها بدموعها...

والرجل أقرب مثل له هو أسطورة الثعلب وعنقود العنب_ إحدى خرافات لافونتين. تلك الخُرافة التي تقول: بإنه كان هناك ثعلب رأى عنقودًا من العنب فأعجبه، وحاول قطفه ليتناوله.. لكنه عجز عن ذلك.. فلما رأى أنه لن يملكه قال: إنه حامض! وهذا هو حال الرجال مع النساء. فهو عندما يعشق فتاة يحاول إرضائها ويحاول أن يكون معها دائمًا.. ويرى أنها الأجمل والأرق والأفضل والأحن.. والأطيب.. والأنسب. بيد أنه ما يلبث أن يحدث شيء حتى يقول: إنها فيها كذا وكذا!! ويتعجب من أنه لم يكن يرى كل تلك العيوب أو الخفايا التي بانت الآن. إنها حامضة! وهذا الحال أجده قريب

جدًا من المثل العامي:»اللي بيقدر ميتعبش!» أي من يضع إحتمالات وتوقعات دائمًا تكون هي سلواه وعزاه لما أصابه.

أما المرأة فهي ترى أنها عندما تكون مع من تحب أن الحياة وردية وهي الجنة الأرضية.. ولو قدرت الظروف أو القدر أن يفترقا، فإنها تجد نفسها في صحراء شاسعة جرداء.. لا زرع فيها ولا ماء.. إنها حواء التي نزلت من الجنة إلى الأرض لكنها هذه المرة وحدها؛ فقد تركها أدم! فربما أمنا حواء نزلت وحدها كذلك، بيد أنها ظلت تبحث عن أدم وهو يبحث عنها حتى تلاقا. أما هي متيقنة أنها لن تجده؛ فهي ليست حواء الوحيدة هذه المرة! لكنها لا تقبل حقيقة أنه ليس أدم الوحيد! فلو اقتنع عقلها فقلبها يأبى.. والمرأة عبارة عن فيضان من العواطف والمشاعر والقلوب!

وهي، جريًا على عادتها، تفقد كل شيء مع فقدانها لمن تحب.. فكل شيء ينقصه أشياءًا في غيابه! فهو الأمل.. والسعادة.. والقوة.. والمستقبل.. والماضي.. إنه.. إنه.. حبيبها...

ولكن على سبيل الإنصاف والتوضيح، إن الرجل عندما يصمت ويضحك ولا يبكي.. ويذهب هنا وهناك.. فهذا ليس لأنه نسى ما كان أو أنه كان يحب؛ إن الرجل يفضل أن ينعزل في قلعته أو حصنه لوحده يرتب أفكاره ويستجمع قواه.. يلملم شتات نفسه وروحه وقلبه. فالرجل يستنكر أية لحظة شفقة في عين غيره. كما أن بعض الرجال يرون أن البكاء ضعف، وهم أقوياء. كم أن بكاء المرآة ليس دليلًا قاطعًا على حزنها؛ فهي تبكي في كل حالاتها ووقتما تشاء؛ ففي فرحها تبكي وفي حزنها تبكي. والبعض يغفل طبيعة تكوين المرآة التي يغلب عليها وجود هرمون البرولاكتين المسئول عن تغذية ثدي المرأة بالحليب وهو كذلك مسئول عن البكاء وبالتالي فهو موجود عند المرأة أكثر منه عند الرجل. فبكاء المرأة ما هو إلا دليل على نشاط

الغـدد الدمعيـة عندهـا.

والبعـض الأخـر مـن الرجـال يـرى أنسـب عقـاب لمـن تركـه هـو أن يـراه_أي مـن تخـلى عنـه_ في أفضـل حـال وأسـعد حيـاة. ليعـرف كـم فقـد عندمـا تركـه وكيـف تحولـت الحيـاة بعـده معـه. كـم مـن قلـوبٍ تنـزف بداخلنـا وتـئن صمتًـا، ولا يعلـم بهـا غـير أصحابهـا. كـما أن النـاس غالبًـا لا بتحـل ولا بتربـط! ولـن يقولـون أكـثر مـن «معلـش» أو»يـا عـم فُـك كـدة وكلـه هيبقـى تمـام!» وهـو يعـرف كل ذلـك ولكنـه لا يعـرف كيـف يفعلـه أو يطبقـه.

لكـن المـرأة لا تجـد أيـة مشـكلة في أن تطلـق لنفسـها العنـان في أي وقـت وتخـرج مـا بداخلهـا في بكائهـا أو عـلى الأقـل تكسـب راحـة مؤقتـة بدموعهـا. حتـى أن العلـماء يـرون مـن ذلـك أن عمرالمـرأة أطـول مـن عمـر الرجـل لأنهـا لا تـتردد في تـرك العنـان لدموعهـا ولا تـرى في ذلـك حرجًـا، وبالتـالي يسـهم ذلـك في راحتهـا النفسـية والجسـدية، أماالرجل - في المجتمعـات الشرقيـة بالـذات- فمـع تعرضـه للضغـوط وفي الوقـت نفسـه تحفظـه بشـأن البـكاء وبعمليـة حسـابية بسـيطة وجـد العلـماء أن المـرأة نظريًـا تكـون أطـول عمـرًا.

ثانيًـا: يرجـع ذلـك إلى طبيعـة تفكـير الرجـل التـي تبعـد كل البعـد عـن المـرأة؛ فالرجـل حينـما يبعـد ينظـر إلى الأمـر كالـذي يجـد لـه بغتـة ولـدًا يشـك في أصلـه ولا يتثبـت أمـن صلبـه ذلـك الطفـل أم إنـه إفـتراءات وثمـرة وشـائج ملطخـة بالخـزي والعـار! لكنـه بـين لمحـة وأخـرى، يجـد أن ذلـك الولـد يجـبر الناظـر إليـه أن يتبنـاه؛ فبراءتـه وجمالـه تجعلـك تتمنـاه ولـدك! كذلـك نظرتـه للحـب.. يريـد ويخـشى.. يبتـأس ويعبـس.. يحـار ويتأبلـس في طريقـه.. لكـن الأمـر لا هوانـة فيـه ولا فائـدة مـن البـكاء عـلى اللـبن المسـكوب. أمـا المـرأة، تنظـر بمنظـارٍ متباينـ عـن الأخريـن؛ فتحـت العدسـة تتضـح الـذرات وتتسـع الرؤيـة وتنكشـف

الأسرار وتنجلي الصغائر. قد يكون ذلك الحب ابنًا غير شرعي لكنها تعرف من والده مهما تداعت اللواعج والهواجس.. تكاد تقسم أنه يحبها ويتمناها ولا يستطيع البعد عنها؛ فالرجال كالأطفال لا يعرفون ما غايتهم ومنتهى أمانيهم ولا تجد المرأة نفسها إلا متشحة بدور الأم؛ تطيب بخاطره وتمسك بيده لتعبر به عوائقه، ومن أين تدغدغه لينتفض فرحًا وسعادةً.

ثالثًا: والبعض يُرجع ذلك إلى طبيعة الرجل الجنسية التي هي أشد عنده منها عند المرأة! أي أن الرجل جزء كبير من كيانه في علاقته بالمرأة يتخلله الجنس أو الشهوة! أما المرأة فهي تُفكر في الرومانسية والورود الجميلة.. وكذلك كلامه لها.. فهي ترى عقله وروحه.. وهو يرى أو يشتهي جسدها! هل هذة حقيقة؟ هل هو السبب؟ الحقيقة هي أن الرجل أكثر شهوانية من المرأة_حسب التكوين الخلقي لهما. لكن هذه الحقيقة لا تعني أن الرجل لا يحب مثل المرأة. أو أنه يجد ما يتمناه في حبيبته مع أي فتاة غيرها! فهو يحب بقلبه لا بشيءٍ أخر. وهناك الكثير من الرجال من يشترطون أن تكون زوجته: متفتحة العقل.. إجتماعية.. مثقفة.. متدينة.. ذات خُلق.. منطقية.. وجميلة.. ومعنى ذلك أنه لا يرى جسدها إلا في أخر مرحلة أو في اللحظة الأخيرة؛ فهو لا يهمه أو لا يفرق معه، والجمال من الصفات التي وافق عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) في انتقاء شريكات الحياة. كما أنه يمكن أن يجده في كل مكان وبالوسائل الإلكترونية الفاسدة!

فجسد المرأة لم يعد صعب المنال؛ فالإنترنت والإجهزة الإلكترونية الحديثة كشفت.. وعرت المرأة كما لو كانت تسترها! وأسقطت كل أوراق التوت عن المرأة والرجل أيضًا. ولو سألت تلك الفئة من الرجال_أُقصد من يبحثون عن جسد حواء وسقوط أوراق

التوت عنها_ هل من الممكن أن تتزوج إمرأة ممن تراهم في تلك الحالات ويسيل لعابك ورائهن؟ لقال: لا طبعًا.. يا بني دول نشوفهم بس أو نتسلى بهم.. إنما جواز!! لا طبعًا. هل هذا تناقض؟ إضطراب؟ إختلال أخلاقي؟

هو كذلك. لكن الرجل يبقى كما هو دائمًا شرقيًا.. غيور.. محافظ.. لا يرضى الدنيئة في أهله. فهو يعرف تمامًا أن المرأة وجسدها إلى زوال ولا يبقى إلا الروح الجميلة والعشرة الطيبة.. والأصالة التي تظهر في أحلك اللحظات.. هل الجنس عيب؟ أتعيب كلمة الجنس من يتلفظها؟! بالطبع لا. والجنس ليس عيبًا ما دام في نطاق المُباح والحلال الذي أحله الله عز وجل. وبدون الجنس ما بقيت الحياة.. وما جاء الأنبياء والرسل.. والعلماء والمفكرين.. والمصلحين والإجتماعين.. الكتاب والقراء.

أيستطيع أحد أن يقول أن المرأة خالية من الشهوة أو حاجتها الأساسية إلى وجود الرجل الذي يمثل الجنس في حياتها؟ بالتأكيد لا. ولا حتى المرأة نفسها لا تجرؤ أن تنكر ذلك؛ فالمرأة تريد أن تكون أمًا وتحمل طفلها من الرجل الذي أحبته! أي تريد أن تجري وترتمي في أحضان زوجها أو حبيبها كل يوم. فالمرأة تريد ولا تستطيع وتحلم ولا تملك. أما الرجل فهو يحاول دائمًا وطبيعة المجتمع تتيح له ذلك وهو لا يراه عيبًا! أما المرأة فطبيعتها ترفض ذلك وتأبى أن تراه وإن كانت تحلم به.

نرجع إلى فكرتنا الأساسية وهي: لماذا يرى البعض أن الرجل ينسى أسرع من المرأة؟! هناك سبب أخر وهو: أن حياة الرجل بطبيعتها حافلة دائمًا بالأعمال والمطلوب منه في الدراسة والبيت والشغل والنجاح.. أما المرأة فمساحة الفراغ في حياتها أكثر منها عند الرجل وإن كان هناك بعض الإستثناءات! والفراغ سيد الهواجس.

ذلك كله إن كنتِ تقصدين نسيان الحب والذكريات العالقات بالذهن والقائمات مكان الروح في الجسد، أمّا إن كنتِ تقصدين نسيان الأخطاء والعفو عنها والتغاضي عما يجرح، فلا مراء في أنكِ تعين الإجابة مسبقًا.. إنه الرجل. فالمرآة تجمع الأخطاء والعثرات والسقطات وتضعها في «صندوقها الأسود» حتى إذا انفجرت طائرة الحياة وغرقت سفينة العشرة بعد أن ضاعت دُسر دعائمها، أخرجت الصندوق وأعلنت الحرب وكشفت المستور وحمّلت الرجل كل تباعات السقوط؛ فهو من أرغمها تلك المرة على أكل ثمرة الشجرة المحرمة فنزلا من البيت إلى الأرض والناس وسقطت كل الحجب التي سترتهم لسنوات أو شهور أو أيام أو ربما ساعات. وطفق كل منهما يأخذ من ورق التوت الذي يستر الأخر ليغطي سوءته. أما الرجل فينسى سريعًا ويرى أنه لا شيء أدعى لتذكر من كل ما يقابلهما خلال رحلتهما المقدورة. فثمة ما يهم أكثر من ذلك؛ فالأولاد ومستقبلهم ومشاكل العمل والحياة عامة... إلخ.

أريد أن أقول شيئًا صغيرًا: لو أن النسيان من شيم الرجال، فحمدًا لله على كوني رجلًا! أي حمدًا لله على النسيان وكفى به نعمة!!

«حضرتك تحب تشرب حاجة تانية؟!»

جاء صوت النادل كضربة عصا غليظة في زمهرير الشتاء القارص، ووجدتني أقول له: صح؟!

لم أجد إجابة منه غير نظرة يكسوها ذهول مسيطر... وقال: صح، أيه يا فندم؟!

قلت: صح.. محتاج حاجة تانية فعلًا! ممكن كوب من الماء لو سمحت؟!

قال: أكيد.. وألقى نظرة الحيرة وانصرف..

أخـذت أنظـر عـلى المـكان الـذي كانـت تجلـس فيـه الحوريـة الحزينـة، فوجـدتُ رجـلًا كبـيرًا يحتلـه! يبـدو أنهـا قـد قامـت مـن فـترة وأنـا لا أدري! يـا إلهـي، فـما هـذا كلـه ومـا تلـك الحالـة التـي اسـتحوذت علي؟

بـين الخيـال والحقيقـة شـعرة واحـدة تسـمى: الاسـتعداد النفـسي وفي ظـل الإيحـاء يتقبـل المـرء منّـا كل شيء بـل قـد يـرى ويسـمع مـا ليـس موجـودًا.. أو يجلـس ويتحـدث مـع أنسـاج متخيلـة. عـلى كلٍ شـكرًا للخيـال الـذي ينقـذ مـن تلـك الحـيرة التـي كانـت تقبـو عـلى نفـسي وتتمكـن مـن رأسي؛ لقـد عرفـت مـاذا أكتـب!...

obeikan.com

بين القلب واللا قلب

«أنا القاصي
أنا المنشق
أسير في طرقات الحياة بين أناسٍ أعرفهم
أتخبط في آخرين أجهلهم ولا أطيقهم
روحي ثكلى
عقلي هامد
أسمعكم ولا تسمعونني
حياتي تدلف بين القلب واللا قلب»

قالها وهو يسير في شارع أول عباس العقاد. الليل. الألوان مبهجة، تختلف كل الاختلاف عن شعوره وحياته المنصرمة.. الحركة سريعة.. الخلق يهرعون.. البنات جميلات فاتنات جبّارات.. يتخلل ذلك الحفل المقام في الشارع كل بضعة خطوات بعض المساكين السائلين. لأول مرة يعرف أنّه هناك، بالفعل، مولد وصاحبه غائب. ولأول مرة كذلك يشعر بأنّه من هؤلاء القلة المندسة، الغلابة، وسط تلك الذمرة.

هل يشعر بكل ذلك حوله؟

لم ينتبه إلا حالما صدمته فتاة عابرة وهي تطلق سيمفونية أنوثتها الفاتنة مع صحباتها، معتذرة له وهي في عجلة من أمرها قائلة: سُوري! فابتسم وأكمل سيره المتسكع.

«لستي بحاجة إلى الاعتذار؛ فمن يعتذر الآن صادقًا؟ وما هو رَدُّكِ إذا رفضتُ اعتذاركِ؟! لا أحد يفكر في ذلك، الكل يلقي بحروف الاعتذار من فمٍّ متشدق غير عابئ بمن يعتذر له، يكفي الاعتذار. الحياة نفسها صادمة غادرة دون اعتذار. إنني أحسدكِ.. أغبطكِ.. لا أحسدكن.. فما هي هومكن وأحلامكن؟ خاتم.. دبلة.. حذاء جديد..

بلـوزة.. جيبـة.. بلـورو.. كتـاب! إنّ أحلامكـن سـهلة التحقيـق.. قابلـة عـلى الأقـل للتحقيـق. فالحالمـة تجـد فـارس أحلامهـا.. والعاقلـة تجـد أسـتاذها.. والطائشـة، فالحيـاة الآن صاحبتهـا وشريكتهـا... إنّكـن تعرفـن أنّ الرجـل يبحـث عنكـن ويجهـد نفسـه لتوافقـن عليـه وأنـتنّ في غياهـب البكـورة وغسـق الإدراك.

أنـا لسـتُ حاقـدًا! لا أنـا كذلـك. فأنـا لم أحـظ بـشيء مـن أحلامـي وطموحـاتي حتـى الآن.. وكل مـا يبـدأ، مـا يلبـث أن ينتهـي في مهـده؛ وكأني أنـا مـن يـأتي متأخـرًا. تلقيـتُ عـلى عاتقـي جبـالًا مـن الآلام وتـلالًا مـن الأفـكار، حتـى باتـت حيـاتي كومـة كبـيرة مـن الأفـكار المتلاحقـة المتجـددة التـي تفنـى في نفسـها لتسـتحدث مـن العـدم. لقـد صـدر الحكـم فعـلًا كـما يقولـون: بالأفـكار الشـاقة المؤبـدة.»

لقـد تحديـت الحيـاة آنفًـا معتزمًـا النجـاح ومُـصِرًا عـلى الفـوز والانتصـار، بيـد أنّـه يبـدو ليّ، الآن، أنّ قـواي سـتخور وعزمـي سـيفتت وصلابتـي سـتنهار.. وكرامتـي سـتُنتهك.. وآمـالي سـتختنق.. وشـكوكي سـتتحق.. وخـوفي سـيكبر.. هـا أنـا أقـف، الآن، منكـسرًا.. محبطًـا.. مترنحًـا.. كريشـة تأرجحهـا الريـاح يمينًـا ويسـارًا.

مـن هـؤلاء؟ ومـا مصـدر الانـشراح في وجوههـم؟ هـل هـم سـعداء حقًـا؟ أم هـي أدوار مُلثّمـة؟

أشـعر بغربـة بينهـم وبغربـة بعيـدًا عنهـم.. هـم القلـب الـذي يحتوينـي.. وهـم الـلا قلـب الـذي يرفضنـي...

أنا الغريب...

لا لست الغريب يا ألبير!

نعـم لسـت غريبًـا.. فلـو كنـت كذلـك مـا تألمـتُ ومـا شـقّت عـليَّ حيـاتي. ومـا ذهبـت حـرارة الشـمس مـع ذهـاب روح أمّـي.. ومـا تنحـى القمـر في عليائـه.. ومـا اختفـت الأشـجار الوارقـة الوارفـة، وكذلـك

النـاس ولم يبـق إلا الأحجـار الصلـدة الصلبـة المتصلبـة. وفتـاتي لم أفـرط فيهـا، هـي مـن فرطـت في! معهـا حـق! فمـن تلـك التـي تتـزوج مجاهـدًا في حلبـة الحيـاة، تغالبـه ظنـون المـوت وتطالعـه شـكوك الهـوان. يقـضي وقتـه ذاهـلًا عـن النـاس، تعلـو وجهـه سـحابة مـن الحـزن مكفهـرة، لا تـترك لناظـر أن يجـد ملمحًـا مـن ملامـحِ الأمـل، لا يملـك سـوى إبتسـامة مريضـة خاصـة توحـي لمـن حولـه أنّـه معهـم يسـمع ويـرى. يدفعـه فقـط إليهـا، الإبتسـامة، ورعـه مـن أن يكـون في جمـع مـن الجمـوع وعـليَّ مسـوح السـواد، بينـما تكـون راغبـة في الـسرور وحريصـة عـلى المـسرات وواقفـة عـلى عتبـات البهجـة، وهـو يكتئـب بينهـم.

أنا لستُ غريبًا

هم الغرباء

خرجـت مـن بـين طيّـات الكتـب؛ باحثًـا عـن إدراك مـا قرأتـه والتعـرف عـلى مـا وجدتـه، متوهـمًا أنّ النـاس ينتظرونني في لهفـة الحبيب وترقـب القريـب، هالنـي وأفزعنـي أن أجـد الدنيـا كـما قـال أفلاطـون: مسرحًـا! ولكـن كواليسـه تقـوم عـلى النفـاق والكـذب والإحبـاط والخيانـة والتخـلي والبعـد والفـراق والهـوان. فـما بـال هـؤلاء القـوم لا يـكادون يفقهـون حديثًـا؟! إن مـا أفعلـه ليـس إلا محاولـة إثبـات وجـودي وتوصيـل رسـالتي الحالمـة الهائمـة، وكل مـا يشـغل الحيـاة والدنيـا مـن أمـري هـو هـدم قـواي وسـد سُـبلي: إمّـا بفـراق حبيـب.. أو إمتهـان قـدري عنـد صديـق.. أو هـوان كرامتـي عنـد غريـب.. وبـين هـذا.. وذاك.. أقـف حائرًا.. صامـدًا.. صارخًـا.. معلنًـا.. أني سـأصل.. سـأنجح.. بـل أني مـن عـلى حـق.. والحـق أحـق أن يتبـع، والباطـل أولى بـه أن ينـزوي حتـى تأتيـه منيتـه الآتيـة.

ولكـن مـاذا بعـد الآن؟ وأيـن أنـا؟ ومتـى سـأصل؟ وهـل سـأصل؟ والسـؤال الحقيقـي: هـل سـأكمل؟

أخشى أن أتحول إلى كالخاس. هذا الرجل الذي كانت له حديقة مزروعة عنبًا.. وتنبأ له شخص بأنه لن يذوق النبيذ المعصور من هذا العنب.. وأنه سوف يموت دون أن يذوقه.. تمامًا كما مات سيدنا موسى -عليه السلام- وهو يرى أرض المعاد ولم يدخلها.. وعندما عصر النبيذ من هذا العنب دعا الرجل الذى تنبأ له بأنه لن يذوقه، وقدم له كأسًا وملأ لنفسه كأسًا، وأدنى الكأس من فمه، وراح يضحك على صاحب النبوءة.. وظل يضحك حتى مات.. ولم يذق النبيذ! وصدقت النبوءة!!

فهل ستصدق نبوءتي؟ وما هي تلك النبوءة؟

يا رب.. لا أعرف.. لا أعرف.. شيئًا.. إنني كغريق يصارع الأمواج ويتفلت من القروش. بانت لي حالتي كخرقات مهترئة في ثوب الحياة.. روحي ممزقة.. خاوية من اليقين.. مكلومة.. محتضرة.. عالقة بين حافة الأمل والسراب وهاوية اليأس وضيق النفس.. تملئني علامات الاستفهام وتغمرني علامات التعجب كوابل من قطرات عين السماء. تمور دواخلي في ضبابٍ لاهٍ.. وتعرج على منحنيات سريرتي.. متخبط في دهاليز وجعي وخوار قوتي.

يُخيل إلي أنّ نسبة أفراحي وسعادتي مقارنة بأتراحي وأوجاعي، مثل نسبة الماء إلى اليابس. فثلثي حياتي تترنح بين فواجعي.. والثلث الأخير هو ما أطلق عليه فرح. ولكن أليس من الغريب أن تكون تلك النسبة المرتفعة ضرورة لبقاء الإنسان وحياته. إذن فهل وجود مصائبي ضرورة كذلك لأحي في الحياة مستقيمًا؟! فالإنسان قادر على الحياة والتعايش مع تلك النسبة ولا ضرر منها، أيتحتم عليّ أن أكون، كذلك، إنسانًا في حزني؟! ألا يمكن لحزني أن يفكر في كإنسانٍ؟!»

يسير دون أن يشعر بمن حوله ولا ما حوله. لا يرى إلا بمبدأ الاعتيادية؛ فهو يعرف الشارع جيدًا يحفظه عن ظهر قلب. ولولا هذا

ما استطاع إليه سبيلًا. فهذا الطريق دومًا ممتلئ بالمارة والمارات. ولكن فَلِمَ هذا الشارع المزدحم والمضطرب بعينه؟

يشعر بين الناس وتباين أسباب قسمات وجوههم بأنّه يقف في نهر النسيان عند الإغريق. ليث.. نعم كما أنّ هذا النهر كان غريبًا فهؤلاء من يحاوطونه غرباء. حيث كان الإغريق يعتقدون أن الأرواح لابد أن تمر من هذا النهر لتتطهر وتنسى ألآمها وأن من يشرب منه ينسى كل شئ مؤلم مر به في حياته. ولكني لا أنسى ولا يتغير شيء حتى بعد انغماسي في أمواج هذا النهر، الناس! يبدو أنني لا أفتح عيني تحت الماء أو وسط الناس. فالأسطورة تقول: أنّ هذا النهر كان يمتلئ بالماء الأسود مرة كل عام، ويذهب إليه المعذبون بالفراق والحب والخيانة والحرمان وينزلون إليه وكانوا يغمضون عيونهم كي لا تنفذ إليها تلك المياة السوداء.

وإذا خرجوا من الماء، وجدوا لون الجلد قد تغير، وعاد إلى كل منهم شبابه وحيويته، وذهب عنه كل الأمراض واختفى الشعر الأبيض. لكن عيونهم لم تبتل بالماء فلا تكاد ترى العالم من جديد حتى تتذكر كل شيء نسيته تحت الماء، لقد استمتعوا بالنسيان تحت الماء فقط!

«إذن، هل صحيحًا ما قال أجاثون ذلك الشاعر اليوناني: حتى الإله نفسه لا يمكنه تغيير الماضي؟!»

كاد أن يقول: نعم! لا أستغفر الله.. إنّ الله على كل شيءٍ قدير. إنّ هذا الشاعر المسكين كان يقصد الأصنام الحجرية التي كان يعبدها، بل مقولته تأكد ما أرسل الله الرسل لقوله.

لكني مُتْعَبٌ.

«إنّ ما يعتصرني الآن يردد في داخلي تلك الأبيات التي قرأتها منذ يومين وكتبت على هامشها «أنا». يقول الشاعر القديم:

لو كنت أشرح ما ألقاه من حرق ومن سقام ومن وجد ومن قلق
لم يبق في الأرض قرطاس ولا قلم ولا مداد ولا شئ من الورق!
كان يقولها في محبوبته! عبيط! لكننا كلنا جرحى ومعذبون؛ اختلفت الأسباب والحزن واحد.»
استفاق من غيبوبته للمرة الثانية، عندما وقف أمامه شابٌ فجأة قائلًا له: مش عايز منشطات يا صاحبي؟!
كاد أن يرد قائلًا: نعم.. أريد.. أريد منشطاتًا! ولكنه، ابتسم نفس الإبتسامة البلهاء وقال: شكرًا.
«بالفعل أريد منشطات لإحساس الحياة.. وعاطفة الدنيا.. وبشرية البشر.. وإنسانية الإنسان.. وإفاقة الضمير.. وصدق الصديق.. وأخوة الأخ.. وحب الحبيب.. أريد زرع قلب لكل من لا قلب له، وهم كُثُر.
إن حالتي تماثل حالة ذلك المسكين جاليلو؛ الذي لاقى من العذاب أشده ومن الذل أفظعه، من أجل عيون الأرض! وهي صامتة لا ترد عنه. فأنا ألاقي ما أقابله وأصرخ بما يعج به داخلي، أحاول إصلاح من يُرجى صلاحه وترميم ما يمكن إنقاذه من أخلاقٍ عفى عليها الزمان.. ولكن لا أحد يتحرك. وأنا أتوقع أن يتحرك أحد، ولا أحد يتحرك. كلكم جودو. كلنا جودو.
عجبًا لكِ أيتها الحياة.. لأول مرة أعرف حقيقتكِ؛ فأنتِ كهذا الشارع الطويل المزدحم، لا أحد يلتفت للأخر إلّا إذا كان ثمة مصلحة مشتركة: شراء.. بيع.. استبدال.. وكأنّ علاقاتنا الإنسانية ومشاعرنا القلبية باتت بضائع زهيدة الثمن.. مزجاة.. لا خلاق لها من الحياة. ما هذا العصر الذي غزا النفس في مكمنها.. وقذف السكينة في مسكنها.. واعتدى على الراحة في مّقْطَنها. فهزّ رواكد النفس وفتح أغلاقها، ولكنه فتحها على ساحة من الألم تلفح المُطلّ عليها بشواظها فلا يملك إلا التراجع عنها والفرار من أمامها.. حينًا.. والتوجع أحيانًا. تكسوه حالة من

القلـق العتيـق بـين مـاضٍ بغيـض، ومسـتقبلٍ مجهـول، وحـاضرٍ لا يحمـل أيـة بـشرى. وبـونٌ بعيـدٌ شاسـعٌ بـين مـا يرغـب فيـه هـؤلاء الضحايـا، نحـن، ومـا تجـود بـه تلـك المتأمّـرة الحاكمـة، الدنيـا. ولكـن هـل نحـن حقًـا ضحايـا؟!

لا. أنا لستُ ضحية، ولن أكون.

إذن فمن أنا؟

مغلوب؟

هيّنٌ؟

قـد أكـون! ولكـنّ الهـيّن هـو الذليـل! وأنـا لسـتُ ذليـلًا ولـن أرضى، ولـو لهـذه المتجـبرة.»

رفـع نظرتـه لأول مـرة منـذ ولوجـه في هـذا الشـارع، فوقعـت عينـه عـلى لافتـة محـل ملابـس يُدعـى: دايجافـو! بالطبـع يعـرف معنـى الكلمـة جيـدًا. ولكـن، فـما الـذي اسـتوقفه إذن؟

هـل أدرك بالفعـل أنّ مـا يحـدث لـه الآن قـد حـدث لـه مرتـين قبـل ذلـك وحينهـا رأى الحيـاة غانيـة لا تعـبء بـشيء ولا أحـد. ورفضهـا. فرفضتـه. فأقبـل. فأقبلـت عليـه. ثـمّ تـدنى، فتدلّـت. إذن فالحيـاة لا تتغـير معنـا، بـل نحـن مـن نغيرهـا بتغيـير وجهـة نظرنـا لهـا. إننـا كمـن يرتـدي نظـارة سـوداء ويلعـن الظـلام أو بهتـان الرؤيـة! أو مـن يرتـدي معطفًـا في عـزّ الحـر ويتصبـب عرقًـا لاعنًـا ذلـك الجـو الخانـق.. وكذلـك، مـن يرتـدي ملابسًـا خفيفـة ويـكاد يتجمـد في زمهريـر الشـتاء ولكنـه يكتفـي بـأن يلعـن الفقـر أو الجـو. ولم ولـن ينظـر لنفسـه نظـرة واحـدة.

«مـا معنـى ذلـك! إننـي أتذكـر جيـدًا أننـي وقفـت هنـا وعـبرت بنفـس الشـارع وحـدث معـي كل ذلـك بالضبـط، مرتـين. ولكـن متـى؟ ومـا السـبب؟ هـل حـدث ذلـك بالفعـل معـي، أم أننـي أتخيـل مـن وحـي المصطلـح؟!»

متى؟ أين؟ من؟ لِمَ؟ كيف؟ انهالت الأسئلة على عقله كحبات عقد منفرط.

«لا يهمني، الآن، كل ذلك؛ فأنا أقف تلك الوقفة مجددًا دون جدوى من الماضي ودون أية استفادة من الواقع. ولكنّ هذا يعني أنني يمكنني أن أعبر تلك القنطرة المتجددة من اليأس والإحباط والكره والبغض والغضب والهوان وقلة الحيرة وخيبة الأمل... فهأنا لم أمت! إنّ السماء سافرة ولا يحجبها سحابٌ؛ أي أنني بلا وسيط يمكنني أن أصل إلى الله وأناجيه وألقي بكل ما تنوء به أكتافي وتخور عزيمتي أمامه. إنها مفتوحة لي. السماء. الآن.

بين القلب واللا قلب، تدلف حياتنا.. وتسير قدورنا.. وتتشكل مصائرنا.. وتتباين ضمائرنا.. وتتنوع نياتنا.. وتتسكع أحلامنا.. وتهرول مخاوفنا.. وتسرع مثالبنا.. بين القلب واللا قلب.. أي بين اليأس والرجاء...

ولطالما تَدُبُ الحياة على وجه البسيطة.. فدائمًا وأبدًا ستكون بين القلب واللا قلب.. بين حبيبٍ وعدو.. بيد صديق وغادر.. بين مخلص وخائن.. بين صادق و كاذب..

إذن سأجدد محاولاتي وسأعافر بين براثن الحياة ومخالب اللا قلبيين...

الآن من جديد... تدلف حياتي بين القلب واللا قلب...

«الكلمة الجميلة للمرأة مثل الكهرباء للتكيف؛ لن يُعطي هواءًا ملائمًا بدونها!!»

«الحب عند المرأة: مفتاح القلوب، ونغم الأذان.. وجلاء العيون، ومُزهر العقول.. وعبير الأنوف، وخالق الحياة.. الحب هو الحياة.. والمرأة هي الحب في أجمل وأعمق صوره!!»

«الحب: حياة.. موت.. ذكرى.. ابتسامة.. دمعة.. ضعف.. قوة.. تضحية...»

لي صديق اتصل بي ليأخذ رأيي في موضوعٍ، ولكنّه قال: من الأفضل أن نؤجله إلى الغد عندما تكون معي في الكلية! فقلت له: تمام. وعندما ذهبت كان سؤاله: إذا عرفت أنّ ثمة من ينجذب إليك، ولكنّك لا تشعر ناحية بشيء أو لن تفكر في هذا الموضوع الآن، ماذا تفعل؟!

بعد التردد في الإجابة والحيرة.. قلت: أثناء كلامي أو كلامك من الممكن أن توضح له أو لها أنّك لم ولن تفكر في الموضوع الآن؛ وذلك لأنّ صاحبي الخلوق قد أضاف في سؤاله: دون أن تجرحه أو تضايقه بكلامك! فهو خلوق، مهذب، مثقف، قارئ، عال في عواطفه وكلماته...

فالتعامل مع القلوب مثل التعامل مع المتفجرات لا بُد من توخي الحذر والانتباه التامّة لكل كلمة وكل حرف وكل خطوة. فالمتفجرات تُودي بحياة الآخرين وكذلك القلوب المعدومة تودي بحياة الآخرين.. وإن كان الفرق: أنّ المفرقعات يموت الإنسان مباشرة دون عذاب.. أمّا القلوب التي يموت بسببها صاحبها لا تموت في الحال بل تعيش لتتعذب وتتحسر وتتألم في ضيق ووجع. وهذا ما أرده صاحبي، بارك الله فيه وأكثر من أمثاله.

لم أنس يومًا تلك المسكينة التي جاءتني والدموع تكاد تنهمر من مقلتيها لولا تجلدها.. كانت منقبضة النفس.. مضطربة المشاعر.. منكمشة الجبين من همٍّ قد حملته على عاتقها وكاد يقصم ظهرها.. عيناها كقرص الشمس في وقت الأصيل في احمراره.. يبدو ذلك من كثرة البكاء أو طول السهر والأقرب للاحتمال أنّه بسبب الاثنين. كانت غائبة عن الواقع. لا تدري بأي شيء حولها ولا حتى نفسها.. ولولا أنّها هي التي جاءتني، لأيقنتُ أنّها لا تشعر بوجودي.. إلَّم يكن الأمر كذلك.

نظرتُ في وجهها محاولًا قراءة ما به مستعينًا بقسماته، بيد أنّي فشلتُ. ولأول مرة أشعر أنّ الرياضيات التي كنت أعتبرها شيئًا لا يُفهم أسهل بكثير من حل لوغاريتمات وجهها المعقدة. كأنّها تشعر بي نطقت وقالت: أنا تعبانة! أشعر بأنّي في وسط محيط ولا أجيد السباحة وليس لدي أية ذرة من الأمل إلّا مرور سفينة تحملني على ظهرها لتنقذني من ظلام المحيط. وقد رأيتها مرة، وهرولتُ إليها وحينما وصلت وجدتها سرابًا. فقلتُ: ماذا حدث؟ ولما هذه التشبيهات القاسية؟

ابتسمت ابتسامة ليست حقيقية وقالت: سأقول لك ما حدث وقبلها أقسم لك أنّ ما بداخلي أكثر بكثير مما قصصته لك. باختصار.. قد أحببتُ شابًا عرفته حُبًّا لا يوصف ومنحته كل شيء.. وغرستُ آمالي بحديقة حياته لتزهر وتتفرع أغصانها.. وكان ما جنيته منه هو التعب والألم والآهات لتبيت معي في ليلي، وتسكن خيالي، وتغمرني بكوابيسٍ لا حصر لها وغير كوابيس اليقظة. عرفتُ مؤخرًا، صدفة، أنّه كان يحب فتاة قبلي وبسبب خلافٍ بينهما قد افترقا. ودام الفراق طويلًا ولم أكن أعرفها وقتها ولم يكن في حياتي. وعرفته.. وبعدها أقسم لي أنّي حُبَّه الأول والأخير.. وأنّه امتلك الدنيا عند

أحبتـه. وأضـاف أنّـه لطالمـا بحـث عنـي وكاد يفقـد الأمـل في وجـودي ولكنّـه وجـدني وحمـد اللـه عـلى ذلـك...

وبعـد فـترة مـن ارتباطنـا وتبـادلي لحبـه وعشـقه، ظهـرت حبيبته الأولى مـرة ثانيـة في حياتـه وقـد قـررت أن تُعيـد المـاضي.. وتسـتحضر الذكريـات القديمـة، وتعـود لـه؛ لتصحـح مـا أخطئـت وتعيـش قصـة حـب جديـدة دون مشـاكل. ومنـذ تلـك اللحظـة وقـد تحـول إلى شـخصٍ أخـر؛ يجلـس بجانبـي جسـدًا وعقلـه يـشرد بعيـدًا. وأنـا في حـيرة لا أعـرف هـو مـع مـن أنـا أم هـي؟! لم يعـد يسـألني عـن تفاصيـل يومـي. إنّـه في وادٍ وأنـا في وادٍ. لم يعـد يفعـل الكثـير مـما اعتـاد عليه!والكثـير يقبـع بداخـلي ومـن فرطـه لا أعـرف كيـف أخرجـه. توقفـت عـن الـكلام لتجفـف دموعها التـي سـالت عـلى خديهـا وملئـت وجههـا.

وكالـذي انتهـز الفرصـة، قلـتُ لهـا: يـا عزيـزتي هـل أنـتِ واثقـة مـن حبـه لـكِ؟ هـل بوحـتِ لـه بـكل مـا يثقـل قلبـك وعقلـك وينغـص حياتـك؟ فقـط لترتاحـين.. وتطمئنـين بـدلًا مـن خوفـك.. وتنامـين بـدلًا مـن سـهرك.. وتبتسـمين بـدلًا مـن تكشرتـك.

فأجابـت: واثقـة مـن حبـه لي ثقـة عميـاء قائمـة عـلى أدلـة وبراهـين قـد حدثـت بالفعـل لأجـلي.. وعـلى احسـاسٍ لا يكـذب. ولكنّهـا أضافـت: أنّهـا لم تقـل لـه شـيئًا لأنّـه لا يعـرف أنّهـا قـد عرفـت كل ذلـك.. كـما أنّهـا تـراه في كبـدٍ وأرقٍ ولا تريـد أن تحملـه أكـثر؛ إنهـا تحبـه ولا تريـد خسـارته...

قلـتُ: إنّ الأمـر ليـس هينًـا والاختيـار متعـب وصعـب جـدًا.. وهـو معـذور. فالحـب الأول تُكتـب حروفـه في القلـب بمـاءٍ مـن نـار؛ ولذلـك فـلا يـزول نهائيًـا بـل يـترك ندوبًـا عظيمـة. الحـب الأول أول مـا يـدق القلـب. هـو النبتـة الصغـيرة التـي سـتنبتُ بعدهـا الحشـائش ثـم الأشـجار المتأصلـة الضخمـة مـن الحـب والحنـان والرحمـة.. الحـب الأول

كأول كلمات يسمعها الطفل؛ تبني شخصيته وتُشيّد مبادئه وقيمه. الحب الأول هو أول ما تراه عين القلب عند فتحها. إنّه أول ما نعرف به معنى كلمة الحب. بل هناك من يرى أنّ الحب الأول هو الحب الحقيقي. فلا حب غير أول حب يطرق باب القلب ويلين له باب العقل. وعلى النقيض، ثمة من يراه مشاعر لا أساس لها.. لا تحمله أية أعمدة متأصلة في قاع الأرض. ما هو إلا إعجاب زائد.. وانجذاب مغالى فيه.. ولا يكتمل غالبًا.

فالمواجهة الآن، عنده، بين دقة القلب الأولى وبين من حفظ قلبه وصانه من الجرح. إنّ صمته معكِ ليس دليلًا عن اختياره الثانية.. بل هو دليل على التفكير.. ليس التفكير فيها هي.. أو أنّه لا يشعر بوجودك! بل هو يحاول الاختيار بسرعة ولا يريد أن يظلمكِ معه. هو لا يفاضل بينكما لكنّه يريد كيف يعرف يرفض محاولة استعادة ما كان. وسترين أن المفاضلة في صالحكِ أنتِ. ولكنّ طبيعتنا تطغى علينا، فنخلق أشياءًا لا وجود لها، ونصدر الأحكام دون الاستماع للمتهم. وأستاذ الحب، يوسف السباعي، قال: «إنّ شر ما في الحب أنّ المُحب يخلق لنفسه أحزانًا لأشياءٍ لا وجود لها!» وأنتِ هكذا.. ومعذورة.

وبينما نحن هكذا سمعت صوتًا حزينًا قد انطلق من حقيبتها، بالطبع كان الموبايل. فوجدتُ عينها قد اتسعت ولمعت.. ونبضات قلبها أوشكت على التوقف.. وبات نفسها يثقل عليها؛ وكأنّ هناك شوكًا في حلقها وصدرها كلما تنفست دمّرها. ثمّ قالت بصوتٍ أجش: هو!! ولم تزد. فذهبت بعيدًا وطالت المكالمة بينهما حتى ظننتُ أنّها قد ذهبت إليه في مكان آخر ليتحدثا مع بعضهما البعض.

لكنّها ظهرت...

إطلالتها هذه المرة كانت أشبه بالقمر الذي اكتمل ليبدد ظلام ووحشة الليل.. وبالشمس التي أشرقت لتزيل ملامح يومًا قي امتلأ بالغيوم.. ولتُكسي على الأرض الدفء والحرارة في يومٍ من أيام الشتاء. أقرب بالوردة التي قد أوشكت على الموت؛ لقلة الماء، وجاءها فجأة وابلٌ من المطر لتحيا وتدب الحياة فيها من جديد.

قالت جذلة: هو.. هو.. حبيبي..

لقد اعترف لي بكل شيء وأنّه قد ظل طول تلك الفترة الماضية يقرر كيف ينهي هذه المحاولة المستمية منها للرجوع له، وليس من أجدر به فهو يعرف أنّها أنا. ووعدني، أنّه لن يتركني ولن يحب غيري.

وختم مكالمته بقوله: سلام يا حبي.. وحياتي.. ونور عيني...

وضحكت مُشرقة، فأشرقت قلبي. وقلتُ لها: أدام الله فرحتكِ وأبعد عنكِ الحزن والهم والغدر والفراق. وبارك لكما في حبكما وسعادتكما...

فابتسمت قائلة: سلام بقى علشان ألحق أكلمه لما أوصل البيت لأنّه وحشني... سلام.

سلامٌ على كل قلبٍ عرف معنى الحب

سلامٌ على كل عقلٍ أدرك قيمة الحب

سلامٌ على كل من أحب بكافة جوارحه الحب

سلامٌ على كل لفظة أحيت معاني ماتت في قلوب تئن

سلامٌ علي صاحبي المُدرك لخطورة القلوب وكيفية التعامل معها

سلامٌ عليك وعلى كل من اهتدى بهديك واقتفى أثرك

الحب حياة يحياها المرأ مع من يحب.. والفراق موت. موت. موت يذوقه الإنسان ويتجرعه على قيد الحياة.

فالتعامل في الحب لا يتم مع الشخص أكثر من كونه مع مشاعره،

قلبـه، عواطفـه، ومناطـق ضعفـه.. وآمالـه وطموحاتـه. ولـذا، فحـريٌّ بنـا ألا تخـرج كلمـة الحـب، إلا بعـد التأكـد مـع معرفـة معناهـا الحقيقـي وتحمـل عواقبهـا الجسـيمة. فتلـك الحـروف (ب ح ب ك) مـن يسـمعها يبنـي قصـورًا شـامخات وصروحًـا عظيمـة بنـاءًا عليهـا، وعندمـا يكتشـف كذبهـا، تنهـار عليـه وتنهـدم أركانهـا وأركانـه.

فالقلـب الفاقـد لحبيبـه، كالكلمـة الفاقـدة لمعانيهـا.. والحـروف الملقـاة تطأهـا الأقـدام دون أن تشـعر.. قلـبٌ تائـه. عقل مشـتت. نفس مسـدودة. كـون شاسـع لا يعـرف منتهـاه. قـدرٌ يجهـل قـدره.

فأرجـوك ، إذا كنـت لا تُجيـد السـير في طريـق الحـب ورأيـت مـن يسـألك عليـه وأنـت لا تـدري، فقـل: لا أعلـم. ولا تُفتـي بغـير علـم. وقـل لـه بأنّـك تبحـث عـن عنوانـه كذلـك... وإيّـاك أن تخلـق قلبًـا تائهًـا...

وكلمـة «تائـه» بهـا نفـس حـروف وصـوت كلمـة «آه» وكأنّ الألم والوجـع يسـكن كل مـا هـو تائـه. فالتوهـان دهـلان.. والدهـل في اللغـة هـو الـشيء اليسـير، وكأنّ التائـه هـينٌ عـلى زمنـه وأحداثـه وأشـخاصه والكـون.

أبعد الله عن قلوبنا التوهان

كنتُ أعمى

كانت تستهويني منه تلك النظرة الحزينة القابعة والجائية في عالم لا يدري به أحد سواه، تشغلني كثيرًا جلستة الهادئة قبل أية محاضرة قليلًا؛ وكأنّه يشحذ أفكاره ويستجمع قواه الواهنة ليُكمل ما عليه.

كنتُ أجدُ فيها شخصًا قريبًا منّا وممن حوله رغم مستواه العلمي والثقافي إلّا أنّه كان إنسانًا! تصاحبه تنهيده خفيفة متكررة ملازمة له في حياته حتى في محاضراته... يلتف حوله الكثير من الطلاب والطالبات حبًا واحترامًا وتقديرًا، ومنهم من يحاول الاستفادة من علمه وثقافته، وهناك من يعطي لنفسه شعورًا بالفخر لمصاحبته أو السير بجانبه والحديث معه. دائمًا ما يردد في حديثه أنّ العالم كله يميل إلى الفوضى واللاعقلانية، ويستدل على كلامه برأي العالم جبس حين قال: أنّ العالم يميل في حركته إلى الفوضى؛ فإذا ألقيت حجرًا في بركة ماء سيُحدث كراتًا كبيرة ما تلبث إلى أن تنتشر؛ لأنّها تميل إلى العشوائية!

بالطبع، كنتُ من أشدِّ معجبيه والمهوسين بعالمه وحديثه وثقافته ومعرفته؛ فقد كنتُ دائمًا ما أشعرُ بأنّي أسير في عالم يمتلئ باللامنطقية واللاوجودية؛ لا يعرف إلى أين أخطو ولا لماذا أسيرُ؛ كل ما أعرفه أنّ عليَّ السير وإن جهلتُ الغاية وحُجِبَ عني الهدف! إنّني اللامنتمي!! وهو كذلك! أو على الأقل هذا ما أعتقدته فيه.

وكانت شدة قربة من الطلاب تجعلهم يطلبون مشورته في أمورهم الشخصية والعامة والأكاديمية المختلفة، وكان لا يبخل بالنصيحة طالما توفرت عنده. وكنتُ دائمًا أحاول أن أتقرب إليه أكثر وعرفت الكُتّاب الذين يقرأ لهم وبدأت أقرأ لهم لأناقشه أكثر وأفوز بملاحظته لي، وبدأت أترقب سيره لوحده حتى أحادثه أكثر وأكثر، ومن ثمّ نشأت علاقة محمودة بيننا وبدأت أحادثه أكثر وأعمق

قليلًا وكنت فخورًا بتلك العلاقة التي أتمنى أن أقول عليها صداقة؛ فكل طالب يجد فخرًا في معرفة الدكتور الذي يدرس له ويا حبذا لو كانت علاقته به تفوق الأخرين. فقد كنتُ الطالب الذي نال هذا الشرف.

كان منمقًا في كل شيء واجتماعيًا إلى أقصى درجة ممكنة؛ فكان يعرف جاره جيدًا ويسلّم على بائع الخضروات الذي يبيع تحت شقته في الشارع، ويحبه الأطفال في عمارته، والحلاّق، والمكوجي، وزملائه من الدكاترة الذين كنّا نندهش من الفرق البائن الشاسع بينهم وبينه، ويعشقه طلابه وأنا. لكن كان هناك سؤال يتردد في أذني وعقلي: لماذا لم يكن متزوجًا وهو الذي تتمنى أية بنت الارتباط به؟! كانت حالته تلك تضايقني من نفسي في بعض الأحيان؛ فكيف لشخصٍ مثله لا يفكر في الزواج ولا الحب وهو الجاهز من كل شيء، وأنا الذي لا أملك شيئًا تسيطر عليَّ تلك الأفكار وتنغص عليَّ حياتي؟!

وفي يومٍ من الأيّام، وبعد حسابٍ طويل مع نفسي وتقيمٍ دقيقٍ لحبي لزميلتي وخوفي من ظلمها معي، ورهبتي من أن يكون ما أشعر به ليس حبًّا خالصًا وسرعان ما يتبدل لفتاة غيرها! ذهبت إليه واستأذنته في أنّ أخذ رايه في أمرٍ شخصيٍّ. وجلستُ أقصُّ عليه اختلاجاتي ولواعجي ووساوسي وهواجسي... وأرسم له مخاوف مستقبلي وقلبي وكيف أنّي أشعر بتناقضٍ رهيب في مشاعري تجاه زميلتي التي أحببتها وأحبتني؛ ففي وقتٍ أهيم بها ووقتٍ أخر أشعر وكأنّها لا تتجاوز فتاة معجب بها أو بأنوثتها فقط وأرى غيرها، وكيف أنّي أخشى من ذلك في المستقبل.

كان ينصت إليّ ثمّ قال: لن أقولُ لك نصائح خالصة بحتة ولكنّي سأقص عليك ما كتمته بداخلي ينخر في قلبي ويأكل بأفكاره عقلي وينغّصَ مضجعي ويؤرق راحتي...

منذ خمسة عشرة عام

كنت مثلك شابًا هائمًا نائمًا في عالم مجهول، أنتشي من رحيقه، وأسعد بسماع موسيقاه.. وأنبهر بأسراره، وأتخبط في سراديبه التي ألفتها منتشيًا.. أرى نفسي مالك الكون وصاحب الرأي والفصل والقول الأخير؛ فأنا حفيد الفراعنة بل أنا فرعون صغير. كنت أنهل من أنهار هذا العالم، وأسبح في محيطاته وبحاره في خفة ولياقة، لا أبالي بشيء إلا اللحظة التي أعيشها الآن. مثل كل الشباب.. فهو ابن اللحظة الحالية التي تولد بين يديه.. ويطبق المثل الشعبي:» احييني النهاردة، وموتني بُكرة!!»

حتى قابلتُ سارة التي غيّرت الكون في نظري وبدّلت رؤية العالم في عيني، بل رؤيتي لنفسي تلاشت وحلّت محلها رؤية مختلفة تشعر بالعالم يدور ويتحرك حولها، وأنّه لا أحد يتوقف ولا بُد من التحرك والمبادرة. أخذت أركع وأصلي وأبتهل لله أن يرزقني إيّاها، وحاولت جاهدًا أن ألفت انتباهها وأُثير فضولها. كانت جميلة ورقيقة وأنثى كما ينبغي أن تكون الأنوثة. واستجاب الله لي وعندما أعلمتها بما في قلبي صادف ما يختلج في نفسها، وخطبتها.. ومر على خُطبتنا عامان ونصف، كنت خلالهما أحاول إسعادها بكل ما أُتيت من سُبل وما تيسر لي من نعم؛ أنصتُ لهمومها وأحاول إزاحة مشاكلها وحلها، أقول لها وأسمع منها وأتودد إليها. كنت سعيدًا وراضيًا. لكن.. كما يقولون:» دوام الحال من المحال»، تكاثرت المشاكل والخناقات على أسباب متعددة: مثل الغيرة ومشاكل البيت عندها وعندي، وضغط الحياة اليومية والتفكير فيما يجب أن نفعل، وإلى أخر ما يمكنك أن تقوله من مشاكلٍ كانت تنبتُ وتترعرع سريعًا وتتفاقم دون أي داعي أو سبب.

أخذت أحاول جاهدًا تفادي كل ذلك وكانت هي تحاول

معي.. ولكنّ ذلك كان مرهقًا جدًا؛ فكل ما ضد رغباتنا وأهوائنا يثير غضبنا ويتطلب جهدًا إضافيًا لتحمله، مثل عندما تصعد على السُلم تجده أصعب من النزول عليه لأنّه ضد الجاذبية!

تكاثرت المشكلات وازدات الهموم...

وحينها ظهرت في حياتي ولاء، وأعجبت بي وأخذت تتصيد الفرص كي نتحدث ونسير مع بعضنا وكانت دائمًا تُلمّحُ لي أنّ شخصيتي فريدة وقوية ومثقفة، أكاد أكون لستُ شرقيًا!

في البداية، حاولتُ الإفلات من الأمر حينما شعرتُ بأنّها تحبني وأنّ المشكلة ستتعاظم وكذلك لن أترك سارة. وكنت أعافر وسط مشكلاتنا المتعددة والضغوطات المتزايدة، والتي في الحقيقة تحدث مع أيّ اثنين مرتبطين، ولكنّي كنت أقف في وجه الضيق والحزن ومعه ولاء!!

لن أطيل عليك... ويؤسفني أن أقول لك: أنّي تركتُ سارة وارتبطت بولاء!!

كنت أعمى حينما ظننت أنّ الهروب إلى مكان جديد لا أعرف عنه شيءٍ هو الخيار الصحيح، وسأكتشف خباياه بنفسي وسيكون ذلك محمّسًا أكثر.

لم أعرف أنّي أخدع نفسي وصارعت ضميري وقلبي وحاولتُ أن أنجح في حب ولاء وأن أبادلها حبها.. لكنّي لم أفلحُ في ذلك، ووجدت نفسي في تعبٍ أكثر وهمٍّ أعمق وحزنٍ دفين. لماذا تركتُ سارة؟ ؟ ما خطأها؟

لم أجدُ شيئًا مختلفًا عند ولاء من سارة! بل كانت سارة أجمل وتحبني كذلك حبًا عميقًا. يبدو أنّ الأمر كما يقول المثل الشعبي:»زمّار الحي مبيطربش!» أي أنّنا لا نعرف قيمة ما نملك لأننا نملكه.

الغريب اكتشافي لجمال سارة عن بُعد وعرفت عنها أشياءًا

لم أكن أعرفها من قبل.. فالمعتاد لا يلفت انتباهنا، والعين لا ترى، حقًّا، إلا الجديد وكل ما عدا ذلك ليس إلا انطباعًا مسبقًا، ونسخًا مكررة.

لفت نظري، في صغري، عندما كنت أذهب إلى الملاهي منظر في لعبة تُدعى «الغُربال»، وهو يعمل بنفس طريقة الغُربال الفلاحي: وهو رج ما به ودحرجته إلى اليمين واليسار حتى لا يستقر في مكانه؛ فتتساقط الفضلات من فتحاته. يجلس الناس على جانب ذلك الغربال الكبير ويتماسكون في الحديد ويتلاصقون في بعضهم البعض.. وصاحب اللعبة يبدأ في تحريكه تدريجيًا حتى يقع أحد الضحايا في الوسط.. وعندها لا يمكنه أن ينهض إلا إذا أوقف اللعبة أو انتهى الدور. وكل ذلك لم يكن ملفتًا غير أنّي رأيتُ شخصًا يأتي ويقف في النصف ويتم دحرجة الغربال ولا يقع! ولكنّي تنبّهتُ أنّه معهم! أي تعوّد على ذلك وتدرب عليها ولا جديد بالنسبة له. أمّا هؤلاء المساكين، أنا والأخرون، لم نتدرب على ذلك ولذلك من السهل خداعنا.

وأنت في الأتوبيس عندما يُمسك السائق، فجأة، الفرامل تجد أن الواقفين يقعون على الجالسين وعلى بعضهم البعض، والمدهش أنّ الكُمسري لا يقع مثلنا! إنّه قانون التعوّد! كذلك نحن في الحب والحياة لا نرى مَنْ اعتادنا رؤيته كما ينبغي؛ لأننا نحصره في قالبٍ بعينه وحسبنا ما وجدناه منه، نحبسه في قمقم ونحكم عليه ألّا يخرج منه، ونتلفت حولنا بحثًا عن كل جديد يثير انتباهنا للحظات، وإن كان ليس مناسبًا لنا، لكنه جديدًا!

تألمت من أعماقي وكان ألمي يدفعني أن أكره ولاء وأكف عن محاولة حبها؛ إنها السبب! لا أنا السبب! نفسي الضعيفة الأنانية السبب! ولكنّها قدمت لي يد العون!

أوجعني السير في جنازتي وأنا على قيد الحياة.. أوجعني أنّي أسير خلف نفسي مع نفسي وحيدًا؛ والمؤلم أنّي أنا الجاني والضحية!!

تركتُ ولاء! صحيح.. كنت على أمل أن أرجع لسارة وإن كنت أعرفُ أنّي قد لا يوافقني الحظ لذلك.. ولكن كان لا بُد من ذلك... أريد أن أرتاح حتى لو تألمت في سبيل راحة ضميري.. فلم أعرف حبها ولم أستطع...

كان قد فات الأوان.. وارتبطت سارة بغيري!!!

وعِشتُ في حسرة العاجزين، وألم المذنبين، وندم المُفرّطين...

وتبدلت الحديقة الوارقة المستكينة إلى غابة موحشة تقطنها الأشباح!!

ولم أرتبط حتى الآن؛ قد يكون ذلك نوعًا من العقاب والأخذ بالثأر لقلبي وضميري وانتقام من أنانيتي...

ولن...

شعرتُ بعدها بالا منطقية والا وجودية.. عرفتُ كيف يختفي كل شيءٍ فجأة وتَزبُل الزهور بعد نضارتها؛ والقلب ينبض في اعتيادية مكروهة والعين ترى في نفورٍ والأذن تسمع في غير اكتراثٍ.. والقدم تسير إلى المجهول ولا تعرف كيف تتقي هوة عميقة تعلم بوجودها في الطريق.

تهتُ كثيرًا واحترتُ أكثر.. بكيتُ وانتحبتُ.. كنتُ أبكي على نفسي وأرثو على حالي وهمي.

أكثر أوقات ضيقي لم أكن أعرف سبب الضيق.. بيد أنّي كنتُ أعرف أنّني السبب!!

لقد زرتُ بلادًا أجنبية كثيرة: سافرتُ إلى أمريكا، وألمانيا، وإيطاليا، وإنجلترا، وأخيرًا كنت في اليابان، ولم أجد الفرق بيننا وبينهم في فرق العلم كما نزعم وندّعي ونمنّي أنفسنا! وجدتُ أن الفرق

الحقيقي هو احترام مشاعر الأخرين وتقدير متاعبهم وحبهم.. واندهشتُ كثيرًا لذلك!

عرفتُ أنّ المار في الشارع لا يلقي القمامة على الطريق ليس خوفًا من القانون وإنّما رفقًا بتلك الانحناءة من عامل النظافة ليلتقط ما ألقاه هو.. وعرفتُ أنّ الموظف لا يترك عمله حرصًا على تيسير أعمال غيره وعلمًا بأنّه لو أنجز مطالبهم التي بين يديه لن يأتوا له ثانية.. وحتى علاقة الشاب بالفتاة هناك، وإن كان لها شكلًا مختلفًا، لكنه أكثر إخلاصًا منّا؛ فلا يمكن أن تجد شابًا مع فتاة يتركها ويذهب ليغازل أو يمازح غيرها في وجودها، فهو يحرص على مشاعرها ويقدرها.. أمّا لو قلت لي: أنّه يعرف أكثر من واحدة والعلاقات تتجاوز تلك الكلمة، فهي ثقافة تتباين في طريقتها وأنماط معيشتها.. فلو احترم كلٌ منّا مشاعر الأخر وقدّر حبه واحتياجاته كما ينبغي، سيتغير كل شيء وسنعرف كيف نعيش!!

أرجوك لا تهمل مشاعرك ومشاعر غيرك بحجة الخوف والضيق.. وأية كانت المشاكل لا تهرب منها!

أنت تحب من تخاف من مشاعرك تجاهه.. وتحب ما يقلقك؛ فنحن كالأمواج إذا هدأت تموت!! واعرف أنّ العالمُ كما هو ولا يتغير؛ إنّما الناس تتغير وتتبدل أفكارهم ومشاعرهم باختلاف ثقافتهم.

واعرف من الآن ولا تدفع ثمنًا فادحًا لتعرف جيدًا ما سأقوله لك: إن المرأة تُدين بمذهب الفلسفة الوجودية دون أن تشعر؛ فهي تميل إلى الإسراف في كل شيء: الحب، الكراهية، الحزن، الفرح، والبكاء... كل شيء تقريبا. والفلسفة الوجودية تغالي في حرية الإنسان وقدرته على خلق مصيره واتخاذ قراراته، ولا تعرف الاعتدال في المزاج أو الرأي. ولذلك، فضيق المرأة وحزنها ليس كآبة كما نعتقد نحن الرجال! وإنّما

هـي طبيعتهـا تطغـى عليهـا وتتحـذ شـكلها الطبيعـي.

فـأردتُ أن أقـول لـك: إيّـاك أن تقسـو عـلى امـرأة أو فتـاة ضيقًـا وغيظًـا بحديثهـا. واعـرف كذلـك أنّـه لا فائـدة مـن مناطحـة الحائـط؛ وجدالـك مـع امـرأة غاضبـة أو حزينـة أو حتـى عاشـقة لا يُجـدي بـأي نفـع، لأنّـه كمناطحـة الحوائـط.

obeikan.com

لا يزال عطره في يدي

جلست مطرقًا كعادتي تؤنسني أحزاني وأفكاري.. تلك الحالة التي ألفتها وألفتني. أذوب في محيط سريرتي ولا أعرف أين أنا ولا إلى أين أذهب ولا مَنْ تلك الدخيلة التي تصحبني؟

كنت أتجول فيما حولي وما يحتويني وأندهش مما يحدث لي وهل لي أن أنقم أم أشكر؟ فسمعت الكون يناجيني على لسان الطبيعة حولي قائلة:» أنا الطبيعة.. والأم العالمية والسيدة الأولى والأخيرة! الطفلة الأولى للزمن وملكة الأرواح والأبدان ومغيرة الأعراق والأنساب. أسمح للحب أن يتمخض مني لمن يروق لي، وأحبسه عمن لا يروق لي؛ فأكويه بناره وأمنع عنه أنفاسه وأجعله يلهث في امتعاضٍ.. فهل يجرؤ أحدٌ على مخالفتي؟ ألا ترى في، طبيعتي، إنعكاسًا لطبيعة كل الذكور والإناث، وثورة البحر وغضب النهر وثورة البركان وزلزلة الزلازل؟ أنا أسطورة! وما يتدفق مني فهو أسطوريٌّ مثلي؟ وأقول لك: أنّ الحب أسطورة يحياها الغافلون في وعي منهم بغفلتهم، ويتجنبها الواعون بلوعتها، ولا يذوق حلاوتها إلا الصادقون. فلو كان عذابك حبًا؛ فتأكد أنّك اخترت الإنسان الخطأ.. واسمع من أمِّ الحب؛ إنّ ابني يخالف طِباع البشر ويعشق العبث بقلوبهم، فكن حذرًا وخذ ما آتيتك بقوة وانقله لضحاياي وضحايا ابني! فما لهؤلاء القومِ لا يكادون يفقهون حديثًا.

أخرجت القلم من جيبي وفتحت دفتري وأخذت أسطر تلك الخاطرة التي داهمتني على حين غفلة من أمري، فلم أكن أعرف هل هذا صوت عقلي أم صوت حالي؟!

رأيتها مقبلة عليّ وجلست فوق الكرسي الذي بجواري. كانت جميلة.. شعرها فَحْمِيْ اللون في نعومة الحرير. وبعد هنيهة، التفتت إليَ على عجلٍ فلم ألتفت لها! ولكنّها عاودت الالتفات وكأنّها مُصرةٌ

على قول شيء ولا تعرف كيف تقوله ولا بماذا تبدأ؟ فهل تعرفني؟! لا أظن؛ فكيف لها أن تعرف شخصًا مثلي؟ نظرت إليها مبتسمًا تلك الإبتسامة التي لا تحمل معنًا ولا تعطي دلالةً. فوجدتها تقول لي: أنا أسفة.. لكن البرفان بتاعك جميل أوي! واستكملت موضحةً: أعرف أنّك قد تندهش لأنّه رجالي ولكن لكلٍ منّا خفايا لا يعلمها إلا الله. أنا أسفة لو كنت ضايقتك بكلامي، عن إذنك؟ فردتُ في لهفة: إلى أين؟ فقالت: أبدل المقعد حتى لا أضايقك ولا يضايقني برفانك! فقلت: لست متضايقًا ولكنّي أسف لكِ وأعتذر نيابة عن برفاني ولو أعرف أنّه مجلب لضيق الجميلات ما اشتريته وإن كان في الحقيقة هدية غالية باتت تلسعني بشظايا ذكراها.

فنفرجت أسارير وجهها وابتسمتُ لها ولكنها تلك المرة كانت بصدق وصفاء. قلتُ لها: هل لي أن أتحدث معكِ قليلًا؟ فقالت: بكل تأكيد ولن أغير مقعدي!! قلت لها: إنّ لكل منّا بواطن لا يدركها سوى الله سبحانه وتعالى وظواهر لا يعي حقيقتها إلا الله وأصحابها! فنحن كثيرًا ما نتظاهر بوجودنا على ظهر الحياة، ونتقمص دور السعداء إرضاءًا لكبرياءٍ داخلي أو عزة نفسي تأبى أن تنكسر. دعيني أقولُ لكِ: أنّكِ جئتي في موعدكِ وإن تأخرتي قليلًا ولكنّ التأخير لم يقتل ما أريد أن أقتله. فقد كنت بحاجة أن أتحدث مع شخصٍ لا أعرفه وأقابله مرة واحدة ربما لا أقابله بعدها طوال حياتي.. أقص عليه مشاعري واختلاجاتي، فيأخذها معه ويرحل وعند أقرب سلة مهملات يلقي بها، فعند كل منّا ما يكفيه؛ أي أنّني كما يقولون» وقعت من السماء وأنتِ تلقيتني!» فقالت: إن كان ذلك حالك، فأنت مسكين من ضحايا الحب! فقل ما تريد...

أنا يا عزيزتي شابٌ حديث التخرج في كلية التربية جامعة القاهرة، قسم اللغة العربية، قد منّ الله عليّ وعُينتَ معيدًا في

الكليـة والآن شرعـت في الماجيسـتير. تتلخـص حيـاتي في حـماتي، أو مـن تمنيـتُ أن تكـون كذلـك! باختصارٍ، أحببـتُ زمليـة معـي في الكليـة لكنهـا تصغـرني بعـامٍ واحـد وكنـت حينهـا في عامـي الثـاني في الدراسـة. تبدلـت الأجـواء واختلفـت الأحـوال وراقـت ليّ الدنيـا بكدرهـا قبـل صفائهـا. شـددتُ مـن عزمـي أكـثر وصممـتُ عـلى الحفـاظ عـلى مركـزي حتـي أكـون مـن بـين مـن الأوائـل في التعـين. لم تكـن الدنيـا بالرائقـة دومًـا، ولكنهـا لم تكـن غائمـة كذلـك. فسـاعةٌ وسـاعة. كانـت «هيـام» تُـزوّرُ الحيـاة في عينـي.. وتُحسّـن المتاعـب في نظـري، وتعـزز مـن همّتـي وتقـوي عزيمتـي. وكانـت كل شيءٍ لي؛ رُزقـتُ حبهـا. فقـد كانـت كألـوان الطيـف الرائقـة السـاطعة في جـو السـماء بعدمـا تطهـر الكـون بأمطارهـا. أتفنـن في إسـعادها، واعشـق ضحكتهـا وصوتهـا، حينـما تتحـدث ابتسـم مـن فـرط حبـوري بهـا وإبتهاجـي بحضورهـا. كنـتُ أشـعر بأنّهـا ابنتـي التـي لم ولـن أنجبهـا؛ فأناديهـا بصغـيرتي، فكـم أعشـق هـذا الحـرف السـحري الـذي يحـول مـا نحـب لنـا ولنـا فحسـب. كانـت مجنونـة، طيبـة، بريئـة، صغـيرة، أنثـى كـما يجـب أن تكـون الأنثـى. كذلـك أحسسـتُ بميـلادي عـلى يديهـا وأحببـتُ الحيـاة فيهـا ومعهـا. وأخـذت الأيّـامُ في دورتهـا المعتـادة وانقـضى عـلى حبنـا وتعلقنـا عامـان كامـلان، وتخرجـت في كليـة التربيـة، وجـاء وقـت أن أتقـدم لهـا رسـميًّا وأخطبهـا حتـى نكـون بجانـب بعضنـا إلى أخـر عمرنـا.

لكـن.. ويـا لوجـع هـذه الكلمـة في نفـوس العاشـقين وسريـرة الهائمـين، ودخيلـة الحالمـين الآملـين. في بدايـة الأمـر عارضـت أمّهـا الخطوبـة لأنّهـا تريـد لهـا عريسًـا أفضـل مـن ذلـك الشـاب الـذي لا يعـرف مـن مسـتقبله سـوى بضعـة جنيهـات لا تـكاد تدخـل جيبـه حتـى تخـرج منـه. كـما أنّهـا جميلـة و»ألـف مـن يتمنّهـا!»، وابـن عمّهـا جاهـز وعنـده عربيـة وشـقة وسـتكون راحتهـا معـه أكـثر؛ فبـدلًا مـن المـشي سـتركب،

وبـدلًا مـن الوقـوف سـتجلس، وبـدلًا مـن العمـل اضطراريًّـا لـن تعمـل ولـو أردات سـيكون نزهـةً لهـا وترويحًـا وإشـغالًا ليومهـا. ثـمّ استسـلمت لرغبتنـا بعدمـا تيقنـت أنّهـا تحبنـي وأنـا أحبّهـا ولـن تتـزوج غـيري! وتمّـت الخطوبـة. وكان لا بُـد أن أعمـل أكـثر حتـى أوّفـرَ مـا يلـزم لإكـمال زواجنـا وحتـي لا أكـون أقـل مـن أحـدٍ في عـين أمّهـا. ولكنّـي كنـتُ مشـغولًا في الكليـة وفي المذاكـرة لإكـمال الماجيسـتير.

مـا علينـا، بعـد فـترة وجـدت أمّهـا وأبيهـا كذلـك أنّي لم أنقـل لهـم خـبر شـقة جديـدة، ولا توفـير مبلـغٍ مـاليٍّ مـا، أو حتـى شراء أيٍّ مـن مسـتلزمات البيـت التـي اتفقنـا عليهـا! وبالطبـع سـألتني حـماتي، وقالـت: أنّـه لا بُـدّ أن أعـرف رأسي مـن رجـلي حتـي يعرفـون هـم وضـع ابنتهـم. وعندمـا قلـت لهـا: بـأنّي أدرس في الكليـة وبعـد الانتهـاء أذهـب إلى أحـد المراكـز التعليميـة التـي توفـر المـلازم والـورق لطلبـة في جميـع المـواد وأدرس هنـاك وأكتـب ملخصـات المـواد حتـى أوفـر أكـثر. ولكـنّ ذلـك لم يكـن كافيًـا! فاقترحـت هـي شـيئًا أخـر: أن أعطـي دروسًـا للطلبـة في المـدارس!! وعندمـا اعترضـت قائـلًا: بـأنّي معيـد في كليـة وأدرس لعقـولٍ أكـبر وأرقـى مـن تلـك، تهكمـت وقالـت: كلـه كلام بيتقـال يعنـي أنـت هتخـترع وبعديـن احنـا مـش «هنربـط!» بنتنـا جنبـك عـلى طـول! بالطبـع، رفضـت في بـادئ الأمـر، بيـد أنّـه بعـد فـترة وعـدم وجـود وسـيلة أخـرى أمامنـا والضغـط عليهـا في البيـت والضيـق الـذي بـات يصاحبنـا، وافقـتُ. وافقـتُ عـلى مضـض، وفي ارتمـاض مـا ينغـص علينـا حلمنـا، ويقلـق أمالنـا ويطيـل سـهدنا وألمنـا. وتفاقـم كل ذلـك لأنّهـا كانـت قـد أنهـت عامهـا الأخـير في الجامعـة وعـلى رأي والدتها:»البنـت لازم تتسـتر»؛ لأنهـا بعـد الكليـة فرصتهـا في الجـواز بتقـل!!

قـد يقفـز إلى ذهنـكِ ويبـادر إلى مخيلتـكِ سـؤال: وأيـن أهلـك أنـت مـن كل ذلـك؟! لكـن الإجابـة أسـهل مـن طـرح سـؤالك؛ فأنـا يتيـم

الأب وأمّـي امـرأة طيبـة لا يهمهـا مـن الدنيـا إلّا سـعادة أبنائهـا: أنـا وأخويـا الصغـير، الـذي يـدرس الآن في كليـة التجـارة في عامـه الأول. فكنـت أكابـد هنـا وهنـاك. وبـين مخالـب الدهـر وزراياه كانـت تـئنُ أمّـي صمتًـا وتـذرفُ دمعًـا لا أراه لكنـي أحسـه وأشـعر بقطراتـه المنهمـرة. وبعـد فـترة أمكننـي اللـه عزوجـل أن أوفـر مبلغًـا مـن المـال كي نشـتري بنصفـه الباقـي مـن الشـبكة؛ فلـم أشـتري في بدايـة الأمـر شـبكةً كاملـة، والنصـف الأخـر أدفعـه مقـدم شـقةٍ للإيجـار! بَـانَ لنـا ذلـك أمـرًا مبـشِّرًا وداعيًـا للفرحـة وجالبًـا للـسرور، ولكـن.. قـد تجـري الأمـور بمـا لا تشـتهيه القلـوب!

لم توافـق أمّهـا عـلى إيجـار الشـقة لأنّنـا بعـد فـترة وجيـزة سـنبحث عـن غيرهـا وننقـل الأثـاث بالكامـل وداوليـك...

وكانـت هـي تقـاوم وتقـف جنبـي وتكابـد مـن تلقـاه مـن شـدةٍ، وكـما يقولـون: «الـزّن عـلى الـودان!» فهـو كـما تعلمـين أمـرّ مـن السـحر! نعـم كانـت تحبنـي كـما أحبّهـا ولذلـك تحملـت في سـبيل الحفـاظ عليهـا مـا كاد يخـسرني وظيفتـي في الكليـة؛ فقـد كان الإرهـاق يحـاصرني ليـل نهـار، والتركيـز يجافينـي أحيانًـا، قـد يضطـرني إلى إعطـاء معلومـةٍ غـير صحيحـة أو ليسـت عـلى قـدر كافي مـن الصحـة فـأضر مسـاكينَ وثقـوا بي. وكانـت هـي أفضـل حظًـا منـي؛ كانـت تشـكو وتـصرخ في وجهـي بمـا يمتلـئ بـه قلبهـا ولا أملـك إلّا أن أسـمع وأطيـب خاطرهـا وأشـخذ عزيمتهـا، لطالمـا كنـت أنـا السـبب في حالنـا، وإن كنـتُ لسـت السـبب وهأنـا، الآن، أحـاول أن أفعـل كل مـا تملكـه يـداي ومـا لا تملـك. فكنـت أحـيرَ مـن الدمعـة التـي تسـكن مقلتـي، يمنعهـا الحيـاءُ ويدفعهـا الحـب. ووجـدت أن الكـون ظـلامٌ دامـسٌ، ومـاديـة تسـتقر في قاعـه، وإنسـانيةٌ انتزعـت مـن جِنانـه. قـرأت إحـدي المـرات أنّ فيلسـوفًا كانـت يمسـك في يـده مصباحًـا، يسـير بـه في وضـح النهـار، فلـمّا سُـئل عـمّا يفعـل بـه، قـال: « أفتـش عـن إنسـانٍ!» حينهـا رأيـتُ أنّـه قـد يكـون مبالغًـا، ولكنّـي اليـوم أجـد نفـسي

هـذا الفيلسـوف؛ أبحـث عـن إنسـانٍ، وإن كان قـد وقـع منّـي مصباحـي!

مـرّت الأيـامُ متواليـة بـين كـدرٍ وفـرجٍ، واكتئـابٍ وسرورٍ، وهـمٍّ وحبـورٍ...

وفي يـومٍ وجـدتُ أنّ مسـتقبلي الأكاديمـي والتربـوي يتفلـتُ مـن بـين أصابعـي، فقـررت أن أتوقـف عـن الـدروس والذهاب إلى المراكـز إلى أن أتمكـن مـن إلمـام مـا فاتنـي وإصلاح حـالي. فلـو أكملـتُ سـتضيع منّـي لأنّي سـأخسر وظيفتـي ودراسـتي، وإن أوقفـتُ الـدروس ربنـا أعلـم والدتهـا هتقـول أيـه؟!

حتـى اتصلـت بهـا ذات مـرة، فوجـدت والدتهـا تـرد عـليَّ قائلـة: تعـالى خـد حاجتـك يـا بنـي علشـان ولا نظلمـك ولا تظلمنـا... ولمـا سـألتُ عـلي هيـام قالـت بأنّهـا نائمـة ولـن تكلمنـي ثانيـة، وكل واحـد يـروح لحالـه!!

ولا أعـرف هـل سـتصدقيني أم لا إذا قلـتُ لـكِ: أنّ لا أتذكـر هـل أخـذت «حاجـاتي» أم لا! بيـد أنّي أعـرف أنّهـا، هيـام، لا تـزال في مخيلتـي وتتربـع فـوق عـرش قلبـي، ويهيـم بطيفهـا ذهنـي؛ إنّهـا هيـام!! ولكـن، كـما يقولـون: مـا باليـد حيلـة. مـضى عـلى انفصالنـا الإجبـاري ثلاثـة أشـهر لا أعـرف عنهـا شـيئًا غـير أنّي أراهـا في عبـق «البرفـان» التـي أهدتـه لي ذات مـرة في عيـد ميـلادي والـذي اسـتدعى كل ذلـك وضايقـك أنـتِ كذلك.

بـل إنّ أول مـرة وضعـت منـه عـلى يـدي لأشـمّه وتعـرف رأيـي به، لا تزال عالقة بين قلبي وعقلي وساكنة في أنفي...

لا يزال عطره في يدي

.....

.....

لا أعرف ماذا أقولُ لك

يكفيك أنّك كنتَ مقاتل في ساحة الحب في زمن «داسوا» فيه على أخلاق الفروسية.. وهتكوا عرض الفضيلة.. وخنقوا الحب وشنقوا الشوق.. وزعموا الأخلاق.. لا تحزن.. ويعزّيك حرصها عليك ويريحك حرصك وحبك لها في أوجاعك...

ولكني سأقول لك ما سبب عدم تحملي للبرفان الخاص بك أو بها! فكما قلتُ لك: لكل منّا أسرار تجعله يندهش أحيانًا من نفسه قبل اندهاش الأخرين منه.. فالواحد منّا ما هو غير سر؛ سر بين أمّه وأبيه وُلِد، وسر بينه وبين الناس عاش، وسر بينه وبين الموت مات! الإنسان سر! الإنسان كلمة!

أمّا أنا.. فطالبة في العام السادس في كلية الطب جامعة القاهرة. لم أكن أعرف في حياتي سوى الدراسة والكلية وطموحي أن أكون طبيبة ناجحة ومشهورة؛ وحبست نفسي في قمقم حياتي وأحكمت الأقفال حتى لا يتسرب أحد إليه.

لن أُطيل عليك..

وصلت لعامي الخامس في الكلية ولم أعرف غير صديقاتي والقليل من زملاء الدراسة الذين لا تربطني بهم صلة سوى حرم الجامعة وقاعات المحاضرات والمعامل وبعض القوافل الطبية التي كنّا نعدها.

وحينها.. قررتُ أن أفكر في الإرتباط وكان ذلك نتيجة لكلام أمّي عن رغبتها في أن تراني عروسة وتحضر فرحي وتشيل عيالي بالطبع! هل كنتُ مقتنعة؟ ربما! ولكنه حدث، وسمحت بحيز قليل لتعرف على بعض الزملاء ممن أراهم على أخلاق ومستوى مقبول من الثقافة.

قابلتُ «خالد» وتعرفت عليه وتعرف علي.. بدأت خيوط الحب الواهية تفتل حبالها الفَتية، ويزداد الشوق في القلب وتتعاظم

كوامـن الاحتـواء.. إلى أن اسـتأذن لي بـأي يأخـذ رقـم والـدي؛ لأن والـده سـيتحدث معـه!

فأعطيتـه لـه.. وبعـد يومـين، جـاءني والـدي ليعلمنـي أنّ والـده طلـب منـه يـدي!

بالتأكيد وافقت...

مضـت الأيـام في دورتهـا عـلى خـيرٍ وفي سـلام. وكنـت كل يـوم أحبـه أكـثر ويتعلـق هـو بي أكـثر.. وأخذنـا نرسـم أيامنـا وأحلامنـا ونسـمي أولادنـا ونسـكن بيتنـا في خيالنـا، ونهجـر أحزاننـا ونفـر مـن أوجاعنـا. حتـى أن كل منّـا بـات لا يطيـق الصـبر يومًـا واحـدًا في غيـاب، ولا نمـل مـن تواعـد في البيـت أو اصطحـاب في الكليـة.

بصراحة.. كانت الحياة جميلة وكنتُ سعيدة!

إلى أن حـدث شيء أغـرب مـا يكـون وأقـرب للكابـوس منـه إلى الواقـع: طلـب والـده منـه أن يتركنـي! ويرتبـط بواحـدة أفضـل وتكـون أجمـل! وهـو اختـار لـه واحـدة خـلاص!!

(تنهيدة طويلة)

وبعـد محـاولات مسـتميتة منـه ومنّـي لم أخـظّ سـوى بخيبـة الأمل وانكسار الروح.. وفقدان البهجة والفرحة.

انفصلنـا في ألم ووجـع بكلمـة مـن والـده، كـما ارتبطنـا في أمـل وفـرح بكلمـة منـه!

ثـمّ بعـد فـترة وجيـزة.. وبعـد مكابـدة الأشـباح القاطنـة بداخـلي، سـمعت صـوت والـده في الهاتـف؛ يخـبرني أنّ «خالـد» صدمتـه سـيارة وهـو الآن في العنايـة المركـزة ولا ينطـق سـوى باسـمي!

هرعـت إلى المستشـفى وجلسـتُ بجـواره ولا أكاد أراه مـن فـرط غـزارة دموعـي.. وأشُـدّ عـلى يديـه في ضعـفٍ وخيبـة وعجـز وانهـزام وألم...

لم يفق إلّا بعد يومين...

حينها نظر لي وقال: سامحيني.. لكن أنا عمري ما حبيت غيرك والحمد لله مش هحب غيرك!!

وقال محاولًا الإبتسامة عايز أقولك حاجة واحدة بس: أغازل نسمات الهواء وهي لا تدري أنّكِ المقصودة.. وأناجي السماء ولا تعرف أنّكِ المرجوة... وابتسم في المرآة ولا تعرف أنّكِ المَدْعُوّةُ...

لم يكمل كلامه الذي كان دومًا يردده على أذني.. حتى شعرتُ بيده تنسل من بين أصابعي!!!

وانسلت الفرحة من قلبي معه

مات

أيوه.. للأسف...

لم أعطه مثلك هذا البرفان الذي تضعه، ولكنّه كان نوعه المفضل وحتى عندما فاق في المستشفى أحضرته له ووضعتُ له منه! وكنتُ أمسك يده وأضغط عليها.. حتى تعرق يدي بين أصابعه، وانتقل البرفان لِيّدّيْ ومن حينها لا يزال عطره في يدي...

لا يزال عطره في يدي

تنهيدة

تنهيدة منّي.. ونظرتُ إليها في حزن العاجز المُدرك لهول القول والموقف، وفي زمجرة المغتاظين، و أَسَى الناقمين، وقلتُ لها: يكفيكِ أنّكِ كنتِ عابدة في محراب الحب في زمن «داسوا» فيه على أخلاق الفروسية.. وهتكوا عرض الفضيلة.. وخنقوا الحب وشنقوا الشوق.. وزعموا الأخلاق.

أنا أسف.. وسامحيني..

استأذنتها، ونزلتُ من «الميني باص» وأنا أعرف أنّ مقصدي لم يأتِ بعد؛ ولكنّي شعرتُ بضرورة الاحساس وتركها لتهدأ وكذلك لم

أرغــب في أنّ تشــمَّ البرفــان أكــثر مــن ذلــك...

****

obeikan.com

رسالة من غانية

كتبت إليَّ تقول:

«سيدي.. لقد قرأتُ قصتك التي كتبتها بعنوان:»لواعج الليل»، وقرأت كل تفصيلة فيها ووقفتُ عند كل فصلة بين سطورها، كما اعتدتُ عند متابعة ما تنشره من قصصٍ قصيرة كل أسبوعٍ أو ما تسطره كل يوم في جرنالك الموقر!

تتلخص قصتك في استحضار حياة «غانية» من مكانها على الورق.. وكنت تنشر مع حروفها مهاجمتك لتلك النوعية من البشر والتي كدت أشعر وأنا أقرأ أنك تراهم من درجة أقل من الحيوانات! فإذا كانت الحيوانات تحكمهم الشهوة؛ فذلك لأنهم بلا عقل ولا حدس، وكذلك خلقهم الله، أمّا الإنسان فخُلق بعقلٍ وقلبٍ وحدٍ ووعيٍ ولا حجة له ليترك أداميته وينزل إلى ما يساوي الحيوانات وإذا فعل فهو أقل بالتأكيد. لقد كتبت تقول: أنّ المرأة تميل إلى الدُنيّة في كل شيء، غالبًا، وأنّها دائمًا ما ترنو إلى ما هو ممنوعٌ أو مُحرّم؛ ظنًا منها بأفضاليته، واستدللتَ بقصة أدم وحواء وككل الرجال ألقيت اللوم والعتاب على أمّنا حواء وأنّها السبب في هذا الشقاء الذي نحياه... أي أنّك جعلت المرأة قالب الفتنة، ومرقد المحرمات، ومكمن الأكاذيب والافتراءات. وانتقلت قصتك بعد ذلك إلى تفاصيل دونيّة الغواني، وأنت معذور بكل تأكيد...

ولذلك اسمح لي يا سيدي أن أرد على قصتك أو رسالتك، وردي سيكون من الدرجة الأولى لأني امرأة ومن ناحية أخرى لأنني واحدة ممن أساءت أنوثتها إلى المرأة!!

أنت تعرفني بالفعل ولكن لا يمكنني أن أقول: تعرفني جيدًا؛ فأنا دائمًا أراقبك من بعيد.. أقرأ سطورك فأعرفك أكثر، أراك من بعيد فأقترب منك.. أسمعك في حوارٍ فأحفظه عن ظهر قلب... أنا يا

سيدي للأسف واحدة ممن كتبت قصتك تلعنهم وتصب عليهم العذاب مجمّعًا ومفرّقًا.. نعم.. أنا المنعوتة بالغانية!! ولذلك شعرتُ بضرورة الرد على كلامك وتوضيح الأمر أكثر للقارئ الذي وعدته، أنت، بإكمال القصة وخلطها بتفاصيل من أرض الواقع؛ فأردتُ أن أوفر عليك تعبك وأمُدكَ بتلك التفاصيل التي تحتاجها وكذلك أُكمل لك قصتك بطريقة واقعية لا تَمُتُ للخيال بأية صلة.

«من عشر سنين كنت عروسًا حالمة هائمة على وجهها في حقل الرومانسية، عاشقة للطبيعة، أسبح عند أعالي الأشجار، وأخطو الهوينى في عالم الخيال.. أملأ الأذن بابتهالات الأمل في المستقبل ونضارة الحياة واعتدال حالها، وأنّها ستروق يومًا. مقبلة على الحياة، حاضنة لها من فرط تعلقي بها. يكفيني لأنتشي أن أفتح نوافذ عقلي وصدري على تلك الحقول الخضراء في داخلي، ويغمرني الرضا. ولكن... لم تشأ الحياة على استمرار خيالاتي والسعي لتحقيقها. ويكفيك ذلك لتتعرف على القصة بأكملها، ولا داعي أن أزعجك بسردها؛ فأنت تعرفها جيدًا وقرأتها كثيرًا وشاهدتها على شاشات التليفزيون مرارًا وتكرارًا. تعرف أن السبب هو أبٌ تجرد من المسئولية، ليهيم على وجهه سعيًا وراء شهواته وملذاته، تاركًا خلفه زوجة مسكينة مستكينة وابنة لا تزال في أولى خطواتها على سلم العلم والرقي؛ كنت في الصف الأول الثانوي وقتها! ولم يكن لنا غير الله معين وليس هناك بديلٌ غير أن أترك دراستي وأعمل لإطعام أمي ونفسي.. وبعد سنة كلها تعب وكدر وشقاء، ماتت أمي! واسودت الحياة أكثر! ويكفيك ذلك لتكمل أنت الباقي، وأنا أأكد لك أنّ كل ما سيبادر إلى ذهنك قد حدث ووقع وطحنني تحت ضروسه وألقاني من فوق جباله.»

بالمناسبة.. لا أقول لك ذلك دليلًا على أنّ الظروف دائمًا هي السبب أو أنّنا لا شك ضحايا الحياة القاسية وإن كانت كذلك، لكن على

الأقل هي، الحياة، تقوي شوكة الشدة، وتعزز الفتنة، والإنسان ضعيف ويحتاج لكل شيء! يحتاج إلى الطعام والشراب، والراحة والحنان، والحب والاحتواء، والأمان والطمأنينة وكلها مغريات. فكل ما أطالبك به ليس أن تحاكم الظروف ولا حتى أن تعفو عن المُسيء، ولكن أن تنظر إليه نظرة أدق وتعرف أنّه ليس هناك أحدٌ يريد أن يصبح مجرمًا. ارحمه يا سيدي، ارحمني! تعرف على ضعفه واضمم احتياجاته إليك وستجد ما تعجب له كل العجب. ستنكشف الرؤية، وتتضح السريرة، وتنزاح الغُمّة. إنّ الخير جوانا جميعًا يقبع في خبايا نفوسنا... وإن بان لنا غير ذلك. فكل منّا يقوم بمحاولات للحياة على ظهر الحياة وهناك من يصيب في محاولاته وكذلك من يخطأ. ومصيبتنا الحقيقية أنّنا لا نعطي الفرصة لبعضنا البعض، وكل ينهش في الأخر؛ وكأنّه سيأكل نصيبه أو يأخذ مكانه.

دعني أثبت لك ذلك وأصدمك كثيرًا أو قليلًا. بالطبع تعرف تلك الفتاة التي إلتقيتَ بها في إحدى الحدائق، وجلست إليها تتغزل في جمالها، وتثني على براءتها وصفائها، وقلت بأنّه لا ينبغي لها أن تعيش في هذا المجتمع الفاسد القاسي وأنّك يخيل لك أنّها حورية! أو راهبة في صومعة لم تخرج منها غير الآن! هي أنا! نعم.. أنا.. هي تلك الغانية التي شهوت طبيعتها وقضيت على ملامح أداميتها، وألقيتها في الدرك الأسفل في نار المجتمع والناس وحكمت عليها بالعذاب الأبدي. لقد خرجت يومها محاولةً التفلت من تلك الوتيرة التي أعيشها كل يوم وأن أشم هواءًا غير رائحة حقيقتي التي تنفر منها الناس! لقد أردتُ أن أفرح وأنسى الذي سيجيء بالليل ككل يوم. أريد أن أطير بعيدًا، فأنا امرأة يا سيدي. والمرأة بطبيعتها تعشق الطيران.. مغرمة بالقفز حتى دون أن تعرف ما ستؤول إليه تلك القفزة، المهم أن تتحرر من قيودها وتنسى كل العوائق. بالتأكيد، تذكر تلك المرة

التي عزمتني على الملاهي فيها وأنت تعتقد أنّي هذه الحورية، وقتها رأيت أنّ أكثر من يركب الألعاب الخطرة والمجنونة فتيات وزوجات في بعض الأحيان دون أزوجهن! حتى أنت لم تركب وقتها وركبتُ أنا تلك الألعاب. وانتقدهنّ بقولك: طالما أنّكنّ تصرخن فَلِمَ تفضلن تلك الألعاب؟ وقلتُ لك: أنّ الواحدة منّا تحب الصراخ دائمًا، في فرحها.. وخوفها.. وضيقها.. ونشوتها.. وحبها.. وكل حالاتها. لكنّي لم أقُل لك وقتها: مثلي الآن؛ فأنا أصرخ فرحًا لأنّي معك، وحزنًا مما سيحدث عندما تعرف حقيقتي، وحبًا لك.. ونشوةً بكل ذلك.

كُنْتَ قد كتبتَ مقالًا بعنوان:»كلنا سيزيف» وقد قرأته وأعجبني فأوجعني وأراحني؛ أوجعني لأنه يشبهني وذكرني بما أقنعتُ نفسي بأني نسيته، وأراحني لأنّي عرفتُ معاناتي ووجدتها عندنا كلنا وإن كانت في أثوابٍ مختلفة. ولكنك تلك المرة، أخرجت نفسك من دائرة «سيزيف وحاشيته» وانحشرتَ بين الآلهة؛ فكنت إلهًا، فحكمت وعذبت وقررت الهوان عليَّ وعلى المرأة إلى الأبد.

تعرف.. وأنّ لك أن تعرف: أنا راهبة كما كنت تظنني عندما لاقيتني! راهبةٌ في صومعة هجيع الليل ودير الخرافات وكنيسة مسلوبي الإرداة. بالليل أرى الجميع بوضوح وأتعرف على كل ما يخفونه على أقرب الناس إليهم؛ أضعهم تحت ميكرسكوب فقدان الوعي والهذيان أو بمعنى أدق هم من يضعون أنفسهم تحته. أرى الناقمين والحاسدين والكارهين والمحبين. الكل يعترف لا إراديًا ودون أن نطلب، بل هم من يلحون علينا لنسمع لهم ونمسح دموعهم. إنّ هذا العالم لا يعرف دموع التماسيح! رأيتُ صخور القمر على حقيقتها.. ولامستُ شوك الورد.. وأدركتُ خيبة الآمال، رأيت الناس. اتضح لي كم نحن معذبون، ومنافقون، متظاهرون طول الوقت: نتظاهر بالسعادة ونحن ننهار.. وبالحب والقلوب تغلي بالكراهية.. ونتفنن في إعلان الصداقة

حتى يحين وقت الضربة الملائمة. أي أنّني رأيت حجمنا الطبيعي وطبيعتنا المخيفة. تيقنتُ أنّنا صغارٌ أمام الخوف والحب والفراق والألم والحسد.. نحن مساكين!

وأنت كذلك. تأتي إلى «البار» وتشرب في نهمٍ لتنسى وكنتُ وقتها أراقبك من بعيد؛ فأنا دائمًا أراكَ من بعيد حتى وأنا بجوارك، أراكَ بعين واحدة غيري. لكنّك كنت تكابر ولا تعترف وتخرج كما جئتَ. بيد أنّك اعترفتَ لي عندما ظننتني ملاكًا؛ فنحن نحب المظاهر ونُغرم بخداعها، فهي طبيعتنا. قُلتَ: أنّ حياتك ينقصها التي أحببتها ولم تَفُزْ بها؛ لأنّك كنت في بداية مشوارك ومقتبل عمرك. وأنّك تشعر بالكره للظروف والمجتمع القاسي، الذي تقف بجانبه الآن ضدنا، وأنّك في نفس الوقت تشعر بالذنب لأنّك تركتها ولو كان رغمًا عنك. بالضبط.. قصدتُ أن أعيد عليك ما لا تنساه إلا عندما تأتي إلينا. فلا تجعل حزنك يقودك إلى جنون الإنتقام من كل امرأة، ويجعلك ترى فيها جشع حماتك وحماك وحبيبتك!

لا أعرف كيف تطلقون على أنفسكم السلطة الرابعة في حين أنّكم تقومون مقام القضاه، وحجتكم أنّ الأدلة دامغة والتي بكل تأكيد يبدع المجتمع في خلقها وتلفيقها. أنت، من المفترض، أن تكون محاميًا في المقام الأول لتتقصى الحقائق وتتعرف على الغوامض وتكشف البواطن وتعرف الدوافع، فتصيب في قرارك. في بعض الأحيان يكون الإجرام ما هو إلا اضرامًا لنيران تكمن بداخل المجرم ومن يشعل فتيلها من تسمونه بالضحية. يا عزيزي كلنا ضحايّا!

وأمّا بالنسبة بأنّ المرأة هي مجمع الفتن والأهواء. فأنتم أيها الرجال كاذبون، ومراوغون، وضعفاء. الواحد منّكم يلهث وراء واحدةٍ منّا، وحينما تؤمن به وتأمن له وتطمئن على نفسها معه، لا تروق له وينظر إلى الخارج ويندهش كيف أنّه تسرع في حبها وسرعان ما

يتخلى عنها. فيرى الأخريات أجمل وأعقلها وأنسب منه. لا تغضب! إنّها الحقيقة, لكنّ الحقيقة دائمًا ما تثير غضبنا، وهذه المرة لا أريد فقط أن أثير غضبك بل أريد أن أصدمك لتفوق من غيبوبتك وتزيح غشاوة الأفضالية التي تضعها على عينك ككل الرجال. فأنتم تعاملوننا مثل السمك تمامًا؛ تلقون الطُعم وعندما نقع في شباككم من فرط جوعنا وتعبنا، تلقون اللوم علينا وأنّنا من جاء بنفسه إلي طُعمكم! يتلذذ الواحد منّكم وهو يرى دموع المرأة من أجله أو بين يديه؛ يشعر بالفوز والقوة وأنّه مرغوبٌ فيه. لا يا سيدي، نحن، النساء، لو بإيدينا لا نرغب فيكم أبدًا، ولكننا نرغب فيكم رغبة عنكم، أي نهرب منكم إليكم. كما أنّها الضرورة الكونية يا التي تجبرنا وتجبركم كذلك على الإرتباط بنا. والقصة التي استدللت بها على دونيتنا، أستدلُّ بها الآن على حاجتكم لنا. إنّ أبانا آدم لما خلق كان بحاجة لأنثى لحواء بجانبه فخلق الله سبحانه وتعالى حواءَ له. فأنتم من يحتاجُ لنا أكثر. لكنكم تحتالون على أنفسكم وتقولون بأنّ حياتكم أفضل بدوننا، وجربتم وفشلتم. كلكم بجماليون عندما هربتم من المرأة احتاجتم لها أكثر وزاد عشقكم لها. ولكنّكم تعشقون جمال جسدها وتركعون تحت قدم فتنتها، وتتجاهلون قلبها واحتياجها وحنانها. فأول شيء تقع عين الرجل عليه هو جسد المرأة التي أمامه. تعرف بأنّ بجماليون عندما عشق فنه وروحه دامت له «جلاثيا» وعندما هامَ بجسدها حطمها بنفسه ولم يطق البقاء معها. ولا تقول لا لما أقول لك؛ إنّ خطابي مثل الشجرة التي أكل منها آدم وحواء وسقطت عنهما ملابسهما. وبكلامي أعرِّيك أمامي وأعرِّي نفسي أمامك وأعرِّي المجتمع في صورتنا. والفرق أنّ هذه المرة العريَّ عريًّا فكريًا وداخليًّا. لنعرف أنّنا سواء وأنّنا أولاد آدم وحواء...

وفي النهاية، أعتذر لك على إطالتي ولكنّ اللوم قد تفاقم والهجوم

قـد اشـتدَّ وتعاظـم عـلى المـرأة وقـد جـاء الوقـت الـذي نـرد فيـه. كـما أنّ الضحيـة ملعونـة في ثـوب المجـرم، والتـي جـاءت هـذه المـرة في صـورتي.. صـورة غانيـة، والمجـرم «يتمخطـر» في ثـوب العـروس يـوم زفافهـا، وقـد أوجعنـي كلامـك فـأردتُ أن أوضـح لـك الحقيقـة وكـما قلـتُ لـك: أوفـر لـك مجهـودًا يزيـد ممـن يتابعـون كتاباتـك. أحببـتُ أن أُلفـتَ الأنظـار أنّ ثمـة آثمـون يُجْـبَرُوْنِ عـلى السـقوط في شِراك غيرهـم، والانحـراف عـن أحلامهـم بعدمـا يطفئـون أعقـاب سـجائرهم في جسـد أمانيهـم وخيالاتهم. وقـد كتبـتُ لـك تلـك السـطور وأنـا أعـرف أنّهـا لـن تـروق لـك وقـد يكـون مصيرهـا التمزيـق؛ وذلـك لسـببين: أنّـك عرفتنـي عـلى حقيقتـي، وأنّهـا رسـالة مـن غانيـة!!

obeikan.com

obeikan.com

تنهدت أمي وقالت...

«تنهدت أمي وقالت: لا ترهق نفسك، وتبدد جهدك يا ولدي؛ فالخلق يهرعون إلى خلق القصص والنوادر حينما يرهقهم واقعهم. يا بني، إنهم لا يفهمون ولكنهم يتحدثون.. ولا يترددون في نقل ما يصل إليهم؛ طالما يكفي لإثارة غيرهم. ولكن حسبك منهم أن تنقل لهم الكلمة الطيبة، ولا تسمع الخبيثة، ولو أُجبرت عليها: فلا تنقلها!!»

«قالت: لن ينفعك بعد العلم يا ولدي، إلا أنا تصاحب الأخيار والعلماء.. فهم أهله وخاصته وستُرفع معهم إلى أعلى المقامات. وأنا صغيرة يا ضنايا، كان أبي حينما يجد أن أمي قد ضربتني وأنا أبكي، يقول لي: تعالي معايا نروح نصلي يلا ونسيبها! كنت أذهب معه، وأقف بجانبه في الصف الأول وأنا (بنت) ووراي من الرجال الكبار الكثير! لذلك إذا لم تكن من أهل العلم، فاحرص على مرافقتهم»

«قالت أمي: حينما تريد أن ترتبط، قبل أن تفكر في شيء.. ضع القواعد التي تريد أن تُحترم بينكما ويقوم البيت عليها؛ فالحب يدعمه الاحترام، والاحترام يولد من الثقة.. والثقة تولد من احترام تلك القواعد!...»

«من أخطائنا في الحب: أننا نفرط في المشاعر.. متناسين تمامًا فهم الطرف الأخر كما ينبغي. لذلك، قد يتعرقل الحب في الطريق و لا نملك إلا الدهشة عندئذ. متسائلين لماذا؟! لا تضع عقلك مكان قلبك وقلبك مكان عقلك يا ولدي.. فلا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.»

«... لا ترهق نفسك يا ولدي! إنها حقيقة كونية راسخة، ولا يمكنك زعزعتها. لا بُد من التغير. فما كنت عليه البارحة لا تستطيع أن تكون عليه اليوم تمامًا.. وما ستكون عليه اليوم لن تكون عليه غداً!.. ثمة أشياء في حياتنا لا مفر من أن تتبدل. لتعلم يا حبيبي أن الكون بُنيَ

عـلى التبايـن والاختـلاف!.. ولا يوجـد شـئ لا يتغـير سـوى التغـير ذاتـه!!»
«...إنهـا الطبيعـة. نحـن عندمـا نريـد أن نثبـت أفضليتنـا عـلى الأخريـن، نجردهـم مـن محاسـنهم، نخلـع عنهـم أيـة فضيلـة.. لـن أقـول لـك قـولاً تقليديًـا: أننـا نرتـدي نظـارة سـوداء عندئـذ!.. بـل إن أعيوننـا ذاتهـا لا تـرى إلا سـوادً.. ولا يعـرف لسـاننا إلا النقـد الهـدّام!.. لـذا لا تعجـب يـا بنـي حينـما ينقصـك الخلـق قـدرك ويرمونـك بمـا ليـس فيـك.»
«ليسـت الرجولـة أن تكـون اليـد التـى تُبـكى فتـاة؛ إنهـا أن تكـون اليـد التـي تمسـح الدمـوع إذا نزلـت!!»
«صحيـح المشـاكل مُّـرة، لكنهـا كالقهـوة؛ أحيانًـا تكـون بحاجـة لهـا؛ لتفتـح أعيونًـا عـلى أشـياءٍ لا نراهـا بوضـوح!!»
«إياك يا ولدي أن تنسى أنّ كلمة «الرجولة» نفسها مؤنثة!!»
«النـاس فى يـدك كالكتـاب بـين أصابعـك، لا تغـتر بعنوانـه أو تتسـرع فى الحكـم عليـه مـن عنوانـه، فلابـد أن تتصفـح صفحاتـه ولكـن دون انجـراف أو غـوص زائـد حتـى تصـل لصفحـه فيـه هـى التـى سـتقول لـك أكمـل قـراءة أو قـف.. كـن ناقـدا محايـدًا!!»
«لا تكن وسط الكثير كالكثير؛ ولكن كن وسطهم بالكثير!!»
«إيـاك أن تكـذب عـلى نفسـك؛ فصدقـك مـع نفسـك ومصراحتهـا يُجـبرك عـلى الصـدق مـع الأخريـن!!»
«وسـط صراع الحيـاة قـد تضطـر إلى التنـازل عـن أشـياء للحفـاظ عـلى مـا هـو أولى منهـا، إيـاك إيـاك أن تفـرط في شـيئين: نفسـك.. وثانيًـا: نفسـك!!»
«في حزنـك، كـن كالقمـر؛ مـن يرنـو إليـه يكتفـي بجمالـه وضيائـه دون الالتفـات إلى الصخـور التـي تقطنـه!!»
«في فرحـك، كـن في عـدل الشـمس وصفـاء السـحاب ونقـاوة الليـل؛ فـلا تنـسى مـن وقفـوا بجانبـك في ظلمتـك!!»
«لا تبحـث عـن الحـب، فهـو مـن يبحـث عنـا وإذا انقلبـت الأيـة عُذّبـت

يـا ولـدي.. وأعـوذ باللـه أن يكـون عذابـك حبًّا!!»
«نصيحة من امرأة: لا تنظر إلى امرأة بعينك!!»
«في الحب والحياة البقاء للأصدق.. أما الأقوى فقانونه الغابة!!»
«لا تجعـل عضلاتـك تتحكـم في عقلـك، ولكـن لا بـد لعقلـك أن يسـيطر عـلى قوتـك!!»
«ضـع في حسـبانك، أن معاملتـك لزوجتـك وصـف لتربيتـي لـك، فـلا تجعـل أحـد يـسيء الظـن بي!!»
«قُل لأولادك ما أقوله لك!!»
«لا تتـزوج.. لا تتـزوج مـن امرأتـين: واحـدة تحبـك ولا تحبهـا، والأخـرى تحبهـا ولا تحبـك؛ فـالأولى تكـون قاتلهـا، وقتـل القلـوب شـديد الوطـأة في عقابـه، والثانيـة تكـون ضحيتهـا ولا أرضى لـك أن تصبـح ضحيـة امـرأة!!»
«صحيـح أن المـرأة خلقـت مـن ضلـع آدم، ولكـن ذلـك الضلـع لم يخلـق سـوى لحـواء!!»
«إيـاك أن تتـزوج امـرأة مثقفـة وأنـت لا تعلوهـا في ثقافتهـا، لا أقـول تقاربهـا!!»
«احـذر.. احـذر مـن قـول «نعـم» أو «موافـق» والموقـف يسـتدعي الرفـض.. أعـوذك أن تكـون مـن النادمـين!!»
«شـيئين لا تتركهـما في ظعنـك وإقامتـك مـع كتـاب اللـه: قلـم وكتـاب تقـرأه!!»
«كن دائمًا مجمع أحزان الناس وأحزانك كذلك!!»
«لا تأكل طعامًا لا تستسيغه ولا تجلس بجوار شخصٍ لا تحبه!!»
«لا تكن متبلد المشاعر ولا تكن مفرط الإحساس، مُغرق في نوازعك!!»
«كل كلمـة أقولهـا لـك دفعـتُ ثمنهـا باهظًـا فـلا تنسـها ولا تلقهـا في صنـدوق بقايـاك!!»
«اشـخذ روحـك بكتـاب اللـه، وعقلـك بالقـراءة، وصحتـك بالطعـام المفيـد،

وقلبك بالحب الصادق!!»

«لا تنتظر ثناء الناس عليك، واثنِ أنت على نفسك واعطها حقها كما ترى!!»

«غدًا.. كلمة لا تقلق بشأنها بل عشْ من أجلها وبها!!»

«لا تنسى حينما تهاجر من مرحلة إلى أخرى في حياتك: المؤاخاة بين قلبك وعقلك!!»

«إياك أن تنساني ووالدك في دوامات الحياة؛ فغدًا تأتي لنا وتنتظر أولادك يا ولدي_بعد عمرٍ طويل!!»

«كن أنت في أغلب الأوقات اليد العليا وليست السفلى، يا ولدي!!»

«احترس أن تتحول علاقاتك بمن تعرف إلى كونها كالمياة الراكدة في مستنقع يأنف المار أن ينظر إليه!!»

«لا تعرف اليأس ولا تأمن الأمل!!»

«احلم بأحلامك قبل أن تحلمها؛ للتتأكد من قبليتها للحلم!!»

«لا تنسَ أصلك؛ فالشجرة التي لا جِذر لها واهية في وجه الرياح ومهددة بهبوب العواصف!!»

«تأكد أنّك عندما تحلُ على مكانٍ أنّك تركت أثرًا طيبًا، على الأقل رائحة عطرك!!»

«تنهدت أمي وقالت: لا يأسرك من الأخرين منظرهم ولا إبتسامتهم في وجهك عندك لقائك؛ فكم من وجوهٍ ابتسمت والقلوب تئن نفاقًا وبغضًا... فهؤلاء حيثما أقبلوا عكف الظلام، وكآبة الفناء، وانجلت سوانح الأحزان!!

«القرآن نوعان: مقروء ومنظور؛ وأنت في قراءة القرآن يجب ألّا تسبق نظرتك الآية التي تقرأها، وكذلك في المنظور يا ولدي لا تجعل عقلك «يشطح» أو شهوتك تتعداك إلى أبعد مما يجب أن تراه. القرآن المنظور هو الحياة.. الكون.. الخلق.. أنت!!»

«لا تعتمد كل الاعتماد على الحياة أو الطبيعة في إيمانك؛ فهي مليئة بالتناقضات: بالنقص والتمام، الظلم والعدل، الحب والكره، الإيمان والكفر والإلحاد، الضعف والقوة، الرجل والمرأة، الشاب والشيخ، أنا وأنت.. اعتمد على نفسك وداخلك فهو منبع الكون!!»

«لن يمكنك أن تجحد فضل وجمال كل شيء حولك، فاعترف به من باب أولى وأفضل لك!!»

«عش للناس ولا تنسى نفسك.. وعش للنفسك دون أن تنسى الناس!!»

«لا تحاول أن تعرف كل شيء حولك؛ فليس لك من الأمر شيء!!»

«أتعتقد أنّكَ ستموت بعد أحد؟!، إذن فَلِمَ تتوقع من الأخرين الموت بعدك؟!»

«الحب لا يعني الإقطاعي العاطفي، والرجولة ليست السيطرة الملعونة.. إنهما الاحتواء!!»

«إذا لم تكن تعرف كيف تكون أبًا لأولادك؛ فقد أعطاك الله فرصة لتتعلم في معاملة زوجتك!!»

«إياك أن تتخلى عن أحلامك وتقف «متفرجًا» بحسرة على الذين يحققون أهدافهم وينجزون أحلامهم؛ الكون كله من حولك يتحرك ويتجدد، فتحرك معه وجدد حماسك مع كل إطلالة لصباحه!!»

«لن أقول لك: لا تحزن! فمن منّا لا يحزن؟ كما أنّه إذا لم يحزن المرء على فقدان حبيبٍ أو فراق قريب، فعلى من يحزن؟! ولكن اجعل حزنك عادل ولا تنجرف في إرهاصاتٍ لا أساس لها وتوقعات مغالى فيها. يا بني، إنّ الحزن مثل لدغة النحل توجعك ولكنها مصدر الهنى في حياتنا.. فصوّب نظرتك على الشهد لينسيك اللدغة!!»

«إذا جاءك الفرح استضفه كضيفٍ عزيز عليك تود إطالة مدة إقامته معك، لكنّك تعرف بضرورة رحيله!!»

«سألتُ كثيرًا عن أمورٍ حين عرفتها ألمتني.. فلا تسأل عن أشياءٍ

فضوليّـة؛ فالفضـول عالـة عـلى مـا بـك!!»

«إذا أردت أن تُقسـم عـلى شيءٍ لم تتحقـق منـه وبيقـين: فاحلـف أنّـك لسـت أتعـس النـاس!!»

«لا تحاسـب مـن تحـب عـلى حياتـه قبـل ظهـورك؛ فـما كان اللـه ليعـذب قومًـا حتـى يُرسـل الرسـول!!»

«أعـذرني يـا ولـدي فيـما سـأقوله: عندمـا حملتـك في بطنـي، كنـت لا أريـد زيادتكـم طفـلًا آخـر.. وكان حملـك مرهقًـا ومتعبًـا جـدًا؛ ولكـن عندمـا جئـت أصبحـت سـندي وعـمادي. وأبثـك مـا لا أقولـه لغـيرك. كذلـك حياتنـا، مـا تخـاف منـه أو تكـره وجـوده، غالبًـا، يحمـل لـك قيمـة وخـيرًا تعرفـه فيـما بعـد.. فـلا تتسرع ولا تقنـط؛ إنّ اللـه يعلـم ونحـن لا نعلم!!»

«تأكـد.. أنّـك بعـد بعـدة أعـوام سـتقف محاسـبًا ومراجعًـا نفسـك سـائلًا إيّاهـا عـن أشـياء فعلتهـا وأخرهـا لم تفعلهـا. فليكـن مـا فعلتـه تشـجيعًا لـك ومـا لم تفعلـه دليـلٌ عـلى توفيـق ومعيـة مـن اللـه وحسـن اختيـار منـك!!»

okeikan.com

يا عزيزي كلنا نبكي

البكاء مثل الموت تمامًا، لم ولن يفلت منه أحد!!

الدموع هي ترجمة الإنسانية التي بداخلنا!!

في أغلب الأحيان، تكون الدموع دعوات صامتة صاعدة للسماء!!

نحن نضحك أمام الجميع، ولا نبكي إلا أمام القريب العزيز!!

لا أعتقد بأن الله خلق من عباده من لم يكتب له نصيبه من البكاء! ولو على أقل تقدير تلك الدموع التي تنزل عند نزوله للدنيا. أي أننا لا بد أن نبكي.. وسنبكي رغمًا عنا. تلك الدموع التي احتار في تفسيرها المتخصصون؛ فالأطباء يقولون: بأنها تنم عن سلامة الطفل وخلوه من أية إعاقة بدنية. وعلماء الدين يفسرونها: بأن الطفل يرى أنّ الدنيا ضيقة؛ فرحم أمّه أوسع منها. كما أنه في رحم أمّه كان يأكل دون تعب ولا كد، ويشرب متهنيًا ومرتاحًا.. أي نزل للقرف! أو بمعنى أخر سيحمل همَّ اليوم والغد.

لي وجهة نظر متواضعة في تلك القطرات المتساقطة في أوّل لحظات لنا في الحياة، فأنا أرى أنها القاعدة الأولى التي يجب إتقانها في رحلتنا الدنيوية.. ونعرف جيدًا أن البكاء سنة كونية ومحتومة على كلٍ منا. وكأن الله_سبحانه وتعالى_ يقول لنا: أنتم تبكون اليوم بلا سبب ولا داعي، وغدًا ستكثر الأسباب والدواعي، فلا تشعروا بأني بلوتكم بشيءٍ فوق طاقتكم. فالبكاء أول ما يصاحبكم في حياتكم.

الكثير حولنا يدعي للبكاء، حتى البشر أنفسهم تحولوا إلى مخلوقات مسيلة للدموع! ولكل منا طريقته الخاصة في البكاء وانهيار حبات الماء اللؤلؤية من عينية...

فهناك من يبكي في نومه؛ أي لو داهمه حزن أو قلق أو غم تجده يهرع إلى السرير، وكأنه يفضفض له ويقول له ما بداخله.. أو كأن السرير يحتضنه ويشعر به ويتكفل بكل ما يثقل على قلبه

ويرهق عقله... كما أن الأحلام أجمل من هذا الواقع المرير، يستطيع أن يأخذ فيها ما لا يستطيع.. ويشعر بما يبعد عنه.. ويتخلص مما يقلقه.. ليس وحيدًا في أحلامه، وإن كان الأمر لا يهمه بالقدر الكافي طالما أنه سعيد...

وهناك من يبكي بالصمت.. لا يحدث إلا نفسه؛ فهي الوحيدة الجديرة بحديثه.. كما أنه لن ينصت له أحد مثلها ولو أنصت أحد له، فلن يكون كما تنصت هي.. فالناس قد يرون الجرح الذي بك، لكنهم لن يشعروا بنفس ألمك الذي تعانيه... بل أحيانًا، يكون قد أعلن كفره بمن حوله، لأنهم السبب فيما به الآن.. ولن يخففوا عنه شيئًا.. فليذهب الناس إلى الجحيم!

وثمة نوع أخر يبكي على الورق، وأنا من ذلك النوع.. فقد استبدل الورق مكان المناديل والحبر بدلًا من أن يغسل وجهه. فيتحول نحيبه إلى حروف.. والحروف إلى كلمات.. والكلمات إلى جمل وعبارات.. والعبارات والجمل إلى صفحات.. يقرأها غيره ولا يشعر بها أحد سواه. فالحروف هي الدموع على الورق.

بل قد نجد نوعًا أخر يبكي وسط الناس؛ أي أنه يندس بينهم، ليختفي بينهم. فهو لا يحب أن يرى نفسه الآن. فقد فقد القدرة على الحديث حتى مع أقرب الناس له_نفسه. إنه يرى أحزانه كالصخر والناس كالبحر تمامًا، وهو يلقي بهذا الصخر في المياة ليغرق ولا يستطيع أن يطفو مرة أخرى. وحتى لو جذبه الصخر معه وأغرقه هو الأخر، فسيرتاح!

وهناك أنماط أخرى في طريقة حزنها وبكائها. فقد نجد من يأكل عند الحزن.. ومن يدخن السجائر.. ولي صديق لو تضايق، دخل وأخذ حمامًا باردًا وخرج «فرش» كما يقول! وأعرف كذلك شخصًا عندما يكون في ضيق: يأكل.. ويأكل!! ولكنّ هذا الشخص محظوظًا؛

لأنّه لا يزداد وزنه مهما تناول من الطعام. وبالطبع أعرف من يدخن بشراهة ولا يكاد يطفئ السيجارة حتى يشعل غيرها.

مع كل ذلك، فكل هؤلاء لا يبكون بسهولة ولا يستسلمون للبكاء في أول وهلة؛ فهم يقاومون لكنهم في تلك اللحظات تنهار قواهم وتخور قدرتهم.. فهم كما يقول أبو الطيب المتنبي في واحد من أروع أبياته:»قد كان يمنعني الحياء من البكا .. فاليوم يمنعه البكا أن يمنعا» بمعنى أخر وبلغتنا المتداولة «فاض به الكيل» تحمل الكثير وكتم بداخله الأكثر فلن يمنعه حياء ولا غيره من نزول دموعه. والمواقف تكون صعبة في تحملها والمفقود عزيز ونفيس، والقلب محترق والعقل مصدوم.. فلا تملك العين إلا أن تقوم بدورها وتخفف عن صاحبها. ولنا في رسول الله_ص_ أسوة حسنة في حادث وفاة ابنه إبراهيم. فالدموع رحمة من الله_عزوجل_ وضعها في قلوبنا. ولكن ليس معنى ذلك أن نستسلم للحزن ونتركه يسيطر على قلوبنا وعقولنا وبالتالي على حياتنا ككل.

صحيح، يزورنا الحزن رغم أنفنا، ولكنه لن يمكث عندنا إلا بإذننا! فلا تسمح له بالإقامة. وصدقني ما أقوله لك ليس بكلام روايات أو مجرد كتابة، فهو واقع وحقيقة. ومن عبث القدر بأني أكتب لك هذة الكلمات وأنا يخيم عليّ الحزن، ولكن دعني أقول لك: بأن كتابتي هذه هي نوع من المقاومة ورفض إقامة هذا الضيف الثقيل معي في حياتي!

والكاتب الكبير صامويل بيكيت يقول في مسرحية المأساوية الكوميديا:»في انتظار جودو» على لسان بُوزّو: إن دموع العالم كمية ثابتة. ففي مقابل كل من يبدأ البكاء، هناك في مكان ما شخص آخر يتوقف. وينطبق الأمر ذاته على الضحك.

والناس تنكشف مكنوناتهم عند البكاء أو الحزن: فترى القويُّ

الشامخ ينهار كطفلٍ يبحث عن أمّه، وتُدرك الآمر الناهي يتقهقر ويتزعزع عن الرد، وتجد البليغ الفصيح يتلعثم في كلامه... إلخ. فالحقيقة تخرج عند البكاء؛ لأنّه ينبع من داخلنا ويجلب معه كل ما يقبع في خبايانا.

وقبل أن أتركك تغوص في نفسك لدقائق، أود أن أقول لك: إنّ البكاء ليس بلاهة أو غباء مع علمنا الكامل بأن الدموع لا تفيد شيئًا ولا ترجع مفقودًا ولكنها تريحنا نحن.. تغسل همومنا وتبعد الآهات عن قلوبنا. وكما قلت لك سابقًا، كلنا نبكي يا عزيزي وكلنا نضحك بعدها كذلك... فلو بكيت اليوم، فانتظر أن تضحك غدًا.. والعكس قد يكون أحوط!

obeikan.com

يوميات «كفران»

«قلب موجوع .. وعقل مشتت... ونفس نادمة!»

«و بقيت بتنهد أكتر ما بتنفس ... وبنفخ أكتر ما بتكلم!»

«وبقيت بسمع عن الضحكة من الأخرين، وبقرأ عنها في الروايات والدواوين!»

«عندما أتمنى أن تدخل بداخلي؛ لترى ما يدور به.. أعدل عن تلك الفكرة؛ فلن تجد إلا ما يبكيك!»

«حلم ضائع.. وطموح خامل.. وعزم واهٍ.. تلك هي حالتي بعدك!»

«الحياة بعدك، وقت بدل ضائع؛ كلها توتر وقلق وخوف!»

«أنتِ.. ومن بعدك الطوفان!»

«الأمر إليكِ يا سيدتي؛ فالعفو سِمتكِ.. والخطأ وصمتي!»

«الأيام معك: ورود مبهجة.. وبدونك: أشواك جارحة!»

«حديثكِ: طارد للألم.. ونظرتكِ: خافضة لليأس.. ووجودكِ: قاتل للجزع!»

«ليتكِ تحسين بي عندما أشعر بأني كتحفة على مكتبك؛ لها أهمية ولكنها متروكة!!»

«الجحيم هو تجاهل أقرب شخص للقلب لك في حين أنت تزرعه بقلبك!!»

«كلما عاملتني كالغريب بعد كل كلمة حب بأن تقولي ربنا يخليك.. أتمنى ألا يفعل!!»

«الأول حاجة.. ودلوقتي حاجة تالتة؛ فهي حالة لا أفهمها!!»

«ما يقتنلي: أن الكل يعرف من أنتِ لي.. إلا أنا وأنتِ!!»

«أنا وأنتِ في كِفة، والكِفة الأخرى لا حاجة لنا بها!!»

«ثمة لحظات في حياتنا بعدها، نصبح أمواتًا تلعب دور الأحياء!!»

«لا أعرف.. كيف أكتب عنك، بعدما كنت أكتب لكِ!!»

«أكبر دليل على إن التفكير صعب أووووي؛ إن ربنا جعله من أسمى العبادات!!»

«الحب.. أحيانًا.. موت يغفله بريق الحياة!!»

«عرفت نفسي حين عرفتك.. ليتني لم أعرفها!!»

«لا زلت أحلم بكِ! استغفر الله! لا زلت أعيش معكِ!!»

«فرغ يومي بعدك! وامتلأ رأسي!!»

«لم أنسى يومًا.. لكني أكابر! دفنتُ نفسي بنفسي لنفسي!!»

«هي تذكرني بمثلث برمودة؛ كلما فكرت فيها.. اختفيتُ من نفسي!!»

«أنتظرك.. وتنتظرني.. ولن يأتي أيَ منا!!»

«لولا الحب ما طقنا الحياة، ولولا الفراق ما خشينا الحب!!»

«أحببتكِ مرغمًا.. وتركتكِ مرغمًا.. وهأنا _الآن_ أعيش بعدك مرغمًا!!»

«أرهقني حبك.. وقتلني بعدك!!»

«لا أعرف حتى الآن بأي حسنة رزقتكِ.. وبأي سيئة فقدتكِ؟!»

«عرفت الكتابة بكِ.. وأدمنتها عنكِ!!»

«للحب معجزات؛ أنتِ أولها!!»

«يمكن أن تعيش بلا حبيب ولكنك لن تحب دون تعب!!»

«الحب طفل يكبر بالمشاكل!!»

«جلست أكثر من ساعة أفكر فيما يدور بداخلي وماذا أخطُ عنه، فلم أكتب سوى ثلاثة أحرف:أنتِ!!»

«ليتني أستطيع أن أنام وأنا نائم؛ لأهرب منك في أحلامي!!»

«معك حق، الغروب هو الرحيل الوحيد الذي نحب أن نراه؛ وذلك لأننا نعلم جيدًا أننا سنراه قريبًا.. غدًا!!»

«... فجمعتُ أشلاء نفسي ورحلتُ!..»

«ليتني لدي ذاكرة سمكة حتى أراك وأنساك عندما تستدير!!»

«لحظة الفراق هي سكرات الحياة على قيد الحياة!!»

obeikan.com

«أقصى ما أتمناه من حياتي: أن تكون حياة!!»
«الحياة.. تلخصت في حرفين؛ ما تنتهي بهما:آة!!»
«نفسي أعيط وأطلع اللي حاسس به
لكن الدمعة بقت صعبة والقلب محروق
عيني قالت لي: اللي في قلبك عليه مقدرش!
وقلبي قال لي: عينك مرغرغة وأنا مستحملش!»
«قلبي شاف اللي عيني ما شافتهوش
حزن وآسى وناس على ناس بتدوس!
لازم تعرف إنك مش بس عن نفسك مسئول!
أنت كمان مسئول عن اللي قلبه لك بالحب مفروش!»
«ليته كان كابوسًا؛ فنحن دائمًا سرعان ما ننسى الكوابيس أو نعتبرها «تخاريف»، ولكنه كان حلمًا جميلًا ضائعًا في ثناياي؛ والبشر لا ينسون حلمًا أعطاهم وقتًا يتمنونه!!»
«أشتهي حديثك الملائكي؛ ليتني كنتُ قطعة أثاث تراك دومًا وهي جامدة لا تتحرك!!»
«أنا لا أراكِ.. لكني أرغب... ولا أحادثكِ.. بيد أني أحلم.. وليس لوصالك سبيل، ولا لحياتكِ طريق.. فكيف أحيا؟!
«أصعب شيء في الدنيا... لم أعد أستطع إكمال تلك الجملة؛ فالكثير من حياتنا أضحى أصعبها!!»
«قال له: الأمر ليس له سوى شيئين، إما أن تكون حيًا أو ميتًا.. فقال له: لا.. موجوع! وهي تحمل الأمرين!!»
«في مجتمعنا.. أن تموت لا يزعج الأخرين بقدر أن يزعجهم أن تكون سعيدًا!!»
«صحيح الحياة مثل القطار بس واضح إن حياتي عبارة عن ترام؛ بس خلاص راحت عليه بقى!!»

«يُقال: لكي تعيش لابد أن تموت أولًا.. يبدو أنني سأعيش حياة أبدية لذلك فالموت طوووويل!!»

«... قال لقد سئمت حتى من الكتابة عما بداخلي! فمن يجعلونك في تلك الحالة لا يحفلون بقراءتها ولا يعرفون أين يجدون تأوهاتنا ولا يعبأون من الأساس، فلمن أكتب؟ ولِمَ أكتب؟ هل أكتب حتى أتذكر دائمًا ما حدث ولا أنسى من أحزنني وجعلني أتأوه في يقظتي وأصرخ في أحلامي.. هل أعد نفسي لأكون منتقمًا.. لا.. لا.. لقد كفرت حتى بالكتابة!! لن أكتب.. لن أكتب.. لن أكتب!!»

«.. اسمح لي أن أقول لك: أنك مخطئ هذه المرة! فأسوء شعور أن تشعر بالعجز! لا لشيء إلا لقدرة غيرك وظروفه التي تسمح له بالتحكم في مصيرك؛ تشعرك بأنك ورقة تسحقها الأرجل في الطرقات دون أن تلتفت لها!! قلبك منكسر وعقلك مشلول.. وفكرك متوقف!!»

قال له: موتك مش هيغير حاجة! فرد قائلًا: بس كفاية إنه هيبعدني عن اللي بيحصل ده ومش هحس بأي وجع تاني.. قبل ما تقول ده جُبن! لا.. ده تعب.. وجع.. قهر.. هوان.. قلة حيلة.. استصغار.. شوفت إنه هيغير كتير؟!

«أشتهي النوم، ولا أعرف كيف أتذوقه وعقلي يكتظ بملوحة أفكاري!!»

«سحقًا لهؤلاء الراحلين؛ لا يأخذون معهم كل ما يخصهم.. فلا بد أن يبقى شيء في النفس وتقطن أشباحهم معنا.. فهم لا يموتون إلا بموتنا نحن!!»

«..أحيانًا أشعر أن الحب جحيم الحياة!..»

«هل كفرت بالحب؟ لا.. لكني قد كفرت بقابلية الحب في مجتمعنا؛ مجتمع يحفظ ويردد كالببغاء!!»

«أيقنتُ أن الناس لا يعجبها العجب إلا لو كان العجب لهم!!»

«إذا كنت تحلم بحياة بلا مشاكل ولا تعب أو كدر، فتأكد أنك تحلم

بالجنة!!»

«ثمة أوقات في حياتنا لا نعرف بالضبط، هل نحن في كابوس ونرغب في الاستيقاظ! أم أنها واقع نتمنى أن يكون كابوساً!!»

«أنا الأولى بكِ.. وأنا أوّل المحرومين!!»

«أنغمس في الدنيا لاهيًا أحاول أن أتجاهل غيابكِ بشواغلها، فأجد أن كل شيء فيها يحتويكِ!!

«قال لي في اندهاشٍ:

أراك مشدوهًا يا صديقي! أأنت من سكان جنة في علياء السماء سقطت سهوًا؟ أتكون ملاكًا يجوب أقطاب الأرض في حسرة على خبايا البشر! لم أعهدك غير بشر تأكل الطعام وتمشي في الأسواق مثلنا، وتجرحك الشوكة، وتألمك الثقاب المشتعلة، ويعصر قلبك هوانك على حبيبٍ ويؤرقك فراق عزيزٍ. لا تندهش من تقلبات الحياة ولاسعاتها؛ فأنت هنا على الأرض في معبد الشقاء!!»

لستُ حزينًا يا صديقي! كل ما في الأمر أنني أصبحت أحمل من الأفكار في رأسي كمًّا تنوء به الجبال.. وأتنفس في ضيق المغلوبين على أمرهم.. لم تعد للحياة بهجتها التي رأيتها ولم يعد للنفس قدرتها على تحمل خيبات الرجاء وانكسار الآمال.. لستُ حزينًا كما قلتُ؛ لقد حزنت إلى الحد الذي لم يعد في وسعي الحزن بعده!!

... لن أقولُ لك: أنّي أعتصر وأموت بداخلي.. فكل ذلك تعرفه جيدًا. سأقول لك: أنّي لا أريدُ الحياة بعد الآن؛ فلم يعد يؤلمني الألم، وتُدميني الجراح.. وتلسعني الثقاب كما قلت! كل ذلك معتادٌ. بل ما يؤلمني هو أنّ أنتقل إلى جنة في لمحة بصر لا لشيءٍ إلا أن تعتريني الألام.. والأوجاع.. والأحزان.. فأنّا ممن حُكم عليهم الجحيم المعنويّ؛ أرى مقعدًا في الروضة وأنا محرومٌ منه مع زبانية جهنم.. أرجوك لا تسألني كيف حالي؟!

obeikan.com

حياة.. مع إيقاف التنفيذ

يـا تُـرى مـا الـشيء الـذي يجعلنـا نقـاوم المـوت ونبقـى عـلى قيـد الحيـاة حتـى لـو كنـا مهدديـن بمغادرتهـا في أيـة لحظـة؟

هـل هـو التشـبث بالذكريـات أم تجنـب ذكـر المـوت وكأنـه لـن يـأتي أبـدًا؟

تلـك هـي بعـض الأسـئلة التـي تطرحهـا النفـس علينـا بـين الفينـة والأخـرى، فنقـف متسـائلين حائريـن دون أيـة إجابـة تريحنـا مـما يختلـج في نفوسـنا.. ويرهـق عقولنـا.. ويـأسر تركيزنـا. بـل هنـاك مـن يتجـاوز تلـك المرحلـة ليتسـائل: هـل أنـا عـلى قيـد الحيـاة الآن؟! ولكـن كيـف يمـوت الإنسـان وهـو يتنفـس.. يشـعر.. يتعـذب؟!

كثـيرًا مـا سـألت هـذا السـؤال وكان مـن البديهـي أن يُرجعـه الأخـرون لي مـرة أخـرى وهـو: إذا طلبـت منـك أن تلخـص الحيـاة أو الدنيـا في كلمـة واحـدة، مـاذا تكـون؟ هنـاك مـن قـال: ألم.. والبعـض الأخـر: معانـاة.. وفريـقٍ أخـر: ضحكـة.. وكذلـك: حـب.. وثمـة مـن يراهـا: ملهـاش لازمـة! أو تافهـة.. حـزن.. تعـب.. لـكلٍ منـا رأيـه الشـخصي فيهـا، وهـذا الـرأي أثـرت فيـه عوامـل كثـيرة جـدًا. أمـا بالنسـبة لي أنـا: فدائمًـا وأبـدًا هـي : أمـل. لكـن إذا دققنـا النظـر قليـلًا _كـما فعلـتُ_ سـنجد أن تلـك الكلمـة أو هـذا الوصـف، يحمـل في ثناياه كل مـا قالـه الأخـرون! فالأمـل أحيانًـا يصبـح معانـاة؛ عندمـا يطـول أو يقـترب مـن المسـتحيل أو حتـى يصعـب منالـه.. وكذلـك يكـون تعـب وألم.. وعـلى النقيـض، يصبـح ضحكـة نرسـمها عـلى وجوهنـا في ظلـمات الحيـاة؛ نتقـوى بـه عـلى براثـن تلـك القاسـية. والأمـل هـو حـب للحيـاة والتعلـق بهـا، والإصرار عـلى مواصلتهـا بكامـل طاقتنـا. ومـا أكـثر مـا يبـادر إلى ذهننـا أن الأمـل «ملهـوش لازمـة.»

إذن مـا هـي الحيـاة أو مـا هـي ماهيتهـا كـما يجـب أن نراهـا؟ إنهـا كل ذلـك! فهـي كفصـول العـام؛ لا يمكـن أن يسـود فصـل بعينـه دون

الأخريـن.. لابـد أن تتـوالى وتتعاقـب.. كـما أن الـشي الوحيـد الـذي لا يتغـير، هـو التغـير ذاتـه. ولـولا عكـس الـشيء مـا عُـرف الـشيء. بيـد أننـا لنـا دورٌ عظيـم تجـاه رؤيـة الحيـاة، وهـو أن نفـرض الفـرح عـلى حياتنـا.. لنجعلـه أمـر واقـع! ويبقـى الوضـع كـما هـو عليـه. وأقصـد بذلـك أن نـرى في كل شيء إيحابيـات وإحداثيـات لا نتوقـع وجودهـا، وإذا أردنـا سـنجد. لنحـزن، ولكـن كـما يجـب.. لا نبالـغ في حزننـا وحـزن مـن حولنـا وإدخـال الكآبـة عليهـم. فنحـن أسـتاذة في الحـزن، تلاميـذ في الفـرح!! فالمـرء عندمـا يحـزن _مـن المدهـش_ أنـه لا مفـر أن يسـتدعي الأحـزان السـالفة، وكأن حزنًـا واحـدًا لا يكفيـه. هـل الحيـاة صعبـة؟ ليسـت صعبـة، ولكنهـا ليسـت سـهلة أو قطعـة كيـك.. لابـد مـن التعـب فيهـا والكـد، حتى ننـال مـا نسـتحق. كـما قـال الدكتـور مصطفـى محمود:»هـؤلاء الذيـن يريدونهـا جنـة، مـاذا فعلـوا ليسـتحقوها جنـة؟!» فـماذا فعلنـا؟ كـما أن اللـه سـبحانه وتعـالى قال:»ولقـد خلقنـا الإنسـان في كبـد» أي في تعـب وأرق وقلـق وهـم وحـزن؛ ليفـرح وليسـترح وينعـم...

أجديـرة الحيـاة بـأن نحبهـا؟ نعـم جديـرة. وديننـا الحنيـف حثنـا عـلى حبهـا والحفـاظ عليهـا وجعـل عقوبـة مـن قتـل نفسًـا بغـير نفـسٍ، فكأنمـا قتـل النـاس جميعًـا. وهـو مـا جعـل الإنتحـار، كفـرٌ باللـه عـز وجـل. لكنـه في نفـس الوقـت، ذم حـرص بنـي إسرائيـل عـلى «حيـاة» ولكـن هـذا ليـس بتناقـض؛ فالإسـلام يحـث عـلى حـب الحيـاة العامـرة بطاعـة اللـه المواتيـه لأوامـره المبتعـدة عـن نواهيـه.. الحيـاة التـي تـؤدي إلى راحـة في الأخـرة كـما يكـون صاحبهـا في راحـة في الدنيـا.. أمـا الحيـاة التـي ذمهـا القـرآن واسـتنكرها عـلى بنـي إسرائيـل هـي: «حيـاة» تعـج بالفسـوق.. وتكتـظ بالشـهوات والعصيـان.. بهـا سـعادة مؤقتـة. ولذلـك قـال اللـه جـل في علاه:»ولتجدنهـم أحـرص النـاس عـلى حيـاة...» لم يقـل عـلى الحيـاة، وإنمـا حيـاة أي نكـرة للتحقـير والاسـتنكار. ومعنـى ذلـك أن

الحي الذي يحرص على الحياة لا يُلام أبدًا.. وإنما يُلام لأنه يحرص على أية حياة وكل حياة، ولو قبل الهوان ورضيّ بالصغار النفسي.. وتخلى عن الواجب.. وهرب من النافع.. وامتنع عن الخير. إن هؤلاء الجمع من التائهين في الحياة هم موتا على قيد الحياة؛ فهم يحيون حياةً.. مع إيقاف التنفيذ!!

فالحياة التي يحياها تلك الزمرة من الناس، ما هي إلا عبارة عن مسرحية جودو للكاتب الكبير صمويل بيكيت. فهم دائمًا في حالة بحث دأوب عن الحياة في طيات الحياة.. فهم يبحوث عن مفقود في المفقود.. يحاولون نشارة النشارة ثانية! ولذا فهم دائمًا في حالة «نوستالجا» أي الحنين للماضي في حزنٍ على فواته. وهم يعرفون أن جودو لن يأتي، ولكنهم يمنون أنفسهم! يخدعونها!

«أعمق الحزن، حزن بلا دموع» مقولة قالها جونسون. وهي قمة في الروعة وغاية في صحتها. فالحزن الصامت، يهمس في القلب حتى يحطمه! كما قال الدرامي الإنجليزي شكسبير في إحدى مسرحياته_ ماكبث. بل إن الناظر المتأمل المدقق في أحوال الناس، ليجد أنهم يعتصرون بالداخل.. يتمزقون في صمت.. يحترقون في همس.. ولكن من المسئول عن ذلك؟ بعد أي أسباب قد نقولها: نحن المسئولون كذلك؛ فلِمَ نكتم بداخلنا؟ عندما نريد الحديث، فلنتحدث.. وحينما نريد أن نصرخ فلنصرخ.. دع ما يقوله الناس للناس.. وخذ منهم ما يدفعك للأمام ونحي جانبًا أية عقبات تعوق تقدمك في صفوف الأحياء. فالميدان ممتلئ، ولا مكان للضعفاء أو النسخ المكررة، فلتكن لك شخصيتك وكلمتك.. ولو على الورق.. ثمة كلمة شعبية متداولة تقول: لو مقولتش اللي جوايا، بطني هتوجعني! بيد أنه ليت الأمر يتوقف على البطن؛ فإنه يتجاوزها إلى القلب والعقل والحياة نفسها.. لقد وصلنا لحالة تعبت الحياة من الحياة، وتعبنا نحن من الحياة!

فهل من حياة؟! فنحن كما يقول فولتير:»لا نعيش أبدًا، نحن دائمًا على أمل أن نعيش!» في خضم الحياة، لدى كل منا إرادة أو قوة لا تريده أن يبكي على أحد_ ولا حتى نفسه. تجعله يقفز من الفراش، ويستأنف طريقه.. ويُكمل مشواره.. يجفف دموعه.. وينزع أوجاعه من قلبه وعقله؛ ليضعها على كتفه لحين يلقيها في محيط الحياة. فبعض اللحظات في حياتنا مثل مثلث برمودة؛ لو أقدمت عليها بجبال الكون لاختفت! فكذلك أحزاننا في تلك اللحظات تنطمر تمامًا دون أن نعرف سر هذة البقعة أو اللحظة! وهذا هو السر الجميل الذي لا يهمنا أن نعرفه بقدر ما يسعدنا فعله.

لا تتركوا حياتكم تذهب سُدى في سراديب النفس المظلمة؛ طالما يمكنكم إناراتها بمصابيح الإصرار والمحاولة والتحدي. لا ترضوا بأن تكونوا مجرد «دود» في مستنقع الحياة.. فلا تعيشوا حياة.. مع إيقاف التنفيذ!!

obeikan.com

كونوا بشرًا (١)

مـن أوائـل الكلـمات التـي طنّـت في أذني، وبالتأكيـد في أذن كل طفـل، كانـت: إنّ اللـه ميّـز الإنسـان عـن الحيـوان وعـن سـائر خلقـه بالعقـل! فالإنسـان سـيّد الكـون، ومالكـه بـل آمـره. كانـت تبـدو هـذه الكلـمات لي، بـكل صـدق، مبتذلـة؛ فـلا جديـد فيهـا. وأراهـا ليسـت جديـرة بالتكـرار في كل عـامٍ دارسيٍّ.

كنـت أندهـش أنّي ألمـح في عينـيّ المدرسـين عنـد قولهـا، احترامًـا وإجـلالًا.. وتأكيـدًا وحرصًـا عـلى أن تصـل إلى أذاننـا وتعيهـا عقولنـا. كنـتُ أشـعر، ولا زلـت أتذكـر، أنّهـم يـودون أن يصرخـوا فينـا قائلـين ومحذريـن: لا تنسـوا ذلـك في جميـع أفعالكـم.. لا تنسـوها عقـب الإمتحـان!!

هل كان من الابتذال تكرار نفس الكلام؟

أكان فراغًا؟!

إذن،

أتـراه فراغًـا إعـادة الـكلام نفسـه أو مـا يقـرب منـه عليـك الآن؟ نعـم! أعـرف أنّـك تـوّد قـول ذلـك.. وأكاد أشـاركك الـرأي، لـولا أنّي أعـرف مـا سـأكتب لـك وسـتقرأه أنـت، بالطبـع بعـد إذنـك.

ولكـن، كل الأشـياء تبـدو أصغـر وأتفـه مـن حجمهـا مـن بعيـد. وتلـك الكلـمات ينطبـق عليهـا هـذا المبـدأ؛ فقـد تبـدو خاويـة مـن المعـاني والإضافـة، ومـع ذلـك، تأكـد أنّـك عندمـا ترنـو إليهـا عـن قـرب؛ سـتجد تفاصيـلًا ونقاطًـا لـو جمّعتهـا سـتكوّن حروفًـا.. وكلماتًـا تصـل بهـا إلى جملٍ مفيـدة. فقـد جـاءت فكـرة هـذه المقـالات تحـت هـذا العنـوان الغريـب بعـض الـشيء، فجـأة. وبـدأت أحـدّقُ في أبعادهـا. وأسـأل نفـسي كيـف أقـدم لـك شـيئًا جديـرًا بالقـراءة وقبلهـا بعنـاء الكتابـة وإغـداق الوقـت في تنميقهـا.

إنّ المتأمـل في أحـوال البـشر حولنـا، وكل شيء حولنـا، يجـد أننـا،

وأنـا كذلـك، فقدنـا الكثـير مـن إنسـانيتنا وبشريتناوقـد تجاهلهـا البعـض كل التجاهـل حتـى باتـت غريبـة عنّـا. فـأردت، فقـط، أن أوجههـم، وأواجه نفـسي، بحقيقتنـا، سـائلًا: أتسـتبدلون الـذي هـو أدني بالـذي هـو خـير!»

فالعقـول مثـل المـاء؛ لـو ظـلّ في مكانـه أصبـح آسـنًا غـير مؤهـل للاسـتخدام!

وقـد تعطلـت عقولنـا واضملـت نفوسـنا، فأصبـح كل منّـا بحاجـة لتأهيـل بشريتـه: الأبـاء والأبنـاء.. الرجـال والنسـاء.. الطـلاب والطالبـات.. العاطلـين والعاميلـن.. الأزواج والزوجـات.. السياسـين والعشـاق.. لا أحـد فلـت مـن هـذا العطـن النفـسي والعفـن الروحـي. وأرجـو مـن اللـه أن تجـد في تلـك السـطور مـا يوحـي إليـك بمـا يمكنـك فعلـه لإنقـاذ نفسـك مـن مسـتنقعات الحيـاة.

وكل مـا أرنـو إليـه مـن الذيـن يتفضلـون عـليّ بقـراءة تلـك الحـروف:

من فضلكم كونوا بشرًا في حكمكم عليّ!

obeikan.com

الأباء

ما الوهم إلا أبواب مُؤصدة عليها أقفالٌ متخيلة؛ لأنها تعطينا شعورًا مزيفًا بالراحة والطمأنينة... يُفضي إلا اللاشيء في كل شيء، وينقض على رياحيق الواقع لينفرد هو بالصورة؛ فينبش فيها حتى يتغلغل بداخلها إلى الحد الذي قد يجعل العجوز شابًا.. والشاب من اليأس في أرذل العمر ويسرع بالخرف والجزع قبل أوانهما.. يقضي على أحلامٍ بوهم أن ذلك في سبيل الحفاظ عليها وتقديرها... ولكن الأمر قد تحول في عصرنا هذا إلى الحد الذي يفوق كلمة الوهم إلى «أصنام» لا نعبدها من دون الله، ولكننا نقدسها وننخضع أمامها وننحني لها مجبرين، ومن تلك الأصنام التي أعمت الأبصار وصمت الأذان: المال..

من البداية، لا تعد فكرة هذا المقال جديدة بالنسبة لكتاباتي أو بالنسبة للقراء على حدٍ سواء بيد أن الفكرة الواحدة من الممكن أن تكون مئات الأفكار إذا تناولتها مئات الأيدي_كما علمنا أستاذنا عباس محمود العقاد. كتبت عن هذا الموضوع أكثر من مقال، وكانت العناوين: المال والبذنجان.. المال.. والزواج.. قالوا أضغاث أحلام.. ووددت لو كتبت مقالًا أخر بعنوان: بكرة نقعد جنب الحيطة.. وأخر بعنوان: الكوميديا الأبوية...

كل تلك المقالات ليست سوى صرخات تتعالى من قلوب وهنت مما بداخلها، وأفكار اكتظت بها العقول الحائرة وحاولت أن أكون «فرجيل» هؤلاء القوم في تلك الرحلة إلى جحيم الحياة، كما كان فرجيل يصحب دانتي في رحلته إلى الجحيم في ملحمته الكوميديا الإلهية. حاولت أن تكون كلماتي أسواطًا أسوانية تنزل على أجسام هذا الوهم لتجبره أن يترك العقول في صحتها؛ وكأن الوهم هو جنٌ

قد سكنها. فهي _إن شاء الله_ ستكون مجموعة مقالات موجهة لأشخاصٍ مختلفة في حياتنا قد نقوى أن نقولها لهم وقد لا نقوى بيد أني أجد الحظ في أنني أقول دون أن أنطق وأصرخ دون أن يعلو صوتي.. فأنا أكتب.. وسأكتب طالما هناك من يقرأ وإذا لم أجد من يقرأ فسأكتب أنا وأقرأ ما كتبته من بعيد.

أهم مقالين في _نظري_ للمجموعة هذا المقال والذي يليه؛ فالأول عن أعتى العقبات التي يقابلها الشباب في حياتهم عند التفكير في الإرتباط بمن يرونه الشخص المثالي، والثاني عن تصرفاتهم وتفكيرهم بعدما يكرمهم الله أو في منتصف المسافة إلى نيل ما طاقوا إليه. قبل أية كلمة قد نقولها فلنرسِ دعائم أساسية لا تقبل الشك ولا المرواغة: أنه لا يوجد أب أو أم لا يبحث عن مصلحة أولاده.. ولم ولن يخلق الله أبًا وأمًا لا يعرفان الحب والعطف حتى لو تعاظمت القسوة في المعاملة! فالظاهر لا يعكس الباطن في أغلب الأوقات. من فترة كبيرة كنت أعتقد أن العقلية الأبوية _وأقصد بالأبوية الأب والأم وليس ثمة أي ذنب أن الكلمة يغلب عليها حروف الأب_ التي تبحث عن الراحة المادية في زواج أبنائهم لم تعد موجودة وخاصة لو كان الأباء قد نالا قسطهم من التعليم العالي؛ فالأب موظف والأم كذلك. بيد أن مع أول نزول لأرض الواقع وجدت العجب العجاب في هذه الناحية؛ فوجدت المال يتحكم في المشاعر ويلغي الأقارب ويقصي الأحباب ووجدت الناس عُبّادًا لصنمٍ خلقوه من بين ضلوعهم. شاهدت وعاصرت الكثير من حكايات مثل أن يذهب الشاب لوالده ليقول له: بابا.. أنا عايز أكلمك في موضوع كده ويارب توافق؟ ويشرع أن يقول: أنا في زميلة ليا بحبها وهي كمان بتحبني وأتمنى حضرتك توافق تخطبها ليَّ، وأنا الحمد باقي سنة واحدة وهخلص كلية. كما أنك تعرف أنني لا أحب أن أفعل شيئًا يغضب الله وهي كذلك والحمد لله. وبصراحة

كمان علشان محدش يخدها مني أو يتقدم حد ويوافقوا عليه. فيجد الأب يقول له: لكنك لا زلت صغيرًا وفوق كل ذلك تأخذ مصروفك مني.. يعني أنت تقصد أخطب لك وأصرف عليك وعليها؟! لأ طبعًا يا بابا وأنا هشتغل وإن شاء الله ربنا هيكرمني وأدخر مبلغًا يكفي أن أتحمل كل أعباء الخطوبة مؤقتًا حتى أتخرج وأعمل في مكان دائم.. أنا محتاج من حضرتك بس تكلم والدها وتعرفه الموضوع وتتفق معه على فترة محددة نزورهم فيها. الأب: لا، أنا مش موافق لما تخلص تبقى تشوف الموضوع ده وفكر في مستقبلك الأول، وسيبك من «الهبل» اللي في دماغك ده.. كلنا واحنا في سنك كنا عايزين نعمل كدة بس مش كل حاجة الواحد بيحتاجها يحصل عليها. _ لكن يا بابا.. أنا مش عايزها تضيع مني! لو لك نصيب فيها هتاخدها غصبن عني وعن الدنيا، وحتى لو مكنتش من نصيبك بكرة هتحب تاني وتنسى.. أنسى. _إنسى!

ينكفأ الشاب على نفسه في حجرته يتلوى من الحزن والضيق وقلة الحيرة، لا يعرف ماذا يفعل وماذا يقول ولا لمن يقول؟ يتسائل ويجيب على نفسه. لماذا يعقدون الأمور هكذا وهي أبسط من ذلك والله سبحانه وتعالى حقٌ عليه عون الناكح يريد العفاف كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم. فالكلية سأنيها هذا العام والعمل سيتوفر بمشيئة الله والشقة لا مانع لدي ولا لديها أن تكون في مبتدئ الأمر إيجارًا ونحن نعلم علم اليقين أن الله سيرزقنا الشقة التمليك فيما بعد. لا تعرف لما يريدون كل ذلك موجودًا وبعد ذلك لو فيك حيل فكر في الزواج. ملحوظة: الحيل قد يكفي للتفكير فقط! ما يطلبون يفوق المطلوب.. لما لا يفكرون فيما أولى من الراحة المادية وهي الراحة النفسية.. المودة.. والحب.. تلك الطاعة التي يسخرون منها.. وهذا المحراب الذي يدنسوه بأفواهٍ لا تعي

ما تقول، وهذا الصومعة التي تهدمونها فوق عُبّادها من رهاب الحب وقديسي المملكة.. فتجد الأب يقول: من الذي قال لك أن الأمر سهل هكذا؟ -- أنا حسبتها وأعرف أناسًا فعلوا ذلك. - أنت! وأنت تعرف أيه أو تعرف أكثر مني! أتكذبني وتصدق نفسك! تتذكر حينها نادرة جحا حينما طلب منه جاره الحمار، فقال له: أن الحمار ذهب للغيط ثم نهق الحمار، فعاتبه الرجل قائلًا:»أليس هذا حمارك، وأنت تنكره مني وتزعم أنه ليس هنا؟» فقال جحا:» سبحان الله، تكذبني وتصدق الحمار؟»

فتتحول الأبناء في البيت إلى صندوق إسعافات أولية: وقت الحاجة فقط.. وكثيرًا ما ننساها! إن وجدت من الأساس في البيوت. لا أحد ينكر أن الطبيب يعرف أكثر من المريض في فهم حالته، ولا أحد يستطيع أن ينكر أن الطبيب دون أن يسمع من المريض وقبل أن يسمع لا بد أن يشعر، يمكن أن يفهم التشخيص الصحيح له. فالشباب مرضى وأنتم الأطباء أيها الأباء فعاملوا مرضاكم برحمة فقد قسمتم «قسم بقراط» أي قسم الرحمة والإحساس والبشرية في التعامل.

لا تتخيلوا أن الحب جريمة أو عيب؛ فالحب هو ماء البشرية أجمع.. ولولا الحب ما صبرتم علينا وما صبرنا نحن على الحياة، فبالحب تتحمل الأم ألم وليدها تسعة أشهر وهي تبستم وتنظر حركته التي توجعها! بالحب تصعد الأرواح إلى بارئها في حبور وسعادة.. إنه الحب يا سادة. إنها المائدة التي أنزلها الله علينا لتطمئن قلوبنا بها ونلتف حولها وليس لنفترق ونتشتت.

إعتذار واجب، أن المقال يغلب عليه الطابع الذكري بيد أن الأمر يتعلق أكثر بالشاب وكما أن الأمر لا يختلف البتة مع البنت وفي أمرها سأنجز بسؤال بسيط: هل تملك البنت أن تصارح والدها بأن فلانًا يحبها وهي تحبه ولا تريد غيره ويريد أن يحدثه ويطلب منه

أن ينتظر قليًلا حتى يرتب أمره؟ ولو استطاعت ماذا يكون الرد؟ على فكرة، منتظر ردك المتفق عليه!

فما الحل إذن؟ الحل أن نأخذ منهم الأربعين ريالًا!

«يحكى أن واليًا في عقد قره قوش كان لديه أربعين ريالًا فلا يصدق أن أحدًا لا يملكها مثله، فضاق الناس به فنقبوا عن دفائنه وعثروا على الأربعين ريالًا.. ومن بعدها لم يضرب الوالي أحدًا يماطل في السداد وجعل يقول لكل معتذر: من أين لك أربعون ريالًا يا مسكين؟ فأنا لا أملك ريالًا واحدًا!»

والمقصود أن نأخذ منهم أوهامهم ونحطم أصنامهم.. ونجذبهم إلى ماضيهم لنذكرهم بأنفسهم وتفكيرهم.. نأخذ منهم الأربعين وثنًا.. دعوهم عراة أمام أنفسهم وأمامنا؛ ليخجلوا من عقولهم وتفكيرهم! لنريهم طريق بشريتهم الملقاة على عتبات الحياة.. والمهملة في صناديق قمامة الواقع... لنكون بشرًا كما خلقنا بشرًا!

«معاك قرش تساوي قرش.. لكن معاك قلب تساوي حياة!!»

«ميعبش الرجل إلا جيبه، وميعبش الإنسان إلا قلبه!!»

«كلنا خلقنا حيوانات والحياة هي من تقرر من خلق بشريته بنفسه!!»

obeikan.com

الحب بين الغيرة.. وبراثن الشك

قالت: هل يمكن أن يولد الحب ثم يذبل كنباتٍ مهملٍ في حديقةٍ مهملة.. أيندثر عبق الشوق والهيام بعد بلوغه ذروة العشق والغرام، وتنزوي القلوب متحسرة على فوات أيام صباها.. أعرف أن كل شيء في الدنيا له عمر إفتراضي، فما العمر الإفتراضي للحب.. إذا كان للحب قلب، فمتى يتوقف عن النبض؟!

قلت: الحب مثل التاريخ تمامًا؛ لا يندثر ولا ينطمر مع الوقت بل يزداد قيمة ورونقًا.. فمع الوقت تنكشف الأسرار وتتضح الرؤية وتنجلي الغشاوة التي قد تطمس بعض الحقيقة. تتجمع الذكريا وتتوالى الأحداث. إن من يحب يشعر بأنه يملك جوهرة ثمينة كلما مر الوقت تعاظم ثمنها وتضاعفت قيمتها وتفاحلت أهميتها، حتى أن الغبار الذي يعلوه يكتسب قيمة منها ونال بهاءًا لم يكن له بدونها...

لكن دعيني أجيبك عما سألتي. الحب بصدق نبات رقيق إذا أُهمل من صاحبه فسرعان ما يذبل وتنزوي أغصانه وتتساقط أوراقه في خريف القلب، ولا يملك هذا القلب سوى التحسر على ثمرته الضائعة. قد يُهمل الحب دون وعيٍ من صاحبه أو بمغالة في شيء أو شعور بعينه دون غيره.. أو بفرض قيود وهمية دون أي داعي له. وأحب أن أقول لكِ: أنه يفصل بين الغيرة والشك شعرة تسمى الثقة! وبين الحب والتعود شعرة أخرى أدق تُدعى الشوق.. وبين الثقة والشوق يترعرع الحب وتولد المشاعر وتتعارف القلوب، وتتمخض الأحاسيس النبيلة. فبالغيرة يمكن أن يكبر الحب ويكون في حماية تامة طالما أن الغيرة في محلها ولا تتجاوز حينها. فهي كالماء

للنبات قليله ينعشه ويبهجه وكثيره يقتله! كما أن الغيرة تجعل صاحبها يرتدي عدسة مكبرة في عينه أو فوق نظارته فهو يرى الأشياء أوضح وأضخم من حجمها، ولو أنه لا يملك زمام نفسه لقضى على أجمل معاني خلقها الله سبحانه وتعالى في الأرض وهي: الحب. وأستاذي أنيس منصور قال: «من لا يغار، لا يحب!» وهذا صحيح. بمعنى، إذا لم تكن تضيق صدرًا ولا يستطيع لسانك أن ينطلق بشيء حين ترى من تحب يتحدث مع غيرك _في غير ضرورة_ فثمة خطأ! فالحب استقلال قد يغلب عليه أنانية حميدة، والمقصود أن المحب يعشق أن يستقل بمن يحب؛ فهو له وحده.. وليس ثمة حق لغيره عليه حتى أقرب الناس له! ولذلك فالبعض يرون الغيرة أنانية مقنعة وحب لذات يرتدي قناعًا واهٍ..

لنتفق أن الحب يبعد كل البعد عن القوانين العقلية والبراهين المنطقة أو أية استدلات فلسفية؛ فهو منهج مستقل بذاته لا يعرف قيودًا صماء ولا أغلالًا عمياء.. ولذلك فلا وجود للقاعدة الفلسفية العريضة التي تقضي بضرورة الشك للوصول إلى اليقين.. أو أن الشك بداية اليقين. ففي الحب، إذا دخل الشك من الشباك هرع الحب إلى الباب ليخرج إلى حيثما جاء. والمرء منا من الأحرى ألا يدع له باعثًا على الشك؛ فمن البداية تضع لنفسك ولمن ترتبط له قواعد وأسس محددة، كما أنك ترى شخصية من ترتط به وتعرفها جيدًا.. فإذا قررت أن تبقى معه فلتقتل هواجسك المميتة. حينما تريد أن ترتبط، قبل أن تفكر في شيء.. ضع القواعد التي تريد أن تُحترم بينكما ويقوم البيت عليها؛ فالحب يدعمه الاحترام، والاحترام يولد من الثقة.. والثقة تولد من احترام تلك القواعد.

قالت: لو أن بنتًا أحبت شابًا ولم يُكتب لهما الإرتباط ثم أحبت شابًا أخر هل ترى من الأصح أن تقول له أم تكتم الأمر عنه حتى

لا يضيع منها؟ وبما أنك شابًا هل لو حدث ذلك مع الشباب يجب أن يطلعها على ذلك؟!

قلت: بالنسبة للشباب، فالأمر أسهل بكثير ولا يجد المتاعب التي تجدها البنت؛ فالولد _للأسف_ لا يجد المجتمع أي جُرم في أنه أحب أكثر من فتاة! كما أن طبيعة المرأة أنها تريد أن تكون أخر من أحبها الرجل؛ لأنها تعرف أن أخر من يحب ويكمل معه وهو الحب الأول. كما قال أستاذنا العظيم مصطفى محمود: أن الحب الأول هو الحب الأخير. أما البنت فتقوم الدنيا ولا تقعد وقد تجد ممن تروي لها نظراتًا غير مريحة. وأمر أن تقول له أو لا؟ فهذا يرجع إلى شخصية الرجل فلو رأته متفهم وسوف يقدر صراحتها وينسى ما حدث قبل أن تعرفه فلا بد أن تخبره.. أما إذا كانت على يقين من حدوث مشاكل وهي تريده وهو يريدها ولم يسألها عن مثل ذلك فلا داعي أن تنغص حياتها وتعكنن عشها. طبيعة الرجل أن يشك أكثر من المرأة لكنه لا يفصح عن ذلك مثلها.. ولهذا فالغالب يرى أن المرأة تشك أكثر! بيد أن المرأة تقول وتصرخ أما الرجل فلا بد أن يرى ويسمع ويسجل ويتأكد حتى إذا ضرب كانت ضربة مقتل! ولكني أحب أن أقول للشباب: لو أنك علمت بأن من ترتبط بها كانت تعرف شخصًا قبلك ووافقت على إكمال مشروع حياتكما، فدعني أحيك! نعم، فهذا أكبر دليل على حبك لها واحتياجك لها على حدٍ سواء. فالمرأة بالنسبة لها الموضوع ليس صعبًا أن تحب رجلًا كان يعرف بنتًا قبلها _بس هي تيجي على واحدة! لطالما أنها تؤمن بمقولة أحمد مكي:» لا يوجد رجل بلا ماضي!» أما أن يوافق الرجل فهو عاشق ولهان. بيد أنه طالما وافقت، فلا تفتح الموضوع ثانية ولا تدع مجالًا للوساوس تتغلغل بينكما، ولا ترى أنك قد ضحيت بثمين لا يغلطك أحد لو جرحتها. إن الحب ليس عيبًا والمرء لا يعرف

أيـن يكمـن قـدره.. ولا تجعلهـا تنـدم أنهـا قـد فضفضـت لـك بأسرارهـا. أذكـر قصـة غريبـة بيـد أن ذاكـرتي لا تسـاعدني في تذكـر صاحبهـا بالضبـط، ولكنهـا كانـت لأحـد الصالحـين تقـول: بأنـه تـزوج وليلـة زواجـه اكتشـف أن العـروس ليسـت بنتًـا!! وقـرر أن يسـتر عليهـا وأكمـل حياتـه معهـا ولم يعـرف أحـد شـيئًا قـط!! وللأسـف لا أتذكـر كذلـك نهايتـه أو جـزاؤه كان مـاذا؟ والمقصـود أن أهمـس لشـاب الـذي قـرر أن يختـار تلـك البنـت التـي ليـس لهـا ذنبًـا إلا أنهـا تحـب بصـدق، إمـا أن تقـول لا مـن البدايـة أو تقـول لا طـوال المشـوار ولكـن هـذه المـرة لـكل هاجـس أو لئيـمٍ قصـد فسـاد حبكـما.

ولا شـك أن ثمـة شيء أخـر يقـف حائـلًا دون وصـول الحـب إلى قلـب المـرء، ويجعلـه كسـورٍ شـاهق يحـاول طفـل أن يتسـلقه.. وهـو إذا كانـت النظـرة الأولى للطـرف الأخـر كانـت بالعـين فقـط ولم تكـن بالقلـب والعقـل: فالقلـوب تتعلـق بـالأرواح والعيـون بالأجسـاد!

لا عاشـق ولا حبيـب يجـرؤ أن ينكـر أن الحـب يخلـو ويبعـد كل البعـد عـن الجنـس ولا داعـي أن أقـول: الشـهوة الجنسـية؛ لطالمـا ربطتهـا الأذهـان بالفسـوق والعيـب والحـرام! بيـد أن الحقيقـة أن العلاقـة بـين الرجـل والمـرأة لا يعقـل أن تخلـو منـه _ولا داعـي لمضايقتـك بتكـرار الكلمـة_؛ إذ أن الجنـس مسـتوى التواصـل الحـسي الجسـدي الـذي يكمِّـل الالتقـاء العاطفـي والفكـري والروحـي بـين الزوجـين. وهـو مـن أساسـيات الحيـاة؛ وأنـت لا يمكـن أن تحكـم عـلى أساسـيات الحيـاة أو ضرورة لهـا بعيـب أو حـرام. فـلا تملـك أن تقـول الأكل عيـب أو شرب المـاء كثـيرًا شـهوة يجـب أن تقللهـا! ولكـن في الجنـس يمكـن أن تقـول لـو زادت عـن الحـد الـذي كـرم اللـه عزوجـل بـه الإنسـان. وهنـا بيـت القصيـد؛ فالحـب لا يقتلـه إمتزاجـه بالشـهوة الإنسـانية، ولكـن يقتلـه سـيطرتها وتحريكهـا لـه.. فالجنـس لـو بـدأ مـن الاول لا يتخللـه حـب! فهـو عمـلاق لا يقـف

بجانبه أحد.. أو كالنار تأكل كل ما يقرب منها.. إنه زيت مغلي تلقي فيه بقطعة لحم! فتخيل ما يحدث؟

والدين المسيحي يرى أنه هو التقاء جسدي واتصال حسي وانسجام عضوي؛ يتناغم ويتكامل في الزواج بين رجل وامرأة يلتقيان عاطفياً وفكرياً وروحياً في رابطة إنسانية ووحدة كيانية؛ لا يريد ولا يستطيع أي منهما الانفصال عنها؛ لأن كلاً منهما يكمل الآخر ويشبعه ويتكامل معه فهو مخلوق لأجله! ... وقد يثمر هذا الاتصال أو التواصل حياة لإنسان جديد. والحب بين الجنسين في أسمى وأروع معنى له يتكامل في الزواج المسيحي ...

«... يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ (وكذلك المرأة) وَيَكُونُ الاِثْنَانِ جَسَداً وَاحِداً. إِذاً لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللَّهُ لاَ يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ» (متى ١٩: ٥- ٦)

فالزواج المسيحي التصاق مستمر مستقر «لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ» وارتباط وتوحد في كيان واحد «جمَّعه الله لا يفرقه إنسان» ... كل ذلك في حدود الدين وفي حضن العقل والبشرية التي لا تنجرف إلى حيوانية مقنعة في ثوب الإنسانية.

كتبتُ مقال قبل ذلك عن هذا الموضوع وكان يناقش ظهور علامة حب الجسد قبل حب الروح.. ويعري طبيعة الرجل التي خُلق بها نحو المرأة.. وكان تعليقًا أو منبة عالي الصوت في أذن نائمات؛ يعلن قدوم الوقت المناسب للاستيقاظ من النوم وإلقاء الغطاء بعيدًا عن العقل والقلب وأن تلطم وجهها بالماء لترى أوضح وتعرف أعمق وتحس أدق... وكان المقال عبارة عن...

«جاءتني منشرحة الصدر، باسمة الوجه، لامعة العينين، واضحة الملامح، متوقعة مستقبلاً باهرًا، مشتتة الذهن، غائبة عن الواقع.. لا تنظر إلا في يدها وترفعها لتضعها على خدها.. وتبتسم...

فاندهشت.. وقررتُ أن أقطع خيالها. وأوقف ذهنها من التفكير. وأن أعرف قصة يدها وخدها. فقلت لها: ماذا حدث؟ ولِمَ جئتني؟ فوجدتها قد خرجت من هذا العالم الخيالي وعادت معي إلى واقعنا. قالت: جئت لأقص عليك ما حدث اليوم معي ومع... وتبسمت وقالت حبيبي.

قلت لها : وماذا حدث..؟ قالت: لقد جاءني اليوم واعترف لي بحبه الجّم وأنه يحبني منذ آجل بعيد ومن أول نظرة إلتقت عيني بعينه.. ولم يكتفِ بذلك وإنما قبّلني على خدي الأيمن! ووجدت ملامح الخجل قد إرتسمت على وجهها البريء.. وقلت لها: هل أنتِ تعرفينه من فترة طويلة؟ قالت: نعم. إنه صديقي في العمل وكان زميلي في كلية الطب وقبل ذلك كله هو جاري في البيت. قلت مندهشًا ولم تعرفي أنه يحبك إلا الآن ولم يقل لكِ شيئًا مع أنه يعرفك منذ فترة طويلة..؟!! قالت: لا أعرف سبب إخفائه لذلك الحب. ولكني بصراحة أحبه منذ أن وقعت عيني عليه وعشقته منذ تكلم معي. ولكني قد إستحييت أن أصرح له بحبي لأحفظ منظري أمامه وقبل ذلك أمام نفسي.. قلت لها: معكِ حق. ولكني عزيزتي لا أستطيع أن أفهم لم قد تأخر في تصريحه بعشقة وحبه كما قال!! وعندما رأت تردد الكلام على حافة لساني قالت أرجوك لا تتردد في كلامك ولا تنتقي ألفاظك وقل ما تريد كما تريد. فقد جئت لك لتقول لي رأيك وما ترى، وليس ما أريد!

قلت أنه من الواضح أن حبك له هو - الحب الرومانتيكي

- .الحب الذى تحلم به كل فتاة وتنتظره وتنتظر معه فارس الفرسان وحصانة الأبيض الذى يأخذها عليه من هذا العالم الموحش والذى يحقق لها أحلام يقظتها وأحلام نومها.. الحب الذى رأته فى الأفلام والمسلسلات وقرأت عنه فى الروايات...

الحب الرومانتيكي هو إلتقاء روحين.. ونصفين.. قد كان كل منهما فى نقطة بعيد كل البعد عن الآخرى.. فهو فى الشمال وهي في الغرب.. وهي في الشرق وهو في الجنوب.. ويصبحا قلبًا واحدًا بدل اثنين... وحياة واحدة بدل حياتين...

الحب الرومانتيكي مبني غالبًا على الخيال الجارف كما وضحت منذ قليل. وكلمة رومانتيكي مأخوذة من الكلمة الأجنبيه «رومان»وتعني القصة الخيالية. ولذلك فأعمدته خيال وطوبه خيال وملاطه خيال وحتى البناء يكتمل في الخيال...

الحب الخيالي هو الذى يجعلك لا ترى فى الشمس إلا دفئها، متناسيًا حرارتها اللاسعة.. ولا ترى فى القمر سوى ضوئه الأخّاذ دون أنه جسم معتم.. وفى الورد لا يوجد فيه غير منظره الجذّاب ورائحته المنعشه دون شوكه.. ولا يرى فى الحبيب أي عيب أو شيئٍ ينقصه. وذلك هو عيب هذا النوع من الحب، وهو أنه يصور الحبيب على أنه كامل، والكمال لله وحده وينسى المحب أن الذى يحبه هو بشر مثلنا جميعًا؛ به العيوب والمميزات وفي أقرب مواجهة بينهما على أرض الواقع تنكشف الحقيقة الصادمة وهي أنه بشر! ما هذة العيوب؟ ومن أين جاءت؟ ومتى؟ فهى لم تكن موجودة من قبل! والحقيقة أنها كانت موجودة وليست حديثة عهد به ولكن كما يقولون»مرآة الحب عمياء!»

فهزّت رأسها لتبدي إعجابها بالكلام ولكن ليس اقتناعًا به أو موافقة عليه ولم تقل شيئًا غير كمّل.. قلت لها: في كلامه دليل

على براءة حبه وأنه حب رومانتيكي كذلك، ولكن ما فعله يفزعني لأنه يدل على نوع آخر من الحب... ووجدتها قد إشرأبت برأسها، ولامعت عينيها..، وارتجفت يدها.. وقالت وما هذا النوع...؟!

قلت وأنا مشفق عليها من كلامي هو»حب الجسد». هو الحب الذى تخافه كل فتاة وترتعد منه. الحب الذى يكشف عن طبيعة الرجل وطبيعة جنسه. فالرجل بطبيعته يستهويه جسد المرأة قبل عقلها.. ويلمس يدها قبل قلبها.. وتقع عينيه على ما هو عار من جسدها قبل المغطى منه ولا يهتم كثيراً بما ترتديه وألوانه وأناقته بل هناك من يرى أن الأجمل أن تخلع تلك الأشياء التى تضعها عليها من قدمها حتى شعر رأسها. فلا داعي لأوراق التوت؛ فكلنا أولاد آدم.. إنها طبيعة الرجل ولا دخل له فيها. وهناك حقيقة علمية تقول: «أن المرأة أقل «حسية»وأقل»شهوانية»من الرجل». إنها الطبيعة ولا دخل لأحد فى الطبيعة. والطبيعة دائمًا هي الأجمل ولا عيب فيها لأنها الفطرة التى جُبلنا عليها

.

أعلم أن الجسد ليس عيبًا. ولا حتى كلمة الجنس تعيب من يستخدمها. فالجسد هو حامل القلب الذى هو مخزن العاطفة. وباعث الحب والصدق وكل شيء جميل أو حتى غير جميل. والجسد ككل شيء ذو حدين. ولكني أخشى من أن يكون الجسد هو الغاية والهدف من إخراج كلمة الحب...

وعندما إنتهيت من كلامي وسكت وجدت أن جبهة رأسها قد إنكمشت وضاقت عينيها؛ لتبدي صدمتها من كلامي أو ربما لتعلن أنه جديد عليها ولم يأتِ إلى ذهنها قط. بل كيف أني أقول ذلك عن الرجال وأنا منهم.. كيف يحكم أحد بإدانته؟!

وقالت: بس ممكن اللي هو عمله ده ومخليك خايف كدة قد فعله

بدافع الحب الزائد والألفة والإحتياج الشديد للقلب الذى إحتواه والذى قد بات يحلم بلقائه!..

وسكتُ قليلا أفكر فيما قالت ثم قلت: معكِ حق. ولكن ذلك إحتمال.. والإحتمالات وادرة. وهو مجرد إحتمال أضعه في رأسي لأكون منصفًا. ولكن يا عزيزتي لو أنه اكتفى بتقبيل يدكِ لكان دليله أعمق وإحتماله أقوى. ولكن ما أعقب ذلك يقلق ولابد أن يُوضع فى الحسبان..

وقلت أريد ان أقول لكِ شيئًا آخر وهو ليس دفاعًا عنه ولا هجومًا عليه. لا تنسي أنه شباب، والشباب مندفع دائمًا ومتسرع فى تفكيره وأكثر سرعة فى تنفيذه لأي شيء.. وربما ما فعله كان اندفاعًا منه وتسرع نتيجة زيادة فى حبه وعدم قدرة عقله على استيعاب ما حدث...

إنني قد قلت لكِ ما بداخلي وما يدور في رأسي وما يجب أن يُوضع في رأسك أنتِ.. وتفكري فيه جيدًا. وقد تكلمت معكِ بصراحة وبعفوية مطلقة؛ لأنني أخشى عليكِ من أي شئ.. وأحب الخير لكِ.. وأود سعادتك الدائمة وليست المؤقته الزائفة...

قالت: بالرغم من أن كلامك قد أثار فزعي وأحدث اضطرابًا في داخلي.. وهيجانًا فى كرات دمي حتى أصبحت مواجات عالية... إني أعدك بصدق أنني أفكر في كلامك جيداااا...

هل تعتقد أنها ستتصل بي مرة أخرى؟

لا علاقة للحب بالحلال والحرام؛ إنما أنت! أي أنت من يختار هل ستكون إنسانًا وتتصرف ببشرية سليمة أما تختار طريق بهيمي بحت لا يمط للعقل بأية صلة.. ارتق بروحك وكن ما تجب أن تكون وتود أن يكون غيرك معك.. يا أهل العشق أنتم من يخلقون الإنسانية فلا تكونوا من يقتلها.. وحينها يصدق عليك الأغنية الرائعة

للفنانـة نجـاة الصغـيرة :
عاليادي اليادي اليادي يا قلوب متداريّة
ياما جرح الورد أيادي حتى الجناينية

obeikan.com

كونوا بشرًا (٤)

كلام الناس

« الآخرون هم الجحيم!» جان بول سارتر

والآخرون موجودون في كل مكان

وهم الذين يتسببون في شقائنا.. وتعبنا.. وتقلبات مزاجنا...

هم الذين يحاصرون خطواتنا.. ويراقبون كلامنا.. ويتجسسون على أحلامنا...

لا مخرج...

من أجمل ما يميز الحب أنّه لا وجود للمعنى السلبي للآخر؛ فلكل منهما شخصيته وأفكاره وإن كانت موافقة للحبيب، ولكن كل من العشاق ينظر للمحبوب وكأنه نصفه الثاني أو نسخة منه. فقد جرت العادة، أنّ الأخر هو عكسنا وأننا في صراع دائم معه، حتى لو كنّا لا نعرفه! وقد لا حظتُ، كثيرًا، أنّ العلاقة بين حبيبٍ ومحبوبته، أو خطيب وخطيبته، أو حتى زوج وزوجته لا تتفكك ولا تنحل عقدتها إلا عند دخول ثالث بينهما.

رأيتُ العاشقين في بهجة ازدهار ورود البساتين في أيام الربيع، واحتضان النهار لظلمة الليل حتى يخفيه بداخله إلى أن أتى ثالثٌ، فتبدلت الأمور رأسًا على عقب.. واجتُثت الورود.. وزُرعت الأشواك.. ونمت المخاوف.. وتلوثت الضمائر.. وكل واحد شاح بوجهه عن الآخر، ودبّت المخاصمة بينهما وتعالت الأصوات تشير إليهما وتتحسر لهما، وتسخر منهما. تلك الأصوات التي خنقت الحب تسير في جنازته والدموع تترقرق من مقلتيها.

بل لم يتوقف الأمر على المرتبطين؛ فقد وصل إلى البيوت وبين المتزوجين، وأفسد الوئام القائم بين أسرتين منذ سنين.

أعـرف سـيدة عندمـا تزوجـت حديثًـا، وكان ذلـك منـذ سـنين، بـدأت صديقـة لهـا تَمُـنُّ عليهـا بنصائحهـا الخالصـة لوجـه اللـه والصداقـة والمحبـة القائمـة بينهـما. وكان زوجهـا يعمـل حينهـا في شرم الشـيخ! فقالـت لهـا: عاملـة أيـه وأخبـار «جـوزك» أيـه معـاكِ؟ فقالـت بحسـن نيـة: الحمـد للـه، وبصراحـة مـش مخـلي نفـسي في حاجـة! وعندهـا تحفـزت الآخـرى لتلقـي عـلى مسـامعها نصيحتهـا الثمينـة قائلـة: خـلي بالـك مـن «جـوزك»، واطلبـي منـه عـلى طـول علشـان ميحسـش إنـك مـش عايـزة حاجـة و»يتغـر»! ثـمّ أكملـت جلسـتها وذهبـت.

فقد أسدت الجميل المترقب

وجلسـت السـيدة التـي أعرفهـا في جِلسـة يسـاورها الخـوف ويزيـد لهيبهـا الشـيطان

وفي إجـازات زوجهـا كانـت تطلـب منـه «فلـوس» وكان يعطيهـا دون أن يسـألها حتـى لمـاذا! وتكـرر أكـثر مـن خمسـة أجـازات حتـى أصبـح معهـا ألفًـا وخمسـمائة جنيـهٍ!

وفي إحـدى الإجـازات دخـل زوجهـا ليخـرج عباءتـه من الـدولاب، فوجـد الفلـوس واندهـش؛ فهـو لم يضـع هنـا هـذا المبلـغ! لم يأخـذه بـل رجعـه مكانـه وخـرج ولم يقـل شـيئًا! وعندمـا عـاد مـن خروجتـه، وعـلى الغـذاء قـال لهـا: هـو في حـد شـايل معـاكِ فلـوس؟ قالـت: لا، لِـمَ؟ فقـال: لأنّ في فلـوس في الـدولاب وأنـا مـش شـايلها! فقلـت مضطربـة: دي فلوسي! فسـألها: منـين؟ ردت: التـي كنـت أسـألك إيّاهـا! فسـألها مشـدوهًا وليـه مكنتيـش بتصرفيهـا؟ فقالـت: علشـان فلانـة قالـت لي كـذا وكـذا!! وأنـا لم أكـن أريـد شـيئًا، فكنـت أخـذ الفلـوس واشـيلها!!

بالطبع يمكنك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث؟!

ولكـنّ زوجهـا كان «غريبًـا» وأكمـل لهـا عـلى المبلـغ واشـترى ذهبًـا!!

بكل المقاييس محظوظة.. ولكن هذا ليس ما يهمنا...
والمقصود هو أنّنا نسمع لكلام الغير وكأنّه لا محالة صحيح حتى مع علمنا بخطأه.. ولكنّها فلسفة «الفأر بيلعب في عِبّي!» والمرأة، للأسف_وليس للذم ولكنّها حقيقة، لديها حاشيتها من الفئران التي دائمًا بحوذتها! والإنسان يميل، غالبًا، إلى تكذيب نفسه!
والمرأة عند الأمور المتعلقة بالقلب، تطبق المبدأ السقراطي القائل: بأنّ خطأً واحدًا يؤدي إلى الإعدام! والفيلسوف طبقه على نفسه ورفض الملاذ والفرار. فهي ترى أنّه ليس مجرد خطأ، إنّه خيانة.. استهتار بمشاعرها.. إنّه زنديق في محراب العاشقين. ولذا فالكثير من الأحبة والأزواج تفرقوا من بعد قوةٍ لأنّ كل منهما سمح لثالث بالولوج بينهما. وعاصرتُ من اسودت حياتهما لكلمات من غيرهما. من المتعارف عليه في صفات الإنسان البلهاء أنّنا نفضل الضرر بأنفسنا على أن نسمع كلمة واحدة من أحد. أي ماذا سيقول الناس؟ كلام الناس! نرى أنّ الحياة هي الناس ولا بُد من مراعاتهم. نعم، كل ذلك صحيح ولا مفر من مراعاة القواعد الإجتماعية والأخلاقية والأسس البنائية للمجتمع.. ومع ذلك، فإنّ أي مجتمع لا يبالي بأفراده لا يليق بأن يكون مجتمعًا.
هذا المجتمع الذي منع أبي طالب عمّ النبي، صلي الله عليه وسلم، من نطق الشهادتين وتفضيل الموت على الكفر عن الإسلام الذي يعلم علم اليقين بأنّه منزل من عند الله. لأنّه فكّر في كلام الناس! وماذا سيقولون بعد موته، مع إنّه سيكون ميتًا أي لن يؤذيه كلامهم!! وقد ذكر ذلك المصطفى، صلى الله عليه وسلم، في حديثه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا عماه قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، فقال: لولا أن تعيرني قريش يقولون: ما حمله عليه إلا

جـزع المـوت، لأقـررت بهـا عينـك، ولا أقولهـا إلا لأقـر بهـا عينـك، فأنـزل اللـه عـز وجـل: (إنـك لا تهـدي مـن أحببـت ولكـن اللـه يهـدي مـن يشـاء وهـو أعلـم بالمهتديـن).

بـل إنّي أذكـر زميـلًا لي في الإبتدائيـة ونحـن لا نـزال في مهـب الريـح، ضرب زميـلًا آخـر! ولمّـا سـأله المـدرس عـن السـبب؟ قـال: «علشـان قـالي: لـو راجـل اضربنـي!» ولمّـا اندهـش المُـدرس وقـال لـه: يعنـي تضربـه علشـان قـال لـك ذلـك؟! قـال مـصرًا: أيـوه.. علشـان أعرفـه إني راجـل!! تلـك هـي طبيعتنـا للأسـف التـي نكـبر عليهـا ونشـيب وهـي عالقـة بشـخصيتنا ولا يفـر مـن قيودهـا إلا مـن رحـم اللـه.

وحتـى لا نـشرد عـن موضوعنـا.. بـل إنّنـا في الحـب قـد نجـد مـن يكابـر ويعانـد ويقتـل براعـم مـن المشـاعر.. ويطـأ بقدمـه الحشـائش العاطفيـة غـير مبـالٍ بمـا يمـوت تحتهـا.. كل ذلـك «علشـان النـاس هتقـول أيـه؟! نجد الأب يحـرم الابـن مـن محبوبتـه علشـان النـاس هتقـول سـاب بنـت عمّـه وراح تـزوج واحـدة يعرفهـا مـن الكليـة أو في الشـغل! والأم تـزن وتـردد عـلى ابنتهـا رغبتهـا في ارتباطهـا لأنّ النـاس بـدأوا يقولـوا: إنّهـا عانـس! وأكاد أقسـم أنّهـا قـد لا تتجـاز العشريـن.. وإزاي بنـت فلانـة ارتبطـت ومـش حلـوة زيهـا وهـي لسـة لحـد دلوقتـي.. مـن المُحـزن المدمـي للقلـب والعقـل والعـين أننـا السـبب! نحـن مـن قتلنـا نفسـنا. كـما قـال الفيلسـوف الإيطـالي فريدريـك نيشـتة عـن فكـرة الإلـه: «أنّ الإلـه مـات. ونحـن مـن قتلنـاه!» وأنـا أكـرر ورائـه في صيغـة أخـرى:» إنّ بشريتنـا ماتـت. ونحـن مـن قتلناهـا.. بـل وبكينـا عليهـا بدمـوع تماسـيح.. وسرنـا في جنازتنـا نتحسـر عـلى بعضنـا.. كل منّـا مطمـئن أنّـه ليـس السـبب.. فبـكل تأكيـد ليـس أنـا وبالطبـع ولا أنـت... إذن فمـن؟!» حتـى أننـا عندمـا نتشـاجر لا يلفـت انتباهنـا، إلّا نظـر الآخـر لنـا وحدتهـا. ونسـمع كثـيرًا مـن يقـول: متبصـش ليّ كـده! أنـت هتخوفنـي ولا أيـه! مبخفـش! وفي الحقيقـة

هـو خائـف وأنـت وأنـا أيضًـا! نحـن مرعوبـون مـن نظـرة الآخريـن لنـا ومـا سـيقولوه لـو لم نـرد عليهـا الصـاع صاعـين. وبتلـك الفلسـفة البهيميـة خلقنـا أمراضنـا الإجتماعيـة وصرنـا نتخبـط بـين جـدران المجتمـع متلمسـين الـدواء.

وعندمـا نحـب، نكـون أخجـل مـا يكـون عنـد النظـر في عـين مـن نحـب؛ لأنّ نظرتـه تلخبطنـا.. تربكنـا.. تشـل تفكيرنـا.. ونفكـر في شيء واحـد مـاذا يـرى؟ هـل يـا تُـري شـعري مضبـوط؟ وملابـسي مهندمـة؟ يـا تـرى هـل أنـا أنثـى كـما يحـب؟ هـل يلفـت نظـره أنّ عينـي ليسـت زرقـاء مثـل زميلتـي فيذهـب لغـيري؟ أم أنّـه يفكـر في وزني! يـا تـرى هـل تـرى مهنـد وتامـر حسـني وأحمـد حلمـي أفضـل منـي؟! هـل.. مـا.. يـا تـرى.. كيـف.. آه.. كل ذلـك يـأتي في رأسـنا ونحـن ننظـر نظـرة واحـدة في عـين مـن نحـب. وكان بـودي أن أقـول معـك: أنّ ذلـك ليـس صحيحًـا، ولكـن صدّقنـي إنّـه صحيـح وواقعـي؛ فالواقـع الآن هـو أداة الخيـال.. وقـد بـات الواقـع أغـرب وأفظـع أحيانًـا مـن الكوابيـس.

يُقـال إنّ في حادثـة سـيدنا يوسـف، عليـه السـلام، وزُليخـة امـرأة العزيـز عندمـا أغلقـت الأبـواب ونزعـت قميصهـا وتلفتـت تلقيـه وراءهـا، ارتاعـت عندمـا وجـدت تمثـالًا يصـوب عينيـه نحوهـا، ينظـر إليهـا.. يراهـا عاريـة.. يكشـف عورتهـا.. يسـمع آهاتهـا.. ويشـعر برغبتهـا.. فأخـذت القميـص وألقتـه عـلى عينـي التمثـال، ثـم أقبلـت تفتـن سـيدنا يوسـف.. فنظـر إليهـا نبـي اللـه مسـتنكرًا قائـلًا: هـل تخافـين مـن عينـي تمثـال، ولا تخافـين اللـه الـذي ينظـر إليـكِ!

نعـم.. لأنّهـا لم تفكـر للحظـة فاللـه عزوجـل.. أمّـا التمثـال فرأهـا ورأى انتفاضـة جسـدها.. ورعـدة فؤادهـا.. وهـي تسـمعه وتـرى نظرتـه الحـادة الجامـدة الصلبـة المتصلبـة عليهـا.. يذمهـا.. يشـتمها.. يوبخهـا.. يلعنهـا.. يقذفهـا.. بـل قـد يفـتن عليهـا لزوجهـا!

للأسف.. جعلتنا وجهات نظر الناس وطرق تفكيرهم وسوء ظنهم، نخشى السير في الطريق أمامهم والحديث بجوارهم. فكلنا نعرف أنّ الناس هتتكلم! أيّها الناس اتركوا الآخرين في حالهم؛ كي يتركوكم في حالكم. ولا تحكموا على أحد دون العلم بأسبابه ودوافعه وأسراره. لا تلقوا اللوم على أحد؛ فأنتم السبب! المطلقه .. تخشى كلام الناس! .. الأرمله .. تخشى كلام الناس! .. العاطل عن العمل .. يخشى كلام الناس! .. الفقير .. يخشى كلام الناس! العانس .. تخشى كلام الناس! .. الناس يخشون من كلام الناس !

أرجوكم لا تتركوا المجتمع يموت كافرًا خشية كلامكم عنه بعد موته!

كنتُ قد نويتُ أن أكتب مقالًا بعنوان: مفاهيم شيطانية عن الحب، ولكنّي لم أكتبه أو لم أكمله. وذكرتُ فيه: أنّ زميلٌ لي في العمل عندما كنت أعمل في إحدى شركات الإتصالات، وكُنّا غالبًا ما تنتهي ورديتنا في حوالي الثالثة أو الرابعة فجرًا! وفي إحدى المرات، قال هذا الزميل لي متأسفًا: عارف.. الواحد اتعلم حاجة مهمة أوي من الشغل ده في الحياة. فقلت له: ما هي؟ فردّ قائلًا: الأول كنت لما أسمع إن في بنت أو حد بيكلم حبيبته بالليل كده أو متأخر يعني، كنت بقول عليه: قليل الأدب! لكن.. دلوقتي عرفت إنّه ممكن يكون أصلًا خطيبها شغال شغلانة زي بتاعتنا دي وبيخلص متأخر أوي كده.. وهي من فرط حبها تنتظره وتقاوم النوم وتجلس وحيدة بعد نوم البيت كله؛ لتطمئن عليه. وكلامه صحيح مائة بالمائة.

والمقصود هو أنّنا لا نعرف أسرار الآخرين وأسبابهم، وحريٌّ بنا ألّا نصدر الأحكام عليهم عشوائية أو بطريقة حيوانية خالصة لا تمت للآدمية بصلة. والدائرة مستمرة وغدًا سنقع تحت وطأة كلام الآخرين. وتأكدوا أنّ كلامكم عن الآخرين يضايقهم ويخنق صدورهم؛

وقد أكّد ذلك القرآن الكريم في وصف حال النبي صلى الله عليه وسلم قائلًا:»وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ»

وأخيرًا وليس أخرًا، لِمَ نلتفت للآخرين ونحن نعرف جيدًا أنهم لن يرضوا عنا مهما فعلنا وبذلنا من جهدٍ وأنفقنا من راحتنا لإرضائهم؟! وكما يقولون في المثل الشعبي المُتداول: «كلام الناس لا بيودي ولا بيجيب!» ولن يتفق الناس على شيء أو إنسان ولا إله! والشاعر يقول في هذا الصدد:

والله لو صاحب الإنسان جبريلا لم يسلم المرء من قال ومن قيلا
قد قيل فى الله أقوالاً مصنفةً تتلى إذا رتل القرآن ترتيلا
قد قيل أن له ولداً وصاحبةً زوراً عليه و بهتاناً وتضليلا
هذا قولهم فى الله خالقهم فكي ف لو قيل فينا بعض ماقيلا

في صغرنا كان ثمة قصة رمزية نقرأها في الكتب المصورة تأكد هذا المعنى وأنّ السير وراء كلام الناس ومتابعته سيأخرنا عن الركب ويضيع منا فرصًا لن تعوض. كانت القصة تقول: هناك مجموعة من الضفادع الصغيرة تشارك في مسابقة كان الهدف منها الوصول إلى قمة أحد أبراج الغابة .. وقد حضر المسابقة حشدٌ من جمهور الضفادع لمشاهدة السباق وتشجيع المتسابقين ورفع معنوياتهم، وبدأ السباق ، وقد بدا على الحضور قناعة أنّه لا أحد من المتسابقين سيحقق المهمة ، ويصل للقمة ويفوز، وبدأت تعليقات الجمهور تصل إلى مسامع الضفادع المشتركة في المسابقة، ومن هذه التعليقات: أنه يستحيل وصولهم للقمة وأنه لا أمل فى ذلك لأن البرج مرتفع جدًا .. وواحدًا تلو الآخر ، بدأت الضفادع تسقط باستثناء واحد أخذ يرتفع ويرتفع ولا يستسلم حتى تمكن من تحقيق الفوز في المسابقة، ووقتها

أراد الحضـور والمتسـابقون معرفـة السـبب الـذي جعـل هـذا الضفـدع يصمـد ويصعـد الى النهايـة ، فكانـت الحقيقـة أنّ الضفـدع الفائـز كان أصـمًا ولا يسـمع .. فهـو لم يعـرف مـا قالـه النـاس ولذلـك لم يتوقـف عـن إكـمال السـباق.

نعـم لنغلـق أذاننـا ولا نسـمع إلّا لمـا يحفزنـا إلى هدفنـا ويوضـح غايتنـا. أرجوكـم، لا تنتبهـوا إلى الحفـر وأنتـم صاعـدون القمـم.. ولا تنظـروا للسـفح وأنتـم في صـوب القمـة.

obeikan.com

الحب بين النور والظلام

«قالت: أي تشبيه أقرب في نظرك للحب..؟ النور لابد منه لاستمرار الحياة. فهل الحب كالنور..؟ إذا غاب النور يمكن أن يتفنن المرء فى إختراع شئ لإنارة كهفة أو مآواه ولكن هل يمكن أن يعوض الحب بشئ آخر..؟هل يمكن أن يندثر الحب.. أويموت.. أو حتى يصل إلى مرحلة الإحتضار..؟

«قلت: إن أقرب تشبيه عندي للحب هو: أنه كالشمعة التي إذا ضيّقت عليها وأحجبت عنها الهواء، إنطفأت وأظلم كل شئ.. وإذا تركت لها السبيل وتسلل لها الهواء بكثرة وبشدة، إنطفات أيضًا فأظلم كل شئ. الحب هو النور الذي ينير القلوب والأفئدة، ولكنه يختلف عن النور الأخر فى أنه لا يمكن إنارة القلوب بسواه. هذا النور يمكن أن يتحول إلى ظلام دامس. لو كان من البداية ليس حبًا ولكننا أطلقنا عليه الحب بدافع الحب! قد يتحول كذلك إلى ظلام دامس إذا تواجد من يخنقه ولا يسمح له ببعض نسمات الهواء التي تساعده على الإشتعال. ولو تواجد من يترك له الحبل على غاربه. فتنتهك باسمه الأعراف.. وتضيع تحت طائلته القيم والتقاليد.. وتموت الأخلاق بعد أن تعاني من سكرات الإنحلال.. عندئذ يمكن أن نقول بأننا قد خنقنا الحب وأوشك على الإندثار وتركناه يحتضر.. يتلوى ألمًا.. ناظرين إناه. بعد أن فقدنا كل ما لدينا لإعادته للحياة والنور. تجهمت قليلًا.. ونظرت_هي_ إلى رأسي بطرف عينيها، وكأنها تستنكر وتندهش مما قلت.. ثم نطقت أخيرًا قائلة: كيف لصاحب البستان أن يجني على زهراته..؟! ولزارعٍ أن يقتل نبتته..؟! قلت: الجنينى أو صاحب البستان لو أهمله فقد جنى عليه دون أن يشعر، وكذلك الحب لو أهمله صاحبه فقد جنى عليه. ولو رأى أن بستانه ينقصه الكثير عن غيره فقد ظلمه وشرع فى القضاء عليه؛ لأنه

سيهمله إلا لو رأى أن ما ينقصه هذا يمكن تعويضه وشرع في ذلك. وأيضًا، لو رأى أحدهما عيوب الأخر لأنه صوّب نظره إلى غيره فهى بداية النهاية.. وأكذلك لو أسرف ذاك الزارع في إضافة ما يقوي نباته فقد قتله دون أن يشعر. والحب هو نبات لو أسرف صاحبة فيه دون جدوى وحاجة فقد بدء في النهاية على حين غرة من نفسه!..

وخلاصة القول لأريحكِ من كلامي: هو أن الحب يحيا بالمبالاة ويموت باللامبالاة. ويمكن أحيانًا أن يحتضر بالمبالاة المغالة فيها.. أود فقط وآخيرًا أن أقول لكِ بأن الحب يفصله عن الظلام شعرة لو دامت: ظل في النور ولو أزيّلت دخل فى الظلام، ولذلك فالحب بين النور والظلام!!

*****

كثيرًا، ما انهالت عليّ أسئلة تتعلق بالحب. ما رأيك في الحب؟ هل الحب حرام أم حلال؟ هل تحب؟ ما هي مواصفات فتاة أحلامك؟ هل من الممكن أن تتزوج فتاة أقل منك في المستوى التعليمي أو الثقافي؟ هل شرط أن تكون جميلة؟ تفضل أن ترتبط بمن تحب أم من يحبك؟! الحب الذي نراه في الأفلام.. تعتقد أننا قد نجده في الواقع؟! وغيرها من الأسئلة التي لا تبت فيها إجابة واحدة! فلكلٍ منا إجابته وفكرته.. ورؤيته.. وحبه.. وتصوراته..

لا أتذكر كم مرة سألني أحد أي سؤالٍ من تلك، دون أن أصمت لثوانٍ أو ربما بضعة دقائق للإجابة. فهو يسألني عن الحياة والموت.. الألم والراحة.. السعادة والتعاسة.. الأمل واليأس.. والقوة الضعف.. الحب والفراق.. الجنة والنار..

ولا أتذكر كذلك مرة إلا واستهللتُ كلامي بأن ما سأقول لا يعبر إلا عن رأيي أنا_أنا فقط. فالدين منه براء.. والحب على حدٍ سواء.. فأنا لستُ أهلًا للفتوى! فأجرأكم على الفتوى، أجرأكم على

النـار.

لي مقـولات عـن الحـب والمـرأة والـزواج وكل مـا سـألني عنـه أصدقـائي ومـن لاقـاني في أي مـكان.. لا أقـول أنهـا كل إجابتـي عـن تلـك الأسـئلة لكـن عـلى الأقـل هـي جُلها! فـلا أريـد أن أثقـل عليـك ولا أن أضايقـك، فسـأحاول أن أكـون موجـزًا.. صادقًـا.. حقيقيًـا.. وأطلـب منـك ألا تـراني مبالغًـا أو مهرجًـا! فبعـض المقـولات حـدث معـي ومـع غـيري وبعضهـا قـد يمسـك والأخـر يمـر مـرار الكـرام أو حتـى لا تشـعر بمـروره! أطلـب منـك أن تفهـم وتحـس وتفكـر..

الحـب بالنسـبة للمـرأة كجهـاز التنفـس، عنـد الرجـل كالمسـكن وقـت الـلازوم!!

جميل أن تحب، الأجمل أن تجد من يحبك.. والأفضل الاثنين معًا!!

الحب هو التعب الوحيد الذي لذته في ألمه وتعبه!!

الحب هو مفتاح كل شيء في الدنيا!!

المأذون هو طبيب الأحبة!!

العشاق هم أعقل المجانين.. وأحيانًا أصدق الكذابين!!

الزواج: أول أعراض الشيخوخة!!

المرأة إذا سكتت أذت، لكنها إذا تكلمت أذت أكثر!!

المرأه تنظر لكلامها على أنه مصلحة عليا ولا يمكن مخالفته!!

الحب الأول كالوشم لا يزول نهائيًا ولكنه يترك ندوبًا عظيمة!!

الحب الأول هو الحب الذي نندم عليه كثيراً!!

أضعف ممن يعتمد على الناس، من يعتقد أنه أقوى بدونهم!!

لا أعرف شيئًا له سلبيات فقط!!

أحببتـك، ولكـن ليـس كحـب البـشر؛ فأنـت كـماء حيـاتي وضيـاء نهـاري.. وإقبـال ليـلي.. أحببتـك دون أن أشـعر. أحببتـك رغـم أنفـي.. وجـدت معـك نفـسي، وجـدت معـك أشـياءًا بحثـت عنهـا فلـم أجدهـا سـوى معـك

أنـت، لذلـك أحببتـك ولكـن ليـس كحـب البـشر!!
وجـودك في مـكانٍ مـا يضفـي عليـه بريقًـا... ويكسـبه دلالـة.. ومعنـى.. يفتقدهـم بغيابـك!!
هنـاك أشـخاصٌ.. هـم كالعطـر في حياتـك؛ مجـرد مـرور طيفهـم عـلى خاطـرك.. كفيـل بإسـعادك!!
من يقولون لنا:عيش لك يومين، لم يقولوا لنا: وماذا بعد اليومين؟!
المشـكلات والصعـاب في حياتـك كإشـارة المـرور، توقفـك برهـة لتنطلـق بعـد ذلـك!!
لا أعـرف وقتًـا ينقطـع فيـه الأمـل مـن حيـاتي، إلا حـين تنقطـع أنفـاسي.. ولا أرجـح ذلـك؛ فعندئـذ عنـدي أمـل في دخـولي الجنـه!!
الحـب مـن طـرف واحـد كالـذي يـشرب السـيجاره يخـسر الاثنـين: صحتـه والسيجارة!!
الرجل يتعلم الكذب في الخطوبة ويتوب بعد الزواج!!
معظم الرجال لا يدركون أنهم فقدوا فتاة أحلامهم إلا بعد الزواج!!
مـن الطبيعـي لـدي أن أخطـئ، ولكنـي مازلـت أحـاول إقنـاع غـيري بطبيعـة بشريتـي المخطئـة!!
المرأة والزواج: تهذيب وإصلاح وإفلاس للرجل!!
الحب اليومين دول: إدمان فيس، فلس جيب، خناق فى البيت!!
لحظة الفرح والسعادة هي لحظة خروج الطفل الذي بداخلنا!!
لا تبحـث عـن السـعادة؛ يكفيـك أن تسـير في طريقهـا! ولكـن أيـن طريقها؟ هـو السـؤال الـذي يجـب أن تجيـب أنـت عليه!!
لا يغلب المرأة غير الحب!!
المرأة بلا أخلاق كقصر يسكنه الأشباح!!
الفشـل في تجربـة مـا هـو ليـل مظلـم، يمكنـك إنارتـه بمصبـاح الإصرار عـلى النجاح!!

الـزواج كامتحانـات الثانويـة العامـة إم أن تطـير مـن الفرحـة أو تحـاول أن تطـير مـن الدنيـا!!

المـرأة تنظـر لدورهـا في البيـت عـلى أنـه سـلطة تشريعيـه والرجـل سـلطة تنفيذية!!

بعض النساء: وزارة المالية في يدها تصبح هيئة المساعدات الخارجيةَ!!

إذا أردت أن تعيـش حيـاة بـلا مشـاكل ولا تعـب ولا كـدر، فعلـم أنـك تحلـم بالحنـة!!

شاب اليومين دول مثقف ومنظم ويحترم وقته..غريبة دي!!

قَّل للمرأة كلمة جميلة ثم أطلب منها ما تشاء!!

إذا وجـدت أن مـن حولـك يشـعرون بوجـودك بينهـم أكـثر مـن نفسـك: فهـذا دليـل عـلى شـيئين: تفكيرعميـق أو حـزن أعمـق!!

إذا كان الحب من أجل الحب فليس حبًا!!

قال لي: ابقى قابلني لو فلحت!.. وانتظرته طويلًا ولم يأتِ حتى الآن!!

جوّايا أسئلة كتير تحير الخبير...

جوّايا كلام كتير يتعب المفسرين...

جوّايا ناس كتير تصرخ تقول أنا مين؟!

جوّايا إجابات كتير بس مش كافين..!!

المـرأة تفضـل الـزواج مـن مـدرس تاريـخ لأنـه سـيتذكر كل التواريـخ في حياتهـما!!

المرأة تنظر للأمور غالبًا بميكرسكوب فترى ما لا يراه الرجل!!

الغيرة متعبة ومريحة: تتعب صاحبها، تريح من يستقبلها!!

أغرب من قابلت في حياتي.. حياتي!!

الرجل لا يذهب للمأذون سوى مرة واحدة ومعه قلبه وعقله!!

نحن أساتذة في الحزن، تلاميذ في الفرح!!

ليتنـي أعـرف مـا هـو ذنبـي لأجـد منـكِ ذلـك! هـل لأننـى أحببتـك

obeikan.com

بصدق؟ أم لأنني بوحت لكِ بحبي البريء؟ أم هل لأنني كنت أرى فيكِ أشياءًا أعتقدتُ أني سأجدها معكِ؟! ربما لأني استعذبت العذاب على يدكِ؟ لازلت أجهل الحقيقة! حقًا ليتني أعرف!!

أهم شيء في الصيد: الصبر.. وكذلك في الزواج!!

بعض الرجال ينسى أنه تزوج زوجته! فحماته قائمة بالواجب!!

إذا كان الزواج سجنًا، فالحماة هي السجان!!

أولادي: أعتذر لكم نيابة عن ماما لأنها لم تُحسن إختيار والدكم.. مساكين!!

زوجتي: لكِ الجنة.. تعلمين لماذا!!!

حماتي: أشكرك على أكبر حسنة في حياتك: زوجتي!!

الدموع هي الإنسانية التي بداخلنا!!

الحب لا يعرف ضوابط.. فالمتعلم يتزوج الجاهلة.. والمثقف يعشق البليدة.. والجاهل يتزوج المتعلمة!!

المرأة تقيد الرجل وتطلب منه أن يجري وراءها!!

الزواج هو ضريبة الحب!! أو هو عقابه!!

«جبنا عروستك.. وسيبنا حماتك!» لا أعرف كيف يتجاهل أصحاب شركات توفير شريك العمر هذة الفكرة التي تجلب لهم ألآف الجنيهات والعملاء!!

«الوقت كالسيف»، وفي الحب كالسوط!!

العشاق هم من يجيدون الحياة في المدينة الأفلاطونية الفاضلة!!

ليس صحيحًا أن القلب والعقل لا يلتقيان في الحب؛ إنهما غالبًا لا يعرفان الطريق وكلاهما في حاجة للأخر!!

عندما أحببتكِ.. سرقتي قلبي! وحينما فارقتني.. سلبتني عقلي!!

لا تسأل عن الحب قبل أن تقع فيه.. وإذا وقعت فيه، فلا تفكر أن تسأل!!

obeikan.com

نصيحة أخوية: تعرّف على حماتك قبل مراتك!!
ليتها تقرأ، ليتها تقرأ لخالد الباتلي!!
إذا كان دخولك في علاقة حب يتوقف على إجابتي لسؤال: هل أحببت؟ فعذرًا؛ لن أجيب!!
الحب الحقيقي يثير الأسئلة دون أن ينتظر إجابات عليها!!

obeikan.com

obeikan.com

أزمة حب

كُنّا أربعة أصدقاء جلسنا جميعًا في الكلية بعد انتهاء المحاضرات المُقررة علينا في هذا اليوم الذي يشبه الذي قبله وسيشبه الذي بعده؛ فكل يوم نذهب إلي الجامعة لحضور ما قُرر علينا ويُصب في رؤوسنا العلم أو المادة الدراسية إن صح التعبير. فلا جديد تحت الشمس. الجامعة. ومع ذلك، سيختلف اليوم عن ذي قبل كثيرًا بتلك الجِلسة الطلابية المرحة الصادقة..

جلسنا طويلًا. تكلمنا في كل شيء: فنارة عن الأوضاع السياسية التي تشهدها البلاد وما يحدث للعرب عامة. وهل سينجح الرئيس في إتمام ما يرنو إليه؟ وإن اختلفت الأراء فيما بيننا حول من هو الرئيس، إن وُجد؟! وانتقلنا بعد ذلك إلى الجامعة وما يحدث فيها.. والتخيل الذي كان يسبق إلتحاقنا بها؛ فالكل كان يرى أنّها منتدى ثقافي، ولست مسئولًا عما توحيه تلك الكلمة إليك، وعلى كلٍ فهذا ليس ما ستراه أنت ونراه نحن الآن. فمن منّا لم يكن يراها حرية دون قيود.. وانفتاح دون خجل.. ولا حدود بين الجنسين بهذا الشكل الذي يوجد في المدارس أو الأرياف. وتحدثنا عن المواد الدراسية والدكاترة وتصور كل منهم لنا. منهم من يرانا أوعية يُصب فيها ما يوجد في وعائه هو الآخر. وعلى النقيض، هناك من يرى أننا نحمل رؤوس خيرة الشباب ومن بيننا: أينشتين.. ومارك توين.. وبلانك.. وأرشيميدس.. وشكسبير.. والعقاد.. والحكيم.. والسباعي.. وكل ما نحتاجه هو الصبر والاجتهاد لتحقيق ما نرجوه، وننحي جانبًا «الاستهبال» على حد تعبيرهم! وكذلك من يرى أننا يمكن أن نكون كل هؤلاء بمساعدة غيرنا من ذوي الخبرة الحياتية؛ لتحديد الطريق ووضع الإشارات إلى السبيل الصحيح، وعلينا بعده إكمال الطريق وحدنا ومواجهة الصعبات والعقبات. وهؤلاء هم أصحاب التصور

الصحيح والأقرب إلى رؤوسنا ورؤوس الشباب عامة والطلاب خاصة. وتحدثنا عن البيت ومشاكله ومعاناته.. وتصورات الأباء وتوقعاتهم من أبنائهم، نحن.

وجاء آخر ما تكلمنا عنه، الحب. فقال أحدنا: دعونا من تلك الكآبة المميتة ولننتقل إلى كآبة ألذ، وحزن حلو الطعم عند تجرعه. فقولنا في دهشة: فماذا تقصد؟ قال: ذلك البلسم الذي يوضع على الآلام والأوجاع فيمحوها.. هذا الوباء اللذيذ المُحبب إلى نفس كل منّا.. الحب..

فضحكنا وهو معنا وكأنّها موافقة على اقتراحه. وبدأتُ بالحديث فقلت: ليُعرّفَ كل منّا وجهة نظره في الحب أو أقرب تعريفٍ له ينُم عما يخبئه لهذا المارد.. وبعده يُعرف الكراهية!!

قال أحدهم بما إنك صاحب الأقتراح فلتبدأ. فقلت: إنّ أقرب تعريف عندي للحب والكراهية هو ما قاله أستاذي أنيس منصور. «إنّ الحب هو الانشغال بشخصٍ يعجبك، والكراهية: هي الانشغال بشخصٍ لا يعجبك.» وجاء ذلك في كتابه: لحظات مسروقة.

وقال آخر: الحب ببساطة يا سادة: أن تحب الحياة لحبك لشخصٍ بعينه. أن ترى جمالًا لم تكن تراه، وتفرح بأشياءٍ لا تعني قيمةً لغيرك؛ فهي من حبيبك. الحب، احترام. الحب رجولة. أو كما قال هويس الشعر، هشام الجخ في قصيدة له وإن كانت عن مصر: «الحب حالة. الحب مش شعر وقوالة. الحب يعني اتنين بيدوا. مش إيد بتبني وستمائة تيت يهدوا.. الحب حالة. الحب مش شعر وقوالة.» أمّا الكراهية: لا أعرفها ولا أحب أن أعرفها!!

وقال الثالث: الحب هو الاستسلام القلبي للحبيب.. والخضوع النظري لرؤيته فقط.. أن تسعد بإطلالته كأنّك ظمآن وارتويت. أن تصبح طلّته عليك أشد وهجيًا ودفئًا من الشمس في

النهار وأجمل من القمر في الليل. أمّا الكراهية، فلم أشعر بها قبل ذلك بيد أنّي أراها: ألا تتمنى رؤية ذلك الشخص ولو صدفة.

وقال الرابع وكان بليغًا في كلامه ويبدو أنّه ذو خبرة في الإحساسين: الحب هو تعلق الحواس بحبيبك.. وعشق رؤيته كل ثانية.. وإن كان هذا ليس متاحًا فهو يراه في مخيلته ولا يغيب عن تفكيره قط. الحب هو حلوى الحياة. أمّا الكراهية: فهي أن ينقلب شخصٍ إلى غصة تقف في حلقك، وتصبح رؤيته ألمًا في داخلك يترنح أمامك؛ فيضحك ليُحزنك.. ويقول لتصمت أنت.. وينام لتسهر بدلًا عنه.. وكأنّه يأخذ من نصيبك في النوم.. يأكل لتفقد شهيتك.. فالكراهية خنجر قي قلبك تريد نزعه لتضعه في قلبه هو.

قلتُ: عندي سؤال أريد مشاركتكم فيه. لي صديق في مسقط رأسي، طنطا، يرى أنّه لا مانع من حب أكثر من فتاة في وقت واحد.. ولا أن تتبادل الحديث معهما، وتقول كلمات الحب هنا وتتشدق بحروف الهيام هناك. فهل توافقونه الرأي أم أنكم مثلي لا توافقونه البتة؟

بادر ذو الخبرة مجيبًا: لا أوافق على الإطلاق. إنّ هذا ليس حبًا وإنّما تلاعب باسم الحب، واحتيال على القلوب. وتأكدوا أنّ هذا الشاب يشبه التائه تمامًا؛ يسير متخبطًا بين البلاد باحثًا عن مسقطه، وفي أثناء هذا يعجبه هذا ويجذبه ذلك لكنه لا يعلق آماله بمكانٍ بعينه؛ فهو يعرف أنّه مفارقه وحتمًا سيأتي اليوم الذي يفارقه فيه. لكل منّا قلبٌ واحدٌ، ولا يستوعب سوى قلبٍ واحد. أمّا ما يدّعيه صاحبك، كذبٌ بيّن.. وافتراء زائد.. وكذب جليّ.. وحماقة زائدة.. لا لا لا أوافقه!

وقال حبيب الهويس: الحب شعور لا إراديّ.. لا يعرف المرء كيف يتحكم فيه ومتي ستظهر علاماته.. أو حتى من يستحقه. وما

يقوله صديقك، لا يعرف من الحب غير الحاء والباء.. ويبدو أنّه يعيش مراهقة متأخرة لم يعشها في وقتها. وأنا مصرٌّ على أنّ «الحب حالة. الحب مش شعر وقواله.»

وقال الثالث: لا يمكن أن يحب رجل أكثر من واحدة في وقتٍ واحد ويكون صادق الحب ونقي القلب؛ فلمن سيكون.. ومن ستشاركه حياته.. ومن يجد نفسه معها، فالحب كالبوصلة ترشد المتخبط في طريقه. بل إنّ الله سبحانه وتعالى حينما تحدث عن الزواج من أكثر من امرأة قال: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»، والنبي صلى الله عليه وسلم قد أحبّ السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها حبًّا أكثر من أمهاتنا الباقيات، فقال: اللهم إني قد عدلت فيما أملك، فلا تأخذني فيما لا أملك.» فكيف لبشر مثلنا أن يعدل؟!

قلتُ: إنّكم قد أجمعتم وأمنعتم. فالذي يحب اثنين في وقتٍ واحد، سيموت على يد واحدة وتدفنه الثانية!!

للأسف يا سادة،

أصبح الحب مهارة تُكتسب من قراءة الكتب، والمكتبات تعج بالكتب المنادية بكيفية الحب.. والعلاقة بين العشاق والأزواج.. فهل تغيّر الحب وتبدلت طبيعته ليحتاج إلى كتبٍ تعلمه وتُدّرسَ مبادئه؟! بالطبع لا. ولكن قد تجد من يعترض قائلًا: نحتاج أن نقرأ خبرات الآخرين لنتعلم منها ونتنجب أخطاءها. كما أنّ الناجحين في الحب سيجعلون لك الدنيا ملونة مبهجة، وقد تصدمك بلون قام. والفاشلين يجعلون لك الحياة سوداء وقد تكون كلون الحليب!!

ولكن ما الذي دفع هؤلاء الكتاب لخط مثل تلك الكتب؟ فوجدتُ أننا في عصر يختفي وراء كلمة الحب من أطلق عليهم، ذئاب الحب وتجاره. وهناك نوعٌ أشد وطأة وهم من يتقدمون

لخطبة فتاة «ومحلتهومش اللّده!!» ويريد أن يتزوج!! ويتم رفضه وبالطبع يرى أنّه فعل ما يتحتم عليه! لا. فالحب هو أن تعمل وترهق نفسك وتأخذ من راحتك؛ لتستريح بعد ذلك.

قد يكون السبب في ضياع الحب.. ورحيل الشجن إلى بلاد الذكريات، سرعة التكنولوجيا في كل شي؛ فالعالم لا يتوقف والوقت يمر.. والكون يتغير.. والأشخاص تتبدل.. وتتوالى الذكريات وتتراكم على بعضها البعض.. فغاب الشوق واختفى العشق، واغترب العشاق، وكل ذلك لقرب المسافات.. وسيطرة الموبايلات.. وعفرتة الإنترنت والشات.. ومكر ودهاء وخبث الكاميرات.. فأصبحنا في عصرنا، كل يلعب على ليلاه! وحلّت علينا: أزمة حب قائلة فتاكة تأكل الأخضر واليابس.

مع أنّ الحب كالكهرباء في التيار يلمس الأسلاك فإذا بالنور، ويصل الأجسام فإذا بالدفء، ويباشر المادة فإذا بالإشعاع، الحب كالجاذبية به يتحرك الفلك، وهو كالماء يحمل الأساطيل الثقيلة دون شكوى، بل هو ضابط الكون؛ فبه تتصاحب الكواكب وتتآلف المجموعة الشمسية، فلا يقع بينها قتال ولا خصام، فالحب هو روح الكون، وأكسجين الحياة، وإكسير الوجود.

فلو غاب الحب وقعت القطيعة في العالم، وسوء الظن والشك في الأنفس. إذا انتهى الحب غابت معه كل الصفات الإنسانية الجميلة. فلا حنان دون حب، ولا شفقة بدونه، ولا إحساس أجمل من الحب.

وربنا يبعد عنّا مثالب تلك الأزمة ويرزقنا الفهم الصحيح الواعي والواعد لحلها.

وانتهت تلك الجلسة وقد قلبت موازين اليوم.. وكسرت الروتين اليومي.. وأراحت المتحدثين.. وشعرنا بأننا في صالونٍ أدبيٍّ نناقش فيه القضايا.. والمسائل الفلسفية.. والأمور الإجتماعية..

فأحسسـت بلـذة المعرفـة.. وراحـة المُتخلـص بمـا بداخله.. شـعرتُ بسـعادة المغامـرة.. وألفـتُ بالألفـة والصُحبـة والجماعة...

obeikan.com

أنا كافر وأنت أيضًا

«في صغرنا كنّا نرى الدنيا بعيون تملؤها الدهشة.. ونستكشف آفاق الوجود بأفواهٍ متلعثمة.. لا نّكُفَّ عن الاندهاش من وجود أي شيء بل من وجود أنفسنا.. ثمّ ما معنى الوجود؟

وعندما شببنا استقبلنا الدنيا بدهشة أوعى وأدرى بأسرارها وعقولٍ قادرة على فكِ بعض شفراتها.. واستجلاء معانيها.. وإظهار خباياها. ولكن، تباغتنا الحياة بصروفها العويصة ومقاديرها المُبهمة، فنسير متخبطين بين عقلٍ يرى الواقع، وحلمٍ يأبى الاستسلام ويرفضه كليةً. نعرف القناعة في حياتنا كلها، إلا إذا تعلق الأمر بطموحاتنا وآمالنا ورغباتنا؛ فالقَنوع بمكانه مسكين، ويا لثقل وطأة الزمن عليه!

وفي ثنايا الضجيج و غمارِ العجيج، والتكبر والغرورِ، والتوقِ للخلود المعار ضاعت أنفسنا وفقدنا بوصلتنا وتشوّهت ملامح أحلامنا حتى بتنا لا نقدر أن نتعرف عليها. وكما كان الإنسان القديم يقدم القرابين للآلهة لترضى، أو لتغفر ذنوبه، قدّمنا براءتنا وعلاقاتنا وحبنا وحرصنا على بعضنا البعض قربانًا زائفًا لآلهةٍ زائفة مُتخيلة من وحي مريض، نفوسنا. فكابدنا الآلام المضنية وخنقتنا الأحاسيس الصورية ونكدت علينا نفوسنا المغشوشة حياتنا.»

كانت تلك كلمات صديقي الذي دعاني لأن نجلس جِلسة صريحة مريحة ليلقي على عاتقي، الذي كاد أن يوهنه حمله، ما تنوء به أكتافه. ولكنّ هذه الكلمات كانت استهلالًا فقط لما يعج به داخله ويلهج به لسانه.. فأكمل قائلًا:

تعرف أنّي كانت تستهويني الحدائق الوارقة على جنبات الطريق، وتسعدني الأزهار الملونة في محلات الورود، وتطربني أنشودة الجمال في ديوان الحياة. وتنتعش روحي مع انتعاش الزهور عندما تشرق وتسطع الشمس وترسل إليها بهديتها الثمينة، والتي هي جزءٌ

منها ومن روحها: أشعتها. ولكنّي الآن لم تعد تفتنني تلك الوجوه! فلا ألحظ من أوراق الشجر إلا ما تلقيه على الأرض؛ وكأنّها تطرده من مملكتها السماوية، أو تنزله من الجنة العالية. أطيل النظر إلى أوراقها المُبعثرة الملقاة على الأرض، تطؤها الأقدام.. وكأنّ الأشجار الوفيرة المورقة تذكرني بنفسي في حيويتي أو في عزّ شبابي الروحي، ولذا فأنا أكرهها.. أبغض منظرها.. أحب الأشجار العارية فهي مثلي.. وأوراقها تشبهني؛ فأنا أتساقط وتتساقط معي حياتي رويدًا رويدًا..

كثيرًا، ما تبادرني فكرة أن أكون لصًا! عندي مالًا وفيرًا، وزوجة حسناء، ومسكنًا واسعًا.. ولا تقل لي: القناعة كنز لا يفنى.. لقد شبعت قناعة وتجرعت قناعة، وتكرعتها. أريد أن أجرب مذاق المياة المعدنية بدلًا من الحنفية، وطعم اللحم، ولذة الخمر، وقُبلات النساء، وحرارة أجسادهن.. وطراوة مشيتهن.. أريد رؤية ما لم أره؛ أجلس على البارات، وأرجع لا أعرف عن نفسي شيئًا وأستيقظ على مائدة طويلة لا أرى لها أخر، فأنظر إليهًا ساهمًا دون أن أتناول منها لقيمات، ثمّ أنهض واقفًا حتى لا أتأخر على شركاتي.. وأدور على نفسي حتى ادوخ فأقع مغشيًّا عليّ أو ميّتًا!!

فنحن يا صديقي، نعيش في عالمٍ يمتلئ بالصراع الدامي، والحروب النفسية المريضة، والجبروت والتغطرس، والنفاق والفجور، إلى الحد الذي جعل الإنسان أعمى يرى الظلام نهارًا، والنهار ظلامًا، فغاب في غياهب المجهول، وتاه في أسرار الكون، شطح فنطح نفسه فدُميت حياته.

فلا تتفاجأ من كلامي ولهاثي في الكلام. فقد فاض بيّ الكيل وكفرت بالمثل العليا والأخلاق والقوانين الوضعية العقيمة التي تنصف الظالم وتقتص من المظلوم على رؤوس الأشهاد. ولا تقل لي: إنّ غدًا لناظره لقريب.. فغدًا لا يأتي والقريب بعيد، والمسافات

تتزايد وتستطيل وتتسع الهوة بين اليوم وأمس وغدًا. وهذه فلسفة الحياة الأبدية؛ أي السمو بالحياة إلى السر الأبدي الذي غلّفها بأسراره المُستغلقة المُبهمة التي تعلق العقل بين وبين: فهي تظهر ولا تُرى، وتُرى أحيانًا دون أن تظهر، وتترك العقل سابحًا في سبحات السماء وتأملاتها الخاشعة تحت لذعات الحقيقة المؤلمة، وعلم ثوراتها المُزمجرة في أمواج من الأفراح والأحزان والفراق والأشواق. إنّها طبيعة الدنيا وقوانينها.

ولو أدهشك عجز علمي وثقافتي عن انتشالي مما تراه هُراءًا وعبثًا لاهيًا يجب الخروج عليه واجتثاثه من جذوره، سأقول لك: أنّي «فاوست» أو «فاوستوس» القرن العشرين؛ فإنه قد تعلم كل ما أمكنه من علوم زمانه، ولكنه بعد أن أدركه الكبر، اعتقد أنّ كل ما أخذه من علمٍ لا نفع له، فندم على سنوات شبابه الذي أضاعها ولم يقضها في متعته، فظهر له الشيطان (مفستوفيليس) يقايض روحه وجسده على أن يمده بأربع وعشرين سنة وهو في شبابه، ناعمًا بكل لذات الحياة ومتمتعًا بقدرات خارقة. وأنا، قد كفرت بالمجتمع وأريد أن ألف وأدور عليه حتى أاخذ حقي فقط، ولن أقول لك: أستمتع باللذات والمتع أريد أن أحيا كريمًا، وأتزوج من فتاتي التي أحببتها، وأسكن في بيتٍ يليق بقدري الثقافي والعلمي ومواهبي.

«هذه الكتب وتلك الأرفف العرجاء خاوية المعارف
قد قضيت العمر مهمومًا تعذبني الوساوس والمخاوف
كلما رُمت يقينًا زاد شكي وعذابي!
كلما زدت اقترابًا زاد بعدي واغترابي»

إنّ ما نعيش فيه الآن يجعل حالتي مثله تمامًا وعقلي ينجذب إلى أفكاره. فهو قد كفر! وأنا كافر! ولكنّي كافر بالمجتمع وبالحيل العقيمة التي نتبادلها حتى يأخذ كل منّا ما يروق له. والشيطان دلى

الإنسان بغرورٍ، كما فعل مع أبويه من قبل، فغدا يناشد الخلود وأقبل على الدنيا كأنّه يعيش أبدًا، وتفنّن في أشكال معيشته فبني وشيّد وادّخر. وبين خوض الإنسان معمعة الحياة وتوقه للخلود طفى وتكبر وظلم وتجبر. أترى للعلمِ نفعًا في حالتي أو حالتنا؟

فما معنى ألا أجد ما يعينني على سُترة نفسي وعفاف روحي في مجتمع لا يعرف الوسطية؟ والفتيات جميلات.. مثيرات.. ملعونات.. ولا أعرف ماذا أفعل؟ ولا تقل لي: غُضّ بصرك! فقد أحاول، وإن كان لن يُجدي إلا لو فقدت بصري تمامًا! إنهنّ في كل مكان وبكل خطوة أتعثر بهنّ. وأنت تعرف أنّي طوال عمري أغض بصري وأمنع نفسي عن المعاصي، بيد أنّي تعبت.. تأوهت.. تألمت.. اعتصرت.. كنت أمنع نفسي عن مصادقة البنات في وقتٍ كنت مرغوبًا بينهن.. وعففتُ نفسي وحفظت جوارحي على أمل أن يأتي اليوم الذي أنال فيه كل ذلك.

فهيهات هيهات. لقد دفعت الثمن عن عفتي وجعًا وعذابًا وتفكيرًا مريرًا، أريد فلوس.. فلوس.. أريد أن أرى الدنيا التي حُرمت من مباهجها ومحاسنها. أجد حولي فتيات حسناوات يتمايلن في خفة ووداعة يطلبن رضاي وأوامري، ينتظرن نظراتي أو فلوسي لا يهمني، المهم أن ينتظرن شيئًا منّي، يَكُنّ عبيدًا عندي أقطف ثمارهن وأجني حصادهن. وعندما أرجع من تلك الآوهام إلى الواقع فأجد حالتي يُرثى لها، أنقم على هؤلاء اللصوص الذين سرقوا أموالنا.. وأحلامنا.. والأدهى من ذلك أنهم يبقون على قيد الحياة لينعموا بمظهرنا المرثي له، يمصمصون شفاههم في شماتة وعُجب.

ترامت عليّ الفتيات آنفًا فرضت في عبطٍ! وتزوجت الأمل والإيمان والحياة المُشرقة. ولم أحظَ بشيءٍ فكفرت بكل ما اعتقدته.. بالأمل.. بالمجتمع.. بالحقيقة.. بالناس.. بالخوف.. في الإيمان في بُكرة.. فلو جاءتني، الآن، النساء لن أرفض في عبطٍ ثانية؛ فلا يلدغ مؤمن

من جحرٍ مرتين!! ولكن أمؤمنٌ أنا؟ لا.. لا.. لست مؤمنًا.. وإن كنتُ كذلك، لن أردّ شهد قبلاتهن لأمحو به مرارة حلقي وحياتي. سأنتقم لكل عازبٍ وفقير لا يملك إليهنّ سبيلًا. سأرى نشوتهنّ ولا أكملها لهن! وسأكون بذلك خادمًا للعباد، نعم سأكون. فماذا تتخيل من تلك الفتيات اللاتي يرتدين ملابسًا ليست إلا صرخات أنوثة مكبوتة ومتفجرة، تعرب عن رغبتها للانتقام من الرجل بأن يلاحقها بعينيه ولا يعرف إليها طريقًا. نفسه معلقة. مُتلهّافا.

فأنا لست نبيًّا ولا صحابيًّا.. فأنا.. أنا.. أنا.. ولا أعرف غير أن أكون كذلك! كما أنّ هؤلاء قد مكنهم الله من نفوسهم وأطلعهم على طرق ترويضها. إنّ زمن هؤلاء الشرذمة القليلون كان متلاحمًا كل بجانب الآخر، أمّا نحن الآن، فالكل يردد: نفسي نفسي ثمّ نفسي. حتى يُخيل إليك من فرط سماعها أنّ القيامة قد قامت. وكثيرًا، أشعر أنّ القيامة قامت وما أراه الآن جحيمًا؛ فقد حُسبتَ وحُكم عليّ بالعذاب الأبدي! فهل حقًا قامت الساعة؟!

عادة ما أتذكر قول الإمام الغزالي صاحب كتاب إحياء علوم الدين عن الحياة: وما أدراك؟ فلعل حياتك حلمًا طويلًا لم تستيقظ من بعد! ياريت. ياريت، يكون كل ذلك حلمًا، أيكون حلمًا؟ لا كابوسًا! فمتى نستيقظ؟

أرجوك...

قل لي ماذا أفعل؟ أريد أن أقتنع أنّ ما أقوله خطأ، أريد أن أقتنع بقابلية ما يحدث معنا أو معي! كل ما أفعله أبحث عن عقلانية وأنبش عن مرجعية له حتى أقتنع. قل لي ما تريد، هُزُّني، المهم أن تقنعني أو أقنعك أنت!

صمتُّ لدقيقة ثمّ قلتُ:

إنّ ما قلته أنت يا صديقي يكفي للرد عليكِ ولإقناعك

جميل الإقناع، ولكن كما جرت العادة، فنحن لا نرى ما يقبو تحت أقدامنا ونحتاج من ينقب لنا عنه، وسأنقب لك عنه.

في دهشتنا من صنيع الحياة المستمر ومن صروف الدهور المستمرة إمتدادٌ جميل لبراءتنا التي رأينا العالم بها أول مرة، وتلعثم كلامنا لوصف ما يجول بخاطرنا ما هو إلا تأكيد على نقائنا وصفائنا. إنّ الشجرة يا صديقي تجدد أوراقها من فترة إلى آخرى وليست كما قلت تلقي بهما من جنتها، بل إنّها فقط تزيل ما يفيض عن حاجتها وتقلم أطرافها بنفسها لتزداد جمالًا ورونقًا، وحريٌّ بك أن تنظر إلى نفسك هذه النظرة: فترى تلك الوريقات الملقاة حزنًا زائدًا عن حجمه، وهذه الأغصان المتكسرة أفكارًا عفى عليها الوقت حتى قتلها. لتبدل نظرتك وتُغير عينك التي ترى بها، فيتغير الوجود من حولك.

بونٌ شاسع أن تكون نفسك ترزح تحت أعباء سطوة فكرة بعينها وتطبقها على الوجود من حولك، وبين أن ترى الوجود كما يجب أن تراه أو لا سيما كما تحب أن تراه. إنّ القلق والتردد فيما تريد يخلق لك جوًا خانقًا من الكراهية والبغض والنقم، حتى تغشاك غاشية الاستسلام لدوامات صيرورة الحياة. استغل عقلك المُتوّهج في صنيعة شيء يشغلك عن أفكارك المارقة السارقة للبهجة والسرور من وجهك. فأين روحك الماضية؟ أنسيت حينما كنت أنسى ساعتي فأتضايق لذلك، فتأتي إليّ مبتسمًا متفائلًا لتقول: اجعلها علامة وإشارة تقول لك: انس الوقت وعِش يومك كما يحلو لك، وحلّق في أفاقه بعيدًا دون أية قيود أو مثبطات! كيف نسيت؟ أتهزمك أنواء الحياة بتلك السهولة حتى أجدك مترنحًا بين الطرقات لا تعرف لنفسك وجهة؟

تأكد، أنّ لكل منّا أفكار غريبة تتحرك بداخلنا لتبحث

عـن مـأوى، فـإذا أفسـحت لهـا مكانًـا مكثـت وأطالـت المكـوث إلى الحـد الـذي يجعلـك مُتحـيّرًا أبيتهـا هـي أم بيتـي؟! ولـن تصـل آنـذاك إلى حلٍ فسـيبقى الوضـع كـما هـو عليـه. فكلهـا أصـواتٌ تنادينـا نحـو المجهـول، نَدّاهـة. تظهـر لـك في ثـوبٍ جميـلًا بـريء حتـى تمسـكك مـن تلابيبـك فتخنقـك وتقـضي عـلى زهرتـك. فكـن حـذرًا، ولا تـترك لهـا مجـالًا لتجالسـك، اتركهـا ترحـل بعيـدًا بعيـدًا؛ فهـي حبيسـة نفسـها، عاجـزة عـن الإفصـاح ولا تعـرف شـيئًا سـوى القضـاء عـلى أحـلام وطموحـات الغلابـة.

تقبـع مشـكلتنا في أننـا نمـد أيدينـا نحـو الضـوء، آمالـين في قبـض مـا لا نـراه. وأفكارنـا كأفـكار الأطفـال، طويلـة وغامضـة، ولا نـرى لهـا نهايـة ولا نعـرف لهـا وجهـة ومـع ذلـك نتتبـع أثرهـا ونسـير وراءهـا!

لـن أقـول لـك: إنّ القناعـة كنـزٌ لا يفنـى! لكنـي لا أسـتطيع ألا أقـول لـك: البركـة كنـزٌ لا يفنـى. فأنـت تعـرف كـم عُـرض علينـا معًـا وظائـف لـو قبلناهـا لأصبحنـا مـن الأثريـاء، وكان رفضنـا لهـا بضمـير مسـتريحٍ هـادئ. لا تقنـع يـا صديقـي بمـا أنـت عليـه كـما قلـت أنـت مـن دقائـق، اتحـرك وابحـث واسـأل وقـل وغـيّر، وعِـش كـما ينبغـي لـك أن تعيـش ولكـن بطـرق شريفـة وسـتصل، وأنـت تعـرف أنّـك سـتصل وإن كان متأخـرًا قليـلًا عـن مـن سـبقك مـن طـرق آخـرى، ومـع ذلـك تأكـد أنّ عندمـا تصـل سـتجده منتظـرك!! البلـوغ في أهـداف الحيـاة، يشـبه البلـوغ الجنـسي؛ فـكل الشـباب يبلغـون ولكـن في أوقـات متباينـة وعـلى الرغـم مـن ذلـك، فـلا بُـد أن يمـر كل منهـم بنفـس المراحـل. أي سـيصل وأنـت سـتصل يـا صديقـي.

إنَ متاعـب الحيـاة يـا صديقـي ليسـت مـا يؤلمنـا في حـد ذاتـه، بـل فكـرة الآخريـن عـن متاعبنـا ورأيهـم فينـا وتحليلهـم لهـا. هـل كان العقـاد غنيًـا؟ أتعتقـد أن روبنسـون كـروزو كان يؤلمـه أنّ ثمـة رقعـة في بنطلـون؟ أتظـن أنّـه كان، في الأصـل، يرتـدي بنطلونًـا؟! هـل كان يهمـه أن

يرتدي حذاءً بلا جورب؟! لم تكن أسماله البالية تضايقه؛ فلم يكن حوله أصدقاءً يسخرون منه ويلفتون نظره إلى سخرية منظره. وإن كنت تعد نفسك في زمرة الفقراء فليس عيبًا، وأنا فقير، ولم يكن يضايقك هذا من قبل، بل كنت تراه دومًا دافعًا ومُحفّزًا للأمام وتردد: سأنجح في ظروفي القاسية حتى ألمع كما لمع الكثير من العظماء من وطأة ظروفٍ لا توحي بقدومهم. أنسيت هذا الكلام؟

إن حالتك ليست مشكلتك، إنّما تكمن المشكلة في كيف يراك الناس؟ أنسيت أنّ الله عندما أردا أن يمدح الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا قال: « يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ...» فاجعل الجهلاء يرونك مترنمًا فيقبلون عليك يقبلون يدك كما تحب ولكن في تواضع وفي حب واحترام وتقدير واعتزاز! لا تخبر أحدًا أنّك أقل منه ولا تجعله يلاحظ. أتراني أفضل منك حالًا؟؟ بالطبع، لا. وضعي المالي لا يفرق عنك على الإطلاق وحالتي الإجتماعية عزباء مثل حالتك، والفرق بيننا في أنني عرّفني الله أنّ الناس تنشغل بالمظهر دون الجوهر، للأسف، فكرست جهدي أن يكون مظهرًا عاكسًا لما يتوقعه الناس، وادخرت خواصي لنفسي حين أجلس إليها أبثها ما أضيق بحلمه.

وقد قلت، أنت، من دقائق أنّ مشكلة الإنسان هي محاولة تحقيق الخلود. وكلامك صحيح. كيف لهالك أن يخلد؟ فلا تزرع في عقلك تلك الشاردة تاركًا إيّاها تطغى عليك فتنغص حياتك وتقوض حقائقك. فتتوه في بحر الحياة، ويرهقك التيه في مجاهل الحياة، فتعود إلى مضجعك بلهفة إلى نفسك كنت تعرفها ونفورًا من صاحبٍ بات يلازمك. أتظن أنّ الراحة في المال؟ إذا هل لو كنت على حبل المشنقة وكان لك أمنية واحدة ستقول: المال!! هل أنقذ فاوستوس من الجحيم الحقيقي؟ أنفعته قواه الخارقة؟ وهل كانت خارقة؟ يا

صديقي، أنت لست هو ولن تكون. ولا ترتكب حمق هؤلاء الشباب الذي انتحروا بعد قراءة رواية آلام فرتر لجوتة، اقتداءًا ببطلها المأساوي عند فشله في الحب! وخرج حينها جوتة منزعجًا من عدد المنتحرين وكتب قصيدة على لسان بطل روايته «فرتر» يقول فيها: كن رجلًا.. ولا تتبع خطواتي!! والمقصود، الذي أعرف أنّك تعرفه، هو أنّ تلك الشخصيات خيالية على الورق يشكلها مؤلفها كيفما يشاء ولا يجوز الاقتداء بها في الحياة الواقعية.

وأعرف جيدًا أنّك قد عففت نفسك كثيرًا وحاربت بجانبي صور الإغراء والفساد. بل إنّ هذا يؤكد لك حقيقة قدرتك على التحمل وإكمال رجولتك في عفتها، وليس كما تقول لن تستطيع. في ريفنا، البسيط الجميل، بالليل تبدو أطياف الأشجار والشجيرات يغازلها نسيم الهواء، مرفرفة حولها فراشات هائمات، عندها تشعر بالشجن يتعمق في داخلك، وتدرك السلام يسكن قلبك ويربط على قلبك وعقلك، تتدفق فينا أفكار لا نستطيع البوح بها، ولكننا نستطيع أن نفكر فيها. فَلِمَ لا تفكر في هذا الجمال المملوكِ لك؟ تشتكي من انعدام حالك وأنت تملك تلك اللوحة الربانية وتسمع ليل نهار سيمفونية الخلود في تغريدات الطيور وشقشقة العصافير. لا يفوتني يا صديقي أن أكرر على مسامعك هذا البيت الذي أعرف أنّك تحفظه عن ظهر قلب كما أعرف أنّ القصيدة مفضلة عندك ومُكرمة كذلك.

كم تشتكي وتقول إنك معدم ... والأرض ملكك والسما والأنجم
ولك الحقول وزهرها ونخيلها ... ونسيمها والبلبل المترنم
والماء حولك فضة رقراقة ... والشمس فوقك عسجد يتضرم

إنّ كفرك بالمجتمع ليس في حد ذاته ما أرفضه ولكنّ طريقة رفضك لقيمه ومبادئه. فإذا كنت أنت كافر، فأنا أيضًا. وهذا الذي نكفر به،

ومعنا الكثير، يمكننا تبديد ظلامه بمصباح النجاح والإصرار ونشر القيم الواعدة الخلوقة في أخلاقنا. أي نكون دعاة إلى المُثل العليا والأخلاق الحميدة ونحن صامتون؛ بأخلاقنا. واعرف كذلك، أنّ المثل العليا لا تأتي من خارج بل تنبع من دواخلك فتضع حدودًا لنفسك وعلامات لحياتك وإرشادات لأفكارك وعلاقاتك لتستريح وتُريح. ولنجتهد يا صديقي لنخلق حياته متوازنة بين قداسة المُثل وواقعية الحياة. واعلم أنّ الحياة الدنيا لا تطيب إلا إذا مزجت بحياة روحية راقية نقية لا تعرف درن النفوس ولا شهواتها ورغباتها الجنسية الحيوانية. واستوصى بالنساء خيرًا يا صاحبي. وخذ ما تتوق إليه في وقته وبلذاته التي زرعها الله في داخلك؛ فلا تكن لصًا! ولا تخُن نفسك فتفقد بوصلتك. وحينها سأقولُ لك: أنا كافرٌ وأنت أيضًا!!

obeikan.com

صديقي ما أحوجك

كان يومًا شاقًا، مرهقًا، طويلًا بما ما تحمله الكلمة من معنى، وحتى الآن، لا يزال أمامي ساعة ونصف في المواصلات؛ لأصل إلى مسكني. ولكن، لا بأس؛ فمعي مزيب الوقت، وقاهر الضيق والكرب، وهادم الغم والحزن، وصارف ألم الفشل والأحزان.. ومُفتت الآلام.. معي كتاب لعبدالوهاب مطاوع، عنوانه: صديقي ما أعظمك!

أخرجت الكتاب من حقيبتي وشرعت في القراءة، واقفًا على حافة رصيف المترو منتظرًا ذلك العملاق لينقذني من إرهاقي وكدّي. أخذت أقرأ، منتظرًا، حتى جاء في إطلالته البهية، فكنت قد أنهيت المقال الأول. «نفسي في المستكة،» كانت تلك هي آخر كلمات المقال التي قرأتها قبل أنا أضع يدي داخل العربة. الحمد لله؛ فالمترو الآن ليس ممتلئًا، كعادته، فوجدتُ مقعدًا بسهولةٍ ويُسرٍ. جلستُ مُكْمِلًا قراءة الكتاب.

المقال الثالث: انهض يا سيدي.. «الشاب»! انهمكتُ في قراءة سطور هذا الكتاب التي تحمل في حروفها ونقاطها من الآلام الكثير.. ومن هنّات القلوب العظيم.. وحيرة العقول المريب.. ولم أنتبه أنّ المترو قد تجاوز بنا ما يقرب من خمسة محطات إلّا حينما رفعت رأسي، مفكرًا، فيما أقرأه ومستشعرًا ما يبثه أستاذنا في كلماته. فوجدتُ المترو قد أخذ هيئته المعتادة وكأنّه عزّ عليه أن يكون مريحًا لدقائقٍ أو افتقد ركابه فدعاهم إليه من كل حدبٍ وصوب. لمحتُ من بين الواقفين رجلًا، أزعم أنّه في خمسينيات عمره، يخالط بياض شعره سوادٌ طفيف، له رونق بكورة المشيب، أخذت تجاعيد قسمات وجهه ترتسم عليه رويدًا رويدًا لتخط خريطة الزمن ومعالم الحياة وسر الوجود على هذا الوجه الصافي، وشرعت طبقة جلده في الانكماش قليلًا، لتُضفي على ملمس يده طراوة وطلاوة رائقة— شعرتُ بها

عندما أردتُ تنبيهه أن يجلس مكاني.

شكرني وجلس مكاني، ووقفتُ بجواره ناظرًا في كتابي. فنظر إليّ وقال: بتحب كتب عبدالوهاب مطاوع؟ فردتُ: بل أعشق كتبه، وأهيم بكلماته السلسة البسيطة المتداولة والتي يعرفها الجيمع؛ بيد أنّها تحمل الكثير من الاحترام والتقدير للمشاعر الإنسانية والذات البشرية الضعيفة التي قد تزل في أي وقت وفي أية ظروف. فقال: أنا، انبسطتُ أوي لما شوفتك بتقرأ في الكتاب من أول ما طلعت؛ فقد ذكرتني بشبابي وبهوايتي المفضلة—القراءة. فأنا من الجيل الذي قرأ له وهو ينشر هنّات قلوب مراسليه في صفحات بريد القُرّاء، بل إني لا زلتُ أحتفظ بكل ما قرأته له في الجرائد وعلى صفحات المجلات بعد أن قصصتها وقتها. فعرفتُ منه معنى الحياة وقيمة الوجود، وأدركت أهمية الصداقة وعرفت كيف كان يقدسها إلى الحد الذي يجعلك تشعر أنّه بالفعل سيرثُ أصحابه! فكان لي أنيس وفي دروبي ونيس وعلى عتبات حياتي دليل.

قلتُ له: مع حضرتك حق. إنّ لكتبه دَعَة على قارئها ورحمة بصاحبها، يقول ما يجب قوله، ويتورع أن يزيد أو يغالي، يرى ما نراه ويستبصر فيرى أدق وأعمق وأصح وأرق. فابتسم، وقال: قرأت له أيه تاني؟ فقلت: خاتم في إصبع القلب، وإندهش يا صديقي، وترانيم الحب والعذاب. فرد وكأنّه ينتظر سماع هذا الكتاب بالأخص: بالرغم من كون الكتاب الأخير، ترانيم الحب والعذاب، مؤلمًا في قصصه إلّا أنّه رائع وذو إفادة قد لا تجدها في كتبٍ كثيرة. ثمة مقال قرأته فيه لم أنسه حتى الآن ولا أظن نفسي سوف أنساه. على ما أتذكر كان عنوانه: أشياء لا تتعوض. كان يتحدث عن مفهوم الصداقة وقيمتها ومدلولها، وكيف أنّ هناك من يحزن لفقدان صديق، وعلى النقيض هناك من يأبى ذلك ويراه ضعفًا لا يريده لنفسه. وكيف أنّ أنواء

الحياة لا تترك الصداقة على حالها وتمتحن أصلها وجذرها بالاختبارات القاسية؛ لتميز الخبيث من الطيب.

فردتُ عليه قائلًا: قد قرأته بالفعل وكان اسمه كما قلت حضرتك، وكان آخر مقالًا في الكتاب.

فقال: عارف.. الصداقة، أكاد أقسم لك، أنّها أفضل ما يمكنك تملكه في الدنيا. فهي أن تعربد بك الأحزان وأنت واثق الخُطى ومتئد السير ثقة في أنّك لست وحدك بجوارك أخٌ تطلق عليه صديقًا أو يطلق على الآخرون صديقًا. فالصديق، هو السائر معك في حوالك الليالي.. وأغبشة الأنهر.. وحيرة النفوس.. وضيق الصدور..

الصديق كلمة بها صدق، وحروف بها «دق»، أي الدق على قلبك في وحشة الأيام منبهةً إيّاك أنّ هناك من يشد عضدك ويشحذ قوتك. فلو أخذت بالك وأنت تقرأ القرآن، ستجد أنّ الله عزوجل عندما أراد أن يطمئن سيدنا موسى وسيدنا هارون، قال لهما: «إنني معكما أسمع وأرى» أي إلى جواركما وعاقد العزم على مناصرتكما.. إنني صديقكما! بل إنّ سيدنا موسى عليه السلام نفسه طلب من الله أن يشدّ أزره بأخيه ويقويه بملازمته؛ فالصحبة محبة، والمحبة قوة. فهي طيفٌ إلهيٌّ فيّاضٌ لا يعرفه سوى أصحاء القلوب والنفوس، أمّا أصحاب الدرائن والقلوب المريضة والعقول الهشّة فهم في غفلة معرضون!

إنّ أثمن كنز قد يرزقك الله به، هو صديق لا تحتاج إلى رفع صوتك عند محادثته ليدرك ما يختلج في صدرك.. ولا تحتاج إلى شرحٍ طويلٍ ليفهمك ويشاركك حيرتك.. وتكون صداقتكما بعيدة كل البعد عن المقدمات البلهاء ليفهم كل منكما الآخر. يكتفي كل منكما بنظرة إلى الآخر ليستدرج خواطره وهواجسه الواحدة تلو الآخرى. ولا تفرح بكثرة الملتفين حولك، فكم واحدًا منهم تطلق عليه صديق؟ بل من

منهم يستحق هذه الكلمة؟ فهي ليست مجرد لفظ أو كلمة بسيطة؛ إن من تصادق يكون لك سقفًا يحميك من شظايا غدر الدهر، وعصا تتكأ عليها حتى لا تجثو على ركبتيك، وأنبوبة تنفس تنزل بها إلى أعماق محيط الحياة دون خوف من الموت.

وتأكّد، أنّ حياتنا يا بُني، مثل الصفحة البيضاء في دفتر عمرك وكل من يدخل فيها سواء صدفة أو عمدًا، مقيمًا أو راحلًا، يترك أثر حبره على صفحتها. فانتقِ من يكتبون لك تذكارًا جميلًا تقرأه في حبورٍ وسعادةٍ عند استرجاعه.. فالأمر يشبه الإهداء خفيف الظل.. عميق الأثر الذي نتداوله على أوراق كتابٍ مُهْدى. تعرف.. أنا اليومين دول أفتح مكتبتي بعد أن أرجع مكدودًا من عملي، وأقرأ كل الإهداءات التي كتبها لي أصدقائي وأحبائي؛ فأدرك كم أنا محظوظًا، وموفقًا بحمد الله في انتقاء كُتّاب إهداءات كتبي وحياتي.

فنظرتُ حولي، فرأيتُ أعناقًا قد اشرأبت ورؤوسًا قد تطاولت وآذانًا ألقيت لتضف إلى نفسها راحة جديدة ومعلومة ثمينة شعرت بأنّها في أشد العوز لها.

تعالى بقى أقعد مكانك. لكن قبل ما أنزل هقولك حاجتين: الأولى: عِشْ.. واقرأ على قدر ما تريد أن تحيا في حياتك.. قدّر قيمة من حولك.. واحمد ربك.. واخفض جناحك للمؤمنين؛ وطالما أنّك لن تستطيع أن تُجزم أنّ هذا مؤمنٌ أم لا، فاخفضه لكل من تلاقيه في مشوارك.. حياتك.. اعرف أنّ المرء منّا يتشبث بالكلمة الطيبة كما يتشبث الغريق بالقشة، ولا تدعي فلسفةً فتقول: أنّها لن تنقذه فهي قشة! إنّ الإيمان يصنع المعجزات وما نحن سوى نملٌ في محيط الحياة.

والحاجة الثانية: انتقِ أصدقاؤك واختر سطور إهداءاتك. ليكن لك ألف صديق دون أن تخسر واحدًا منهم. ولا تغررك كثرة

المؤتلفين بين يديك؛ فالقلوب الله أعلم بها. تخيّر ملازمًا لك يقول لك وتقول له كما قال سيدنا عمر بن عبدالعزيز لأحد أصحابه يومًا: «إذا رأيتني قد ضللت الطريق فخذ بمجامع ثيابي وهزني هزاً عنيفًا وقل لي اتقِ الله يا عمر فإنك ستموت!»

وإذا سمحت لي أن أكتب لك كلمة لتذكرني بها، فقد لا نلتقي ثانية، سأكون شاكرًا لك؟ قلت: بالطبع، بل يا ريت!

أمسك الكتاب وكتب فيه ما رأيته بعدما أعطاه لي فكان: لا تنسني.. صديقك العجوز!

جلستُ مكانه مراقبًا إيّاه في سيره حتى غاب عن رؤيتي، فشعرت بترانيم الانشراح تتسلل إلى داخلي، تمتزج بها خيوط الحزن على انقضاء الوقتِ سريعًا في صحبته. حاولتُ أن أرجع إلى قراءة ما بدأتُ فيه، فلم أنجح. أخذ شلال الأفكار ينهمر عليّ و صفير كلامه يدوي في رأسي وأذني، وكلماته أستذكرها جيدًا. سبحان الله، إلى الآن هناك من يُقدّس الصداقة ويقف على عتباتها مستأذنًا الدخول والخروج، هذا الرجل، الذي يستحق كلمة رجل بجدارة – فالقرآن نفسه قال: من المؤمنين رجال—يحافظ على صداقته ويستنشق عبقها بعد سنين منقضية قد يكون أصحابها فارقوا الحياة.

تذكرتُ حينها كلمات صديقي حازم التي قالها في إحدى قصصه عن الصديق؛ فقال: «وما الصديق؟ الصديق هو رفيق العمر، هو رفيق الدرب، هو الصحبة في مسالك الحياة. وما الصداقة إلا رباط قوة يشد بين روحين ونفسين، يبث كل إلى الأخر فيه دفقات من صلابة تعين الصديق حين يعتريه الوهن. الصديق هو كتاب مفتوح أمام صاحبه، يقرأ فيه ما يقرأ، ويخط فيه ما يخط، فيترك بصمات لا تنمحي أبد الدهر. الصديق هو أمانة لا تخون، وهو صدق لا يكذب، وهو صراحة لا تنافق، وهو شجاعة أمام الخوف، وجسارة

أمـام الضعـف، ويـد ممـدودة أبـدًا، وأذن صاغيـة دومًـا.»

صدقت يا صديقي!

ولكنّي، كذلـك، تذكـرتُ صديقًـا لي أو كان لي، كنـت أود أن أقـول فرّقـت بيننـا الحيـاة وضروبهـا، بيـد أنّـه يؤسـفني أنّ مـن فـرّق بيننـا: عصبيـة هوجـاء، وتعصـبٌ أحمـق، وطيـشٌ طائـش! كان لي، وأقـولُ لي لأنّـه هـو مـا أتأكـد منـه، صديقًـا وأخًـا وقريبًـا، أتحـدث معـه عـلى سـجيّتي، وأروي لـه مـا أخجـل منـه مـع غـيره، أبثـه آهـاتي في بعـض الأحيـان.. كُنّـا أصدقـاء، ويـا لوقـع تلـك الكلمـة عـلى القلـب حـين النطـق بهـا، يشـعر كأنّـه النطـق بالإعـدام!

كان خطـأي معـه، حـرصي عـلى صداقـة صديـقٍ لـه ولي نشـبت بينهـما مخالـب الشـيطان وفرّقـت بينهـما عناقيـد الغضـب وبراثـن شـهوة الضيـق والعمـى بسـبب موقـفٍ مـا. ووقفـتُ مـع صديقـي الآخـر كي لا يتأثـر سـلبًا أو يحـدث لـه مكروهًـا؛ طالمـا لم أشـهد بمـا لم أرَ أو طالمـا لم أكـذب في شيءٍ – والحمـد للـه أعـرف أنّ صديقـي المُـدان لم يكـن ليطلـب منّـي أن أشـهد ذورًا قـط. وانـشرخ صرح صداقتنـا عنـده، صديقـي المُفـارق، منـذ تلـك اللحظـة ولا أعـرف لمـاذا؟! وأخـذتُ أقسـم لـه أننـي لم أشـهد مـع صديقـي فيـما يتعلـق بـه ولم أرو شـيئًا بهتانًـا، ولكـن هيهـات هيهـات! أخـذ يعاملنـي بجفـاءٍ يسـتنكره أي شـخص ولكـن مـن فـرط حبـي لـه وتقديـري لموقفـه وحرصًـا عـلى علاقتـي بـه، أخـذت كل أفعالـه عـلى محمـل الهـزل والمُـزاح وإن كان في كثـيرٍ مـن المواقـف يقـول لي صراحـة: أنـا لا أمـزح بـل أصدقـك القـول وإن كان لا يعـرف أنّـه يصدمنـي القـول!

بـدأت أضيـق ذرعًـا بأفعالـه المُسـتنكرة وألفـت نظـره أكـثر مـن مـرة لحـزني وضيقـي وغضبـي مـع حـرصي عـلى صداقتنـا التـي كانـت مـن شـدة إرتبـاط كل منّـا بالآخـر، كنّـا نُعـرف بصديـق فـلان. وبعـد اسـتمراره

في أفعالـه قـرر أن يقطـع علاقتـه بي لمجـرد أنّي شـهدتُ مـع صديقـي في موضـوعٍ متعلـقٌ بـه مـن ناحيـة مـا، ولكنّـي لم أشـهد في موضوعـه عـلى الإطـلاق، ولكـن لمـن تقـول ومـن يسـمع؟! فـرآني ظالمًـا.. معينًـا عـلى الظُلـم.. لا أحبـه لأنّ الصداقـة والحـب تظهـر في تلـك المواقـف!! باختصـار، انقطعـت صداقتنـا!!

يـا صديـق.. إذا كانـت الصداقـة والمحبـة الصادقـة تظهـر في هـذه المواقـف، فَلِـمَ لا تظهرهـا أنـت بـأن تتخطـى مـا تـراه أنـت، وأنـت فقـط خطـأً فادحًـا في محـراب الصداقـة ولا يُغتفـر؟؟ أيعجبـك أن يقـف كل منّـا قُبالـة الآخـر دون أن ينبـس أحـد بكلمـة لـه وكأننـا غربـاء، بـل إنّ الغربـاء يتعارفـون؟ كيـف تقـف تصلـي في مسـجد الكليـة وأنـا أقـف ورائك وأنـت لا تكلمنـي وتخاصمنـي في حـين أنّي أحـاول إصـلاح مـا أتلفـتَ أنـت بـإصرارك الأعمـى عـلى أنّـك الصحيـح الأصـح والمُصَحِـحُ؟! كل منّـا يخطـأ ويصيـب. وإذا كنـتُ قـد أخطـأت فَلِـمَ لم تعاتبنـي وتقـول لي: أني أجرمـت في كـذا وكـذا وفي قلبـك ثقـل منـه، وعـليّ أن أشرح لـك وجهـة نظـري فقـد أكـون صحيحًـا. أمّـا أن تقطـع أواصر الحـب والمـودة بيننـا بحجـة أنّ الصداقـة ليسـت كذلـك!! بالفعـل، هـي ليسـت كذلـك، فوالله لم تكـن الصداقـة أبـدًا هيّنـة عـلى صديـق صـادق صـدوق الوعـد! وأكـرر لـك مـا قالـه أسـتاذي ومعلمـي عبدالوهـاب مطـاوع: «فاحـزن يـا صديقـي إذا حزنـت عـلى أنّـك لم تحـزن لفقـد صديـقٍ عزيـز مخلـص...»

هل تحزن على انهيار صداقتنا يا صديقي؟

أرجو، وإن ساورني بعض الشك!

أحزنـت في اليـوم الـذي جلسـت خلفـي في المحـاضرة وعندمـا قالـت الدكتـورة شـيئًا مضحـكًا ضحكـت والتفـتَّ نحـوي رغـمًا عنـك، كـما اعتادنـا أن ينظـر كل منّـا للآخـر ويُعلّـق؟ أقـول لـك سرًا: لقـد حزنـتُ، وكـدت أن ألتفـت إليـك! أرجـوك لا تقـل ذلـك لنفسـك! فأنـت ممـن

يـرون الحـرص عـلى المـودة والإخـاء ضعفًـا لا مفـر أن يسـتبرأ منـه صاحبـه!

صديقـي.. مـا أحوجـك أن تعـرف بصـدق معنـى الصداقـة! إنّهـا ليسـت دومًـا معـك وفي صالحـك، فـإذا جـاء اليـوم الـذي تُطالـب فيـه بدفـع ضريبتهـا تنصلـت وقلـت: إنّهـا ليسـت صداقـة! فـما أحوجـك أن تقـرأ كتـب أسـتاذنا عبدالوهـاب مطـاوع وتقـرأ رأيـه في الصديـق والصداقة وتُـدرك أنّ مـا تفعلـه الآن هُـراءً أرجـو اللـه أن تتنصـل منـه قريبًـا وتعـود أدراجـك إلى صوابـك وتقـف عـلى أعتـاب صومعـة الصداقـة تائبًـا نادمًـا.

يؤلمنـي.. أن أقـول لـك هـذا ولكنّـه حقيقـة لا أراك تراهـا: إنّـك وحيـدٌ! وحـدك. قـد تفتـح عينـك عـلى الكثـير ولكـن لـن تـرى أحـدًا. لـن تـرى مـن تطمـئن لـه وتركـن إليـه. كل مـن حولـك يـصرخ فيـك محـذرًا ومنبهًـا، ولكنّـك لا تفعـل سـوى أن تسـتغشي ثيابـك، وتُغلـق قلبـك، وتصـد عقلـك، وتُقـصي حلمـك. أتوقـع منـك قولـك: لسـتُ بحاجـة لأحـد.. ولا يفـرق وجـود غـيري معـي أو فراقـه! ولـو كان ذلـك هـو حالـك: فاسـتعد لمرافقـة الألم في وحدتـك، وتعـوّد عـلى الفـراق يقبـع معـك عـلى عتبـات الحيـاة.

قـل لي: مـن هـم أصدقـاؤك؟ إن كنـت سـتبادر قائـلًا: هـم كُـثر!! فتـأن.. إنّهـم مثـلي؛ يمكنـك التخـلي عنهـم والبعـد عـن مصادقتهم بسـهولة ويـسر بمجـرد أن يضايقـك واحـدٌ منهـم!! أهـذا هـو مفهـوم الصداقـة عنـدك؟!

مـا أحوجـك أن تعـرف أنّ للآخريـن طاقـات لتحملـك، ولكـن، اعـذُرني، فهـي ليسـت متجـددة!

ومـا أحوجـك أن تراجـع نفسـك وتتنـازل هنيهـة عـن معاندتـك الغاشـمة وكبريائـك الآثـم؛ لتعـرف مـن بحـقٍ يحبـك وبـاقٍ عليـك وعـلى مـا أنـت تنهيـه وتلقيـه بعيـدًا كـما تلقـي زجاجـة مـاء فارغـة بعدمـا ارتويـت!

ما أحوجك إلى أن تعرف نفسك جيدًا، وأقول لك بصدق: إذا كنت ترى نفسك في غنى عن الناس، فانتبه! فلا أحد يعيش وحده وإنّ ما ميّزك الله به من مهاراتٍ أو نعمٍ جليلة هي قروض محددة الأجل وعند غيرك أفضل منها فلا تجعلها تزين لك ما تفعله وتأكد لك، الحقيقة على حسب هواك، أنّك من الممكن أن تتخلى عن أي أحد مهما كان—حسبما دومًا تردد! وإن كان الله رزقك بمن يتحملك، فهذا ليس معناه أنّ الباقين كذلك. فكل واحد بداخله عالم الله وحده أعلم به يعصره ولا يطيق زيادة من أخر، والحياة لا تترك أحدًا على حاله.

صديقي.. ما أحوجك إلى أن تقرأ كلماتي هذه التي لن أقولها لك بنفسي!!

obeikan.com

obeikan.com

ارتدى ملابسه ونزل متعجلًا كمن يخاف من شيء!

جلس بداخل سيارته وانطلق إلى العباسية.

يعرف ما قد يصادفه هناك.. أشباح تطارده.. ستلاحقه.. سيلاحقها...

فكّر كثيرًا أن يعتذر عن تلك الندوة لكن لم يفعل.. هو لا يعرف لماذا؟ بل، يعرف.. لكنه لن يتخلف أبدًا عن مشواره، وتلك الندوة لطالما حلم بها كثيرًا.

الطريق خالٍ كأنّه يشعر بما يمور في رأسه من أفكار مارقة، وما يعتصر بداخله من ذكريات جميلة تحمل في عبقها اندسار لحظات كانت حياته المسروقة.. المنهوبة.. المنقوضة.. وصل ميدان العباسية وانتظر في إشارتها التي يعرف أنّها لا تدوم كثيرًا إلا بسبب طلاب الجامعة الذاهبون إليها والعائدون منها. أرجع رأسه للخلف قليلًا، وتنهّد، فشعر بغصة تقف في حلقة!

حاول أن يثني نفسه عن أية فكرة قد تأخذه بعيدًا إلى حيث لا يدري؛ فأخذ يمعن النظر إلى الشارع والطلاب والطالبات. وقع تحت نظرته شابٌ يقف على حافة الرصيف ممسكًا بتلابيب كتابٍ في يده، فاعتقد أنّه ينتظر وسيلة ليرجع إلى بيته فقد يكون قد أنهى محاضراته مبكرًا. أخذ ينظر إليه، فتذكر نفسه منذ سبعة أعوام، وهو طالب في كلية الأداب، حين كان يقف مكانه قابضًا على كتاب يتغير كل عدة أيام متتالية، حالمًا.. هائمًا.. عاشقًا.. آملًا.. خائفًا.. حائرًا.. هاربًا من براثن الحياة ومخالب الدهر.. مترقبًا.. وَجِلًا.. مندهشًا.. يشبه كثيرًا هذا الشاب في وقفته ومسكته للكتاب وحرصه عليه وحبه له؛ مستشعرًا كأنّه طوق النجاة، فهل كان؟

أجل، كان ولا يزال. فالقراءة هي من خلقت له بين الآخرين مكانًا، وزيّنت ما يقوله على مسامع الجالسين، وجمّلت ما يكتبه في عيون

وعقـول القارئـين. فدخـل إلى القلـوب ومكـث فيهـا، وأصبـح صديـق الوحيـد.. وقريـب الغريـب.. ورفيـق المهاجـر.. وحلـم الطامحـين.. وقـدوة المتيقظـين مـن الشـباب.

لمـح طيـف إبتسـامة عـلى وجهـه فنظـر، فوجـد فتـاة تقـترب منـه وهـي تلـوح لـه. حينـما وصلـت ازدات الإبتسـامة عـلى وجهـه، الشـاب المنتظـر، وكانـت تبادلـه نفـس الفرحـة والشـوق. فابتسـم هـو الآخـر إبتسـامة مجروحـة. وقـال لنفسـه: يـا إلهـي، هـل سـيتكرر معهـم مـا حـدث معـي؟ يـا تـرى هـل سـتكتمل أحلامهـم أم سـتنهار عـلى روءسـهم؟ أثمـة مـن يعبـأ بهـما ويحافـظ عـلى حبهـما؟ يـا رب. اطمـئن قلبـه حينـما مـدت الفتـاة يدهـا لتصافـح الشـاب فوجـد أن الدبلـة في يديهـما تزينهـا. فدعـا لهـما بـأن يتـم اللـه خطبتيهـما عـلى خـير ويبعـد عنهـما شر مـا تخبـأه الأيـام مـن غـدر مرتـب لـه مـن قبـل مجهـول!

تحـرك بسـيارته فقـد تحولـت الإشـارة إلى اللـون الأخـضر. الحركـة كانـت بطئيـة جـدًا. فأخـذ يتذكـر هـذا المـكان الـذي قـضى فيـه أربـع سـنوات من عمـره المنـصرم، رأى فيهـم كل مـا كان يظـن أنّـه سـيراه ومـا لم يظـن. عـرف الكثـير مـن دروس الحيـاة، وخطـت الحيـاة عـلى صفحتـة أولى إهداءتهـا، ولكـن سرعـان مـا انتشـلته مـن بـين يديـه عنـوة وبغتـة، فكانـت الصاعقـة. عـرف أنّ الأبـاء لا يؤمنـون بالحـب! فـما هـو الحـب؟ هـل كـما يكتـب عنه في كتبـه ورواياتـه؟ أم هـو المـال؟ أم ليـس هـذا ولا ذاك، فهـو التعـود؟ هـل ماتـت قلوبنـا وغفلـت عقولنـا وشُـلت بصيرتنـا وفُقـدت بوصلتنـا؟ فهـو لا ينـسى أبـدًا تلـك الكلـمات، التـي تـرن في أذنـه كسـيخٍ محمـيّ يؤرقـه كلـما تذكرهـا، حينـما ذهـب ليتقـدم لفتاتـه الأولى وحبيبتـه الأولى، فقـال والدهـا أو مـن يـراه الآخـرون كذلـك ونصبـه المجتمـع والـدًا لهـا في حـين أن يجهـل معنـى تلـك الكلمـة: أنـت جاهـز؟ فقـال في وجـل: الحمـد للـه.. عنـدي شـقة صغـيرة في العـاشر مـن رمضـان، وتمليـك وبسـدد في حقهـا

وإن شاء الله كلها سنتين وهتكون ملكي، وهجيب لها دبلة وخاتم ومحبس وبعد كام شهر بس على ما أشوف حالي أجيب شبكة أو أكمل لها على اللي اشتريته! كان بالطبع لا يرى ذلك قليلًا ولم يتوقع أن ينظر إليه أحد نظرة دونية؛ فلا أحد يعرف كم عانى ليجني تلك الثمار الهنيئة والمُبشرة بزيادة وفيرة من الثمار ورخاوة العيش المستقبلي. لكنه تفاجأ به يقول: أنت عارف احنا قاعدين فين؟ بكل تأكيد كان يعرف لكنه لم يجب! فرد هو على نفسه وقال: في مصر الجديدة. والشقة ١٦٠متر يعني ثلاث حجرات كبيرة، واستقبال واسع، وحمام ومطبخ ومساحات فارغة أكثر لا نعرف فيما نستغلها حتى الآن! وأنت تقول: شقة صغيرة يعني تقريبًا حوالي ٦٠ متر مثلًا، أو بمعنى أخر قد الحمام والمطبخ اللي في شقتنا!! ومرتبك كام؟ من غير ما تقول، أكيد حوالي ١٢٠٠ جنيه بالتقريب أو يمكن أقل!! تفتكر لو أنت هترضى تجوز بنتك لواحد مرتبه زيادة على مصروفها في الشهر تقريبًا بخمسمائة جنيه؟!!

«أيوة حضرتك هرضى طبعًا؛ المهم الراحة النفسية التي تخلق الراحة المادية، فأنا أعمل وأنتج وأدخر عندما أكون مرتاحًا نفسيًا وبالتالي أرتاح ماديًا، أمّا الراحة المادية لا تشتري يومًا راحة نفسية وصحة جيدة والحب هو أعز ما أملك وهي تبادلني إيّاه وسنبنى بيتًا على مهلٍ والشقة ستتسع والواحدة ستصبح اثنين والسيارة بإذن الله سيرزقني الله بها.. ومرتبي سيزيد الضعف... وكل شيء سيصبح على ما يرام. وأنا الحمد لله في بداية مشواري الأدبي وأكاد أنهي كتابي الأول وفي طريقه للنشر.. وبجانبه بدأت في خط أولى كلامات روايتي الأولى، وإن شاء الله سيوفقني الله وأصبح كاتبًا مرموقًا وحينها سأملك كل ما تريده لهناء!!

أراد أن يقول له كل ذلك وزيادة! لكنه أيقن أن تلك النوعية التي

طغت على قلوبهم الأموال وغطت عيونهم الماديات، وقست قلوبهم فهي كالحجارة أو أشد قسوة لن يُجدي معها كلام! فلملمّ أشلاء نفسه ورحل، مدركًا بقايا كرامة كادت تسحق تحت وطأة نذل من أنذال الدهر لم يعد يرى في الحياة سوى كلمة واحدة: الفلوس!

أخذ يضرب أخماس في أسداس متعجبًا مما آلت إليه الحياة وطبيعة البشر. سائلًا نفسه بلا إجابة: لما باتت الأباء تتهافت على المال كما لو كانوا يطبقون سُنة النبي صلى الله عليه وسلم وينتقون من يرضون دينه وخلقه. هل سأل عنّي فكنت سيء الخلق؟ ليته سأل! والأسوء حينما يخرج من بين ظهرنينا صوت رجل يكتم إيمانه صارخًا بأنّ هذا لا يُرضي الله ورسوله عليه أفضل الصلاة. تتعالى أصوات المتشدقون بمصلحة الأولاد زاعمين أنّ «الدنيا» لم تعد كما كانت ولا بُد من راحة بناتهم!! آه.. والله لم تعد الدنيا كما كانت، بل إنّ وجود تلك النوعيه الخائبة أكبر دليل على فساد المجتمع. كل أم تقارن زوج ابنتها بقريباتها وجيرانها، ولا تعرف سوى جملة: هي ليست أقل من فلانة! وفلانة جالها وجالها.. وغيرها وغيرها!!

يا إلهي.. تحول الأمر إلى أصنامٍ حديثة مختلقة في عقول أباء شاخت وشاخ لها ومعها الزمان، ولكن هيهات هيهات. عادت الجاهلية تطل برأسها من جديد لتنفث السم في النفوس والعقول والقلوب.. لتنزل الغشاوة على العيون؛ فلا تنكر منكرًا ولا تأمر بمعروف ولا تدرك خشونة الرأي! وأخشى أن تكون قد نجحت!!

إن قولهم مثل قول غيرهم من قبل: إنّا وجدنا أباءنا كذلك يفعلون! فهل كان أبائكم أنبياء؟ بل أنتم تخالفون الأنبياء.»

وصل أمام بوابة كلية الأداب ودخل بسيارته، ووقف أمام مبنى الكلية ودخل الكلية متوجهًا نحو القاعة؛ فهو يعرف مكانها بل محفورٌ في ذاكرته وقلبه. فأمّا ذاكرته فقد كان يحلم بهذا اليوم الذي سيُدعى

في كليته التي درس فيها وانبهر بعلمها وأساتذتها ليناقش كتابًا له أو رواية، وقلبه: فكثيرًا ما حضر ندوات الكتاب الآخرين الذين كانوا يُدعون لمناقشة أعمالهم مع هناء.. حبيبته...

كانت دكتورة غادة العميري في القاعة في انتظاره وبعض الطلاب الذين حضروا قبل ميعاد الندوة بربع ساعة؛ فهو قد وصل قبل ميعاده كما اعتاد أن يفعل في مواعيده من أيام الجامعة. سلّم على الدكتورة واعتذرت له أنها الندوة ستبدأ بعد ربع ساعة، فابتسم قائلًا: أعرف طبعًا حضرتك يا دكتور.. أنا بفضل أحضر قبل الميعاد! ونزلت هي تتكلم مع منظمي الندوة من الطلاب والطالبات. وسافر هو في سماء أفكاره المكفهرة.

كانت تجلس هنا معي.. على هذا الكرسي بالذات على اليمين؛ كُنّا نتصيد الأماكن التي تمكننا من رؤية الكاتب مباشرة. ارتسمت على وجهه إبتسامة مجروحة، وتبعتها تنهيدة عميقة لا يُدرك مخبأها سوى الله عز وجل. كثيرًا ما قالت لي: إن شاء الله بكرة تيجي هنا وتقعد في نفس المكان وتناقش كتابك يا حبيبي، بس طبعًا هكون معاك!! لقد جئتُ.. لكنكِ لستِ معي!! فَلِمَ جئتُ وأن أعرف أنّكِ لستِ هنا؟ يا ترى هل عرف أباكِ أنّي بالفعل الآن رزقني الله بما وعدته به؛ فلدي شقة أقطن فيها منفردًا بذاتي، وسيارتي من أحدث الموديلات العالمية، ومرتبي يزيد على مصروفك الآن بأضعاف، ورزقت حب الناس والنجاح والشهرة. هل ندم على رفضي؟ هل ندم على كسر قلبك أنتِ؟

ياريت

هذه القاعة التي أنا ضيفها الآن شهدت أحلامنا وطموحاتنا وآمالنا الطفولية العريضة والتي تحققت الآن إلا أهم جزء منها: أنتِ. بل لم تكوني جزءًا أبدًا؛ فأنتِ أحلامي وآمالي، فما تحقق منها إذن؟!

يـا تـرى هـل لا تزالـين تذكرينـي كـما أذكـرك دومًـا في كل سـطر أخطـه وبـكل حرفـه أكتبـه.. ومـع كل جملـة أبثهـا الـورق؟ وهـل يحـق لـكِ ذلـك بعـد أن تزوجتـي غـيري.. مجـبرة؟! لا! فأنـا أعرفـكِ جيـدًا لـن تذكرينـي إلا مجـبرة مـن صنيـع ذاكـرة ماكـرة تلـوح لنـا بمـا نظـن أننـا نسـيناه.. تلوعنـا.. تفجعونـا.. تعذبنـا.. تريحنـا أحيانًـا.. وأنـا لا أسـتطيع أن ألومـك عـلى الهـروب مـن ذكرايـا؛ فلـم يعـد مـن حقـي أن أسـكن عقلـك ناهيـكِ عـن قلبـك!!

فقد بِتُّ غريبًا الآن!

مازالـت كلماتـك الواهنـة المسـتجيرة مـن شرك الدنيـا وغلظـة الأهـل تـرن في أذني، عندمـا قولتـي لي: أنـا الآن ميتـة! بـل تلـك الكلمـة لم تعـد تُخـرج مـا بداخـلي؛ فالمـوت راحـة مـن عـذاب الدنيـا وأنـا لسـت مرتاحـة ولا أعـرف للراحـة طعـمًا!! فخـارت قـواي الملثمـة بلثـام التجلـد عقـب تلـك الكلـمات الصارخـة، فانهـرت.. ودمعـت عينـاي.. ووددت لـو صرخـت في عقـل وقلـب وأذن أهلـكِ ليعرفـوا جُـرم مـا يرتكبـون! ولكنهـم، علمـوا، فـما وهنـوا لمـا اجترفـوا!! قضـوا عـلى حلـم بـريء.. وداسـوا عـلى قلـب هائـم.. وغـدروا بالسـلام! بـلا معانـاة ولا لاسـعة ضمـير!

هـل لأنـكِ كنـتِ لي الدنيـا، كنـت، حقًـا، كالدنيـا في إقامتهـا! فالنبـي الحبيـب «صـلى اللـه عليـه وسـلم» أخبرنـا أنّهـا مثـل المسـتظل تحـت ظـل شـجرة ورحـل عنهـا! كنـت لي كواحـة عذبـة في صحـراء شاسـعة حارقـة، تنقـذ المـار في تلـك الفـلاة مـن هجيرهـا. أسـتكترتكِ الدنيـا عـليّ؟ أم أنـا مـن لم يكـن أهـلًا لـكِ؟! فكيـف لي أن أنـسى إذن حلـمًا رفعنـي مـن فـوق الأرض إلى عليـاء السـماء، وخـاض بي معـارك الدهـور وقلّـم مخالـب الوحـوش! عرفـت وقتهـا أننـي لـن أنـسى أبـدًا، ولكنـي أؤمـن أنّ الزمـن يضمـد الجـراح؛ ببراعتـه الفائقـة في تضميـد جراحـى المغلوبـين. ولا أحـد ينكـر أنّ الحـزن عابـر وآلامـه وأوجاعـه تلتئـم مـن صنيـع الأيـام،

حتى المنكوبين أنفسهم لا ينكرون ذلك، ولكن ثمة أحزان تنزوي في اللاشعور وتنطمر لتخدعنا وتجعلنا نظن أننا نسينا وجودها، لتأمن مكانها في دواخلنا، وتلك هي أصعب الأحزان. فتباغتنا من جديد.. تطرحنا أرضًا.. تنغص عيشنا.. وتقلب أحوالنا.. تبدل أفراحنا أتراحًا.. ترجعنا إلى محظة الصفر في لحظات..

شيء يعكر صفو الصدر ونقاء الذهن، فلا تتسع النفس لما ينعشها من هواء الصحبة ورفقة المهتمين بحالها. نقطة سوداء في أفق النفس يراها كل مبصر للقلب ولا ليس العين، تشعشع بمصحبة منغصات متتالية. سدادة توجضع في الأذن، فلا تسمع كلمة سلوى، ولا تعي حروف ضحكة صادقة تلهيها عن صخبها الداخليّ. مُخدرٌ يسري في أعصاب البدنِ، فيُشل الإحساس بنبض الحياة ورونق العيش وخفة الجالسين، ويستحيل كل شيء إلى ثقلٍ لا تتحمله الأنفس والأرواح. يصيب العين بضبابٍ يرافقها في ظعنها وإقامتها؛ فلا ترى النجوم تتلألأ في جوف الليل، ولا اللآلئ تنثر نورها الوهّاج. القمر بدرًا لكن النفس محاقًا.. والشمس مشرقة، بيد أنّ الروح في ساعات غروبها... هو لا يعرف ما الذي ذكره بتلك الرسالة البعيدة التي حاول إنزالها في كهف المتناسى من المآسي التي تفتك به، لكنه لم ينجح!!

فتح بريده الإلكتروني، فوجد رسالة بعنوان: «على مشارف الغرق!» يعرف أنها رسالة من تلك الرسائل التي يرسلها إليه الذين يثقون في رأيه ويجدون في كلماته تسلية لما تصبه الحياة على رءوسهم من أفعالها الكثير؛ يطلبون رأيه الذي دومًا يسدده الله له. لو كان يعرف ما سيجده في الرسالة ما فتحها وما قرأها، لكن هل كان سيقدر أن يبخل برأيه على مستفتٍ أو طالبٍ لرأيه أيًّا كان؟! لا! فتح الرسالة وأخذ يقرأ ما فيها من مشاعر تزيد من همه همًا ومن وجعه وجعًا ومن حيرته ما يصيب حياته بالدوار الصاعق. كانت حروفها

تقـول:

«السلام عليكم أستاذي العزيز...

فكـرتُ كثـيرًا قبـل أن أخـط لـك تلـك الكلـمات وتـرددت فيـما يزيـد عـلى ثلاثـة شـهور عـلى أمـل أن ينصلـح الحـال فـلا أجـد حاجـة لكتابتهـا لـك، ولكـن لم يحـدث مـا رجوتـه، فاكتبتهـا لـك...

أنـا رجـل متـزوج يـا سـيدي منـذ سـبعة أعـوام مـن سـيدة جميلـة ومهذبـة ولهـا مـن الخلـق والصـبر مـا لم أتصـور وجـوده، لا تعـرف التـبرم في شي؛ وحينـما ارتبطـتُ بهـا كان مرتبـي لا يتجـاوز الألفـي جنيهًـا بـل كان أقـل ومـع ذلـك لم أر الشـكوى منهـا أبـدًا، وهـي مخلصـة لي كل الإخـلاص ولا أشـك في ذلـك أبـدًا.. وهـي مثقفـة وتخرجـت في كليـة الأداب قسـم الفلسـفة ووالدهـا كان مرتاحًـا ماديًـا ولا أظـن أنهـا عانـت في حياتهـا مـن حرمـانً قـد يكـون تسـبب لهـا في أذمـة نفسـية أو عقـدة لا تـدري بهـا. وقـد عرضـت عليهـا أن تـزور طبيبًـا نفسـيًا فرفضـت وغضبـت وقالـت: أنهـا ليسـت مريضـة وهـي بأفضـل حـال، وهـل قـصرت معـي في شيء؟ والشـهادة للـه: لا يـا سـيدي لم تقـصر في شيءٍ أبـدًا، بـل ودمًـا تقـف بجانبـي وبمسـاعدتيها ترقيـت وزاد مرتبـي... ولكـن منـذ تزوجنـا وأنـا أرى في عينهـا شـيئًا حزينًـا غامضًـا لا أعـرف لـه سـببًا ولا أجـد إليـه سـبيلًا؛ وفي بـادئ الأمـر أرجعتـه إلى الحيـاة الجديـدة التـي أقبلـت عليهـا والبعـد عـن أهلهـا وانشـغلها بتربيـة الأولاد والمسـئوليات المنزليـة، لكـنّ الأمـر لم ينتـهِ ولا تـزال تلـك النظـرة المتحـسرة عـلى فـوات شـيئًا بعينـه تقبـع بداخلهـا وفي عينهـا...

فـما هـو رأيـك الناصـح الصـادق لي فيـما أشـعر ومـا أخـاف عليها منـه؛ فأنـا لا أريدهـا معذبـة بـشيء وأعـرف أني مقـصر في حقهـا بانشـغالي في عمـلي دائمًـا وارتباطـاتي الآخـرى، وأنـا يـا سـيدي رجـل لا يعـرف مـن المشـاعر إلا أهمهـا ومـن الرومانسـية إلا الكلمـة العابـرة!! وأخـشى أن يـأتي

اليوم الذي تغرق فيه سفينة حياتنا ويفترق كل منّا في صخب أمواج الحياة المتزايد والمتعالي...

ولكم كل التقدير والاحترام.

التوقيع/ خائف من الغرق.»

قرأ الرسالة أكثر من عشر مرات ليبعد عنه هذا الواجس الذي نبت في قلبه وسكن عقله مع أول حروف للرسالة، وهو: أنّ تلك السيدة هي «هناء» وهذا الرجل هو من أخذها منه، هو من فضله أهلها عليه، هو الجاني، هو المغتصب، بل هو القاتل لأحلامه! الجاني على أحلامها وبراءتها وطموحاتها. إذ يبدو من كلامه أنها لا تعمل ولا تهتم بشيء إلا بيتها! وهي من كانت «تناغشه» بإصرارها على العمل وأهدافها التي ستحققها ونجاحها الذي ستفرضه على هذا المجتمع الذكوري المتعفن.

«يا إلهي... هل ضاقت به الدنيا ليرسل لي أنا بالذات تلك الرسالة التي ذبحتني من جديد، جاءت كطيف زائر يعبث بكل سواكن نفسي، وضرب عرض الحائط بكل تلك السنوات المنصرمة التي عانيتُ فيها كي أكون على الحالة التي وصلت لها الآن وأتناسى في خضم الحياة ما كابدتُ، ضربه بسهولة ويسر وفي لا مبالاة تشبه تلك التي جعلتني الحياة أعاني بسببها من قبل. ولا أعرف أية ظروف هيأها القضاء لي كي أصل إلى ما أنا عليه، فتلفعني نيران الذكرى والغيرة والألم حتى الموت.»

لكنه لا مفر من أن يرد وحتمًا سيرد!

ولكن ماذا ينصحه وماذا يقولُ له؟! أيقول له: حقيقة ما تعانيه؟ أم ينصحه بكيفية احتواء حلمه القديم وحبه الأول؟ ما أقسى لحظات الحيرة الجارحة التي تضعنا فيها الحياة بين واجب واجب التنفيذ وبين ما نريده وما نتحمله.

أمسك قلمه وشرع في خط ما يراه مناسب لقوله وقلبه يعتصر ألمًا وينزف وجعًا وعينًا تذرف دمعًا. لا يتذكر كم ردًا كتبه وسرعان ما شطبه من ورقته أو كم ورقة مزقها بما كتبها. فقد كان يكتب بلا وعي بما يخطه ثمّ يلبث أن يُدرك أنّ ذلك لا يليق ولا يمكنه قوله؛ فلم يعد كما كان وهو الآن ينصح من غزاه في حلمه وهزمه في معركته معه!! يا تُرى كم مرة كتب قائلًا:

سيدي المُبجل!

قرأت رسالتك وشعرت بحيرتك المتبينة في حروفك وعرفت إخلاصك لزوجتك وحرصك على بيتك، ولكن هل سألت نفسك مرة أنّ هذا الشيء الذي في داخلها هو حبٌ قديم لم تنله وقته؟! فعاشت ممزقة بين واجب الزواج وبين ما تشعر به في داخلها من طوق وشوق لحبٍ وأدته أيدٍ قاسية في بدايته؟! قلت في رسالتك: أنّها لم تكن محرومة مما يجعلها تعاني من عقدة نفسية إذ أن أهلها من صاحبي الأموال وبالتالي فما هو الشيء الذي لم تنله بأموال أهلها!! لَمَ لم يبادر إلى ذهنك مرة واحدة، أنّ هذا الشيء هو الحب! فهل تعتقد أنّ المال يشتري حبًا؟! أنصحك سيدي أن تطلق صراح هذا الطائر المجروح إلى عشه الذي لا يزال يحلم به، ولا تكن قاتلًا لقلب وعقلٍ وحياة. وخيّرها بين ما تراه صوابًا وإذا اخترتك فهنيئًا لك وإذا لم، فاحتسب حرصك عند الله وتأكد أنّه الأفضل لك وتخليصًا وإخراجًا من حيرتك التي تعذبك الآن!

أستاذي

رسالتك تحمل في ثناياها حرصًا على مودة دامت لسبع سنوات وقد تزيد قليلًا، ويخرج من عبقها حيرة تفوح منها أنانية مقنعة؛ فزوجتك تخلص لك كل الإخلاص وتزودك بكل الطاقات الإيجابية التي تتطلبها حياتك المهنية والشخصية، لكنك لا تفكر فيما

تحتاجه هي؛ وحينما فكرت، كان ذلك بسبب خوفك من انهيار كيان حياتك والذي بالتالي سيؤثر على حياتك المهنية. أنت لم تسأل نفسك ما الذي تحتاجه هي ولا ما الذي تفقده معك؛ فنظرتك مادية بحتة لا تعرف من الحياة إلا لاوازمها الأساسية، ومتى توافرت فلا شيء مفقود!! إنّك مثل الكثير من الرجال الذين يحصرون راحة زوجاتهم في مصروف بيتٍ لا يعرفون عنه سوى بضعة سويعات بالليل يرتمون فيها كجيفة فوق السرير! إنّ حبيبتي تفقدني أو تفقد الحب الذي لم تجده معك ومع حرصها وحرصك على نجاح حياتكما!

توالت الردود على هذا المنوال لأكثر من ساعتين كتب فيهما ما يقرب من عشرين ردًا وحذفه! ثمّ حاول أن يبعد نفسه عمّا في داخله وخرج قليلًا وشغل نفسه في قراءة كتاب تاريخ متخصص وعاد بعد نصف ساعة ليرسل له الرد، وكتب قائلًا:

«أيها الزوج المحترم...

لا تحمل رسالتك شيئًا مروعًا أو منذرًا بهدم كيان حياتك مثل الكثير مما يرسله لي الآخرون من مشاكل مستعصية و عواقب أخطاء وخيمة. فحياتنا كلنا يا أستاذ تترنح بين السعادة والحزن ولا حال يدوم؛ فدوام الحال من المحال، كما أنّك لا يمكنك أن تظل تجني ثمارًا ناضجة من حديقة الحياة دون مكابدة أو دون دفع ثمنها إلى محصل الأسعار: الزمن. والحياة الزوجية لا بد أن يتخللها مرحلة من السأم والضيق والملل والخنقة المألوفة، ولكن حينها يتحتم مراعاتها جيدًا وعدم إهمالها كي لا تشطح وتخرج من المعتاد إلى الخارب. وقد يكون حالة زوجتك الخلوقة هي تلك المرحلة ولا تنسَ أنّك، كما قلت في رسالتك، باعترافك أنّك مشغولٌ ولا تعبأ بما يعتلج في صدرها وعقلها! ونصيحتي لك يا أستاذ أن تنتبه إلى بيتك مع مراعاة عملك، ولا تظلم أحدًا على حسب الآخر؛ فاعط كلَ ذي حقٍ حقه. واحمد

اللـه عـلى زوجـة مخلصـة في زمـنٍ قـلّ فيهـا المخلصـات والمخلصـين عـلى حـدٍ سـواء.

ولي نصيحـة آخـرى لـك، إيّـاك أن تقيـس سـعادة حياتـك سـواء في عملـك أو بيتـك عـلى المـال أو مـا تجنيـه في جيبـك أنـت. فالمـال لا يخلـق السـعادة، قـد يدعمهـا في بعـض الأحيـان ولكـن القلـب لا يمتلـئ أبـدًا إلا بالحـب والـود والخـير والكلمـة الطيبـة. وصدقنـي، الكلمـة الطيبـة لا تحتـاج إلى رومانسـية تشـبه تلـك التـي تشـاهدها في الأفـلام. الكلمـة الطيبـة هـي الرومانسـية عنـدي النسـاء، والنسـاء أغلـب مـن الغُلـب كـما يقولـون! بـل هـنّ قـد يختلقـن مـا يلفـت إنتبـاه الرجـال إلى احتياجاتهـن العاطفيـة. وآخـيرًا، لا تجعـل حرصـك عـلى توفـير حيـاة كريمـة لأسرتـك تشـغلك عـما هـو أهـم لهـم، وهـو القلـب والـدفء الأسري الـذي نفتقـده في كثـيرٍ مـن الأسر المحيطـة بنـا. ورفقًـا بزوجتـك الـرؤوم التـي رزقـك اللـه بهـا، ولا تتركهـا كثـيرًا وحيـدة تكابـد شـيطان أفكارهـا؛ واحـرص عـلى تلبيـة حوائجهـا العقليـة والعاطفيـة قبـل أي شيء آخـر... انتبـه لنفسـك أكـثر. وأبعـد اللـه عنكـما غـرق سـفينة حياتكـما وحافـظ عليهـا مـن أمـواج الحيـاة الآبديـة العاتيـة التـي لا يفلـت مـن قبضتهـا أحـد!

والسلام ختام.»

أرسـل تلـك الكلـمات ثـمّ حـذف الإيميـل كلـه نهائيًـا ودعـى اللـه ألا يرسـل إليـه شـكرًا أو رسـالة آخـرى وأن يتكفـل بمـا أحيتـه تلـك الرسـالة فيـه مـن كوامـن الحـزن وصغائـر شرر الوجـع.

فـاق عـلى صـوت دكتـور غـادة قائلـة: ... الكاتـب الشـاب الناجـح لمناقشـة روايتـه الآخـيرة «الحائـر» فنظـر حولـه فوجـد القاعـة قـد اكتملـت أمامـه ومـن كلامهـا أيقـن أنهـا كان تتحـدث عنـه منـذ دقائـق وهـو مسـافر في رحلتـه الفكريـة الحزينـة. فابتسـم إبتسـامة مصطنعـة وقـال: أنـا الحائـر!!

«الحائـر» هـي أنـا.. والدكتـورة.. وحضراتكـم جميعًـا؛ فحياتنـا دومًـا تحيرنـا بـين مـا نرجـوه وبـين مـا تجـود بـه إن كانـت تجـود أو يصـح هـذا الفعـل مـع وصـف تلـك البخيلـة علينـا بأحلامنـا وآمالنـا. فهـي لا تـآذن لنـا بـأن نأخـذ مـا نتمنـاه في وقتـه إلا نـادرًا جـدًا، إلى الحـد الـذي يجعلنـا نشـعر أنهـا مشـغولة عنـا بـوأد أحـلام آخـر في مـكان آخـر! فهـي كل ثانيـة في شـأنٍ مختلـف. نحـن حائـرون بـين مـا نكابـده في حياتنـا وبـين شـوقنا وتوقنـا إلى أحلامنـا المسـتحقة لنـا؛ فنحـن لا نطلـب أكـثر مـما نسـتحق! لكـن الحيـاة تـراه كثـيرًا وأكـثر مـن الكثـير، فـما نحـن سـوى نمـل عـلى سـطحها بـل إنّ النمـل لـه وجـود وتعـترف بـه وتتركـه يعيـش في داخـل حوائطهـا أمّـا نحـن فتسـحقنا أرجـل الأنـذال والقاسـطين والخارقون لقانـون الإنسـانية.

وتلـك الحـيرة تسـلمنا إلى حـيرة أشـد وأقـسى، تتمثـل في: هـل نـترك أحلامنـا وطموحاتنـا كي نسـتريح مـن مخالبهـا، أم نواصـل حربنـا الشـعواء معهـا؟ فالحيـاة، لا تقسـو عـلى الخاملـين؛ فيكفيهـم مـا بداخلهـم مـن خمـولٍ لا يعـرف معنـى الحيـاة، أمـا الحالمـين لا تتركهـم في حالهـم، تجعلهـم يدفعـون ثمـن مـا يطلبونـه باهظًـا.

أيهـا الحائـرون معـي في سراديـب الكـون والحيـاة اتركـوا وراءكـم كل احتـمال في الاستسـلام!!

obeikan.com

الوهم

أثمة مكان في عالمنا الحالي للحب؟!

بالتأكيد هناك، ولكننا نجهل ماهيته ولا نعرف وجهته المرجوّه, وفقدنا خريطة حياتنا في خضم صراعات داهية علينا وقاتلة لكل ما هو جميل بداخلنا. كل منّا قرر السير في طريقه دون دراية منه بطبيعة تضاريسه أو حتى معرفة نهاية طريقه أو إذا كان هذا الطريق في نهايته ما يرجوه أم لا، فلا أحد يعرف! وأصبح الإنسان يُمَنّي نفسه بما يجهله لأنه يجهله، بالرغم من كون الإنسان عدو ما يجهله. لكنّه يبدع في الإيمان بكل ما هو مجهول متعللًا بأنّه مجهول. فكثرت صحاري الحب بيننا ووقعنا فريسة لسياج اليأس الذي بات يحيطنا جميعًا من كل الجهات والنواحي، ووقعنا تحت وطأة الحزن العاشق لأوجاع الليل وأتراح النفس وعجز الإرادة.

اتسعت المسافات بيننا وضاقت بنا الدنيا وكفرت بنا إنسانيتنا التي كفرنا بها قبلها، فلا أحد يعبأ بغيره والكل يولي ظهره للآخر؛ متناسين أنّه لا بُد من فوارق بشرية لتستقيم الحياة وتسير في دورتها الطبيعية التي فرضها الله عزوجل عليها منذ الوهلة الأولى للخلق. فإذا أصبح كل منّا قويًّا للغاية، فمن الضعيف؟ ولو كنّا مبتهجين على مدار حياتنا ونتساقط من الضحك، فمن سيحزن؟ تناسينا طبيعة الخلق فأنسنا الله أنفسنا في تلك المعمة القوية الغاضبة المزمجرة. فمن منّا ينكر أنّه يعرف طبيعة الحياة وأنّها تارة وتارة؟! لا أحد. لكننا نتغافل ونتشاغل ونتناسى، فنتعاظم ونتكبر ونتجبر، لنسقط في هاوية النفس والشيطان. فعشنا في الوهم، خادعين أنفسنا أنّه الخيال وأنّ الخيال هو السلام النفسي الذي نهرب به من فظاعة الواقع وغلظة الآخرين، فمن الآخرون؟ ألسنا نحن الآخرون الذي نهرب منهم، فمن من نهرب! إنّ الوهم هو الخداع النفسي

وليس خيالًا، فالخيال لا يحتاج لتربة فاسدة وإنّما تنمو براعمه في تربة صالحة خصبة، أمّا الوهم فهو الذي نخدع به أنفسنا وأنّ حياتنا ستنبت في تلك الصحاري الشاسعة التي نضيف لها كل يومٍ مساحات من جحودنا المتزايد لجمال طبيعتنا ولجمال الكون المترامى على مد البصر.

فثمة شعرة فاصلة بين الخيال والوهم لا يدرك كنهها سوى المتيقظون لأشراك الدنيا، وهجير تلك الفلاة الغاضبة المزمجرة في علياءٍ وفخرٍ وتكبر وتعنّت. فالخيال حياة، يخلقها صاحبها، أحيانًا، ليحققها فيما بعد.. يحلم.. يتمنى.. يتوق ويرنو.. يمعن.. يتبصر.. وأحيانًا أخرى، يخلق تلك الحياة لعجزه عن تحقيقها في الواقع الحيّ. أمّا الوهم هو ألا يحدث كل ما رُسم في عالم الخيال. الخيال أمل، والوهم مرض. مرض مزمن يصيب كل خلايا الحياة؛ فتتبدل الحقائق وتتلون الأشياء والأشخاص، حرباء للنفس. الخيال هو صفحة غير واضحة في كتاب الأيام فيتخيل صاحبها حروفها ويفك شفراتها، أمّا الوهم أن تقطع تلك الصفحة من الكتاب ويخدع صاحبها نفسه بأنّه يعرفها ويعرف فحواها. إنّ الله مع الحالمين المتخيلين لعالم يرنون إليه، ولعنة الله على الواهيمن الخالمين الحاجدين؛ فالوهم كفر بالخيال، والخيال كفر بالواقع!!

ألسنا في وهم العيش وإدراك الحقيقة؟ نظن أننا عارفين بماهية الحياة ومدركين لأسرار الكون؛ فتتماهى نفوسنا وتتعالى أرواحنا وتتكبر عقولنا، وتتطلع إلى ما لا يجدر بها أن تدركه؛ فلا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار، بيد أنّها طبيعتنا المتعجرفة تكاد تقسم أنّها يمكنها فعل ذلك!! فهي طبيعتنا من أول تواجد لها على خارطة الخلق وقبلت الأمانة التي رفضتها السموات والأرض والجبال، لتندم وتظل تلعن وطأة تلك الأمانة عليها، متغافلة

أنّها من اختارها عن طيب خاطر. وكل ذلك يمكن حله، واتضاح هدفة وقصده، ولكنّ المصيبة الكبرى هي نسياننا لفطرتنا السماوية المعلقة بالفردوس المتعلقة بالله. تكالبنا على الدنيا وسجدنا أمام شهواتنا ورغباتنا، وتركنا خلفنا أرواحنا التي هي جزء من روح الله سبحانه وتعالى. وتحول شغلنا الشاغل هو جمع الأموال بأية طريقة فلا يهم، المهم أن نكنز الذهب والفضة ونكوم الأموال في خزائن النفس المريضة قبل تكومها في خزائن البنوك. قسونا على بعضنا، وقضينا على أحلامنا وأحلام غيرنا، وكسرنا قلوبنا، ودوسنا على كل فضيلة وكل سلوك محمود، متلثمين بلثام فاجر كافر لا يمتّ للدين بأية صلة وندعوه: مصلحة أولادنا ومصلحة حياتنا، وأنّ الوضع مختلف والحياة غير الحياة.. بل نحن من تغيرنا، فتغيرت طبيعتنا وتبدلت معها الحياة. إنّ الدين لا يتغير بتغير الأزمان والمكان، وإنّما نحن من نحرفه ليلائم أهوائنا وأغراضنا الدنيوية الحقيرة. فَكَمْنَ منشأ همنا بيننا، هو ذلك التنازع القائم بين ما تحن إليه نفوسنا ونزاعتها، وبين الأصول والثوابت التي جُبلنا عليها وزرعها الله فينا قبل خلقنا؛ ونحن مجرد أرواح عنده. وتعاظمت المشكلة وتكاثرت عندما فضل كل منّا أهوائه على مبادئه وأصوله الخلقية الربانية. فملنا للمال على حساب الخُلق، وفضلنا الجهل والشهوة على العلم والمعرفة، وتجمّل في عيوننا الفاسد على الصالح، ورضخنا لكل ما ينافي مهمتنا في الحياة لأنّ الكل يسير هكذا، ولن نكون بدعًا من الخلق بينهم! يا قوم، إنّ كثرة السالكين لطريق لا تضمن صحته؛ فالكفار كانوا أكثر من المسلمين في عهد كل نبيٍ حتى خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بل إنّ الله عزوجل يقول في كتابه الكريم: «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله...» فهل نسير معهم؟

وقبل أية إجابة قد تخرج من أحدنا، فقد سرنا بالفعل.

وغاصت جذورنا وتعمقت في وحل النفس، وتكاثرت فروع شجرتنا حتى غطت على تفكيرنا فيما نفعله. تشوهت لدينا المفاهيم والقيم المتجذرة، فكفرنا بالحب وربطناه بانعدام الأخلاق وأنّه شغلة المتعطلون والمتسكعون في أفاق الحياة، وقدمنا عليه المال والمصالح والراحة المادية التي آمنا كل الإيمان أنّها تخلق الراحة النفسية والعقلية والعاطفية، بل وصل الأمر، في نهاية المطاف، إلى أن تخلى العاشقون والمحبون عن أحلامهم في وهم أنّه لا خيرة لنا ولا محال ولا سبيل سوى ذلك، كما أنّ «الكبار» يعرفون أكثر! فمن هم الكبار؟!

دوت تلك الكلمة «الكبار» في أذني منذ أن خرجت إلى الشارع.. ورأيت ما حولي.. وتعرّفت على من بجانبي.. واختلطت بأقراني ورأيت جيراني...

كنت في صغري حينما أقبل على شيء، وتمنعني أمي.. أقول لها:»فلان وفلان يفعلون ذلك؟! فَلِمَ لا أفعله؟ كانت ترد عليَ قائلة:»دول «كبار» و»الكبار» يعملوا أي حاجة!! ملكش دعوة بهم أحسن! وكانت تغيظني تلك الكلمات آنذاك، ولا أجد غير أني أقول لها: بس دول مش أحسن مني وكمان طالما هم بيعملوا كدة وهم كبار، يبقى ممكن أعمل زيهم؟! بيد أني لم ألقَ أية إجابة سوى:»دول كبار!» وما كان يزيد حنقي هو أن «الكبار» دائمًا على صواب؛ فيحق لهم الزعيق والسب _إن شاءوا_، والضرب في بعض الأحيان. ولكن من الإنصاف، أنهم بعدما يهدءون قد يستمعون لك ويعرفون أنك مظلوم... ولكني لا أُأكد لك أنهم سينصفونك!

أبشع الكوابيس تلك التي تصاحبك في صغرك وكبرك! هل تحولت تلك الكلمة بالنسبة لي كابوسًا؟! يؤسفني أن أقول لك: نعم! فقد أصبحتُ أكره أن يتعدى أحد على حرية وخيال وأفكار الأخرين بحجة تلك الكلمة. وعلى نفس المنوال: تجد كلمة «علشان

مصلحتك!» أية مصلحة هذه التي تجعلني أُقهر في داخلي.. وأحبس نفسي داخل نفسي.. وتموت أفكاري حُبلى بيوم أفضل، وغدًا مشرق أشكله أن على هواي. لقد نسيت أمي وأنا في صغري أن تخبرني أن هؤلاء الكبار لا يجيدون كل شيء حولي ولا يفهمون كل ما يتعلق بالحياة.. ربما لم تنسَ أو ربما قالت ولكني لم أصدق أنذاك. من هم الكبار؟ هل خُلقوا من طينٍ غير طين الذي خلقنا منه نحن؟! لم أكره كلمة في حياتي أكثر من كرهي لهذه الكلمة.. ولم أتضايق من أحد أكثر من هؤلاء «الكبار» ويؤسفني أن أقول لك: إن تلك الكلمة هي بمثابة إشارة حمراء أمام سيارة عقل كل من أراد أن يثور أو أن يجادل.

وبعد كل ذلك لا يلوم أحد نفسه ونلقي اللوم على غيرنا؛ فنحن أبرياء، بل نحن ملائكة وقعت خطأ هنا! فحالنا أقرب إلى تلك النكتة البعيدة التي كنّا نرددها على آذاننا في ضحك وصخب، والتي تقول: أنّ رجل صعيدي ذهب إلى المستشفى ليزور أحد زملائه في العمل ولكنه كان أجنبيًا، وعندما دخل وجلس أخذ زميله يقول له شيئًا بالإنجليزية ولا يفهم ولكنه يرد عليه مطمئنًا إيّاه بأنّه سيحافظ على ابنته ويضعها في عينه! فقد فهم أنّه يوصيه على ابنته، وتُوفي الرجل وجاء الطبيب، فقال له الصعيدي: الله يرحمه، كان بيحب ابنته أوي، فسأله الطبيب لِمَ؟ فقال: أخذ حوالي عشرة دقائق يقول لي كذا كذا كذا!! فقال له الطبيب: يخربيتك، دا كان بيقولك شيل رجلك من على جهاز التنفس!! وهذا هو حالنا الآن، دوسنا على إنسانيتنا وبشريتنا وفطرتنا النقية، فصرخت مستغيثة مما نفعله، فقلنا: إنّها تمدحنا وتشيد بكل جميل نفعله؛ إنّها تقصد غيرنا!!

بغى بعضنا على بعض، وسرق كل منّا أحلام الغير في راحة لا تعرف لها مصدرًا ولا تجد لها مبررًا. فأصبحنا ننظر إلى بعضنا في استعلاء وجحود. فماذا نفعل لو رأينا فقيرًا يتكفف الناس ويسأل

حاجته؟ أقصى ما يمكننا فعله، أن نمصمص شفاهنا في شفقة مؤقتة عاطين إيّاه بضعة جنيهات معدودات في تكبر وعلو؛ مستشعرين أفضليتنا عليه وأننا أغلى وأقنى وأبقى!! يؤسفني أن أقول: بأننا تحول بنا الأمر إلى كوننا بشر بلاستيك.. مصطنعون ومختلقون.. تذوب مادتنا في نار شوقنا للدنيا ومتاعها، وتتشكل في قوالب جاحدة جامدة ثابتة لا تعرف التغيير.. نختلس بعضًا من بعض؛ ظانين أنّ الآخر لا يلاحظ لكنه مترقب لدوره الذي يختلسنا فيه، مطالبًا إيّانا بالسكوت كما سكت. فهل وافقت أنت أن تُختلس حتى الآن؟!

كنت قد قرأتَ عند زميلة لي سطرًا خطته يقول: أنظر إلى كل شيء من خلف قضبان زجاجية ضبابية، ولا أشتكي.. ولا أشتكي! فسألتُ نفسي: يا تُرى ما الذي يجعلها لا تشكتي من ضبابية الرؤية وعدم وضوح الصورة من خلف المرأة أو الزجاج؟! ثُمّ قلتُ لنفسي: فسألوا أهل الذكر إن كنتُم لا تعلمون، فسألتها نفسها. فقالت لي: أنّها لم تفكر فيه هكذا وكان مجرد سطرًا عابرًا كتبته وليس بالضرورة أن يصفها! صحيح لم أحظ بالإجابة التي كنت أرجوها، لكن، على أي حال فهذا هو حالنا جميعًا؛ فمن منّا يعرف سبب عدم شكواه. والشكوى التي أناشدها ليست تلك التي نفعلها، وهي لعنة الظروف والزجاج دون أن نغير مكاننا. إنّ الشكوى التي أقصدها تلك التي تجعلنا نتحدى ضعفنا ونقسو على شهواتنا ونراجع أنفسنا فندرك أخطائنا ونهزم عقبات حياتنا، ونتحمل في سبيل ما نرجوه ما لا يتحمله غيرنا، نتحمله في رضا وصبر وسعادة بما نفعل. لقد تعوّدنا الرؤية المشوبة فباتت تضايقنا الرؤية الواضحة. فنحن كالسائق قد تعوّد رؤية الطريق من وراء الزجاج، وحتى بعد نزوله من سيارته يرى دائمًا من خلف زجاج وهمي يتخيله أمامه وتقل رؤيته إلى الدرجة التي يرى بها الطريق من خلف زجاج سيارته.

فالحب، مثلًا، حكمنا عليه بأن يقبع في قمقم لا يخرج منه، ولطخنا صفحته النقية البريئة.. فقولنا: إنّه عمل المتلطعون، وشغل الفارغون، بل ولم نكتفِ بذلك، فأبعدنا كل صلة له بالدين حتى ربطنا بأنّ المحبين فاسقين وناقصين دين وخُلق! شوّهنا الحب بكل معانيه الجميلة؛ فرأيناه ضعفًا للرجل، وعارًا للمرأة، وقلنا بأنّ الله لا يرضى به، فحكمنا على أهوائنا وغلبت علينا شقواتنا. فأصبحنا نطرب لسماع كلمة الحب في القصائد فقط، ولا نجد متنفسًا للحديث عنه سوى في نداوات الأدب ومحاضرات الأدب في الجامعات.

لذا أردت أن أؤكد أنّ الحب ليس بعيدًا عن الدين وأنّ العاشقين هم مصطفون من الله عزوجل وقد خاصهم بفيضه الإلهيّ الذي هو رزق منه سبحانه وتعالى، يرزقه لمن يشاء أو يحرمه من يشاء. فابن حزم الأندلسي متعمق في الإسلام، وصاحب مذهب لا غبار عليه ومتعارف عليه ويأخذ به العلماء في كثير من الأمور، بل إنّ أمثالي من بسطاء الدين يرون في مذهبه خلاصًا ومخرجًا لكثير من الحرج الواقع عليهم. وقد وقف حياته لدراسه العلم الديني؛ فهو متقف لرواية الحديث، عالمٍ بالفقه، متخصص في علم الكلام والدافع عن الشبه والجدل في الأمور الدقيقة المتعلقة بالإسلام، منافح عن الإسلام، ناقد لكل ما دونه من الخير للبشرية. أي أنّه عالم دين، بل وعالم لغة، ونسابة، وراوي للشعر والحديث والأخبار. وبعد كل ذلك، بجد له أراءً في الحب وألف كتابًا من أروع ما وضع في الحب حتى الآن: «طوق الحمامة» وأرسه به قواعد الحب النقي الطاهر وكيفية وصفه والتعبير عنه. وقال في ماهية الحب أو «مائية الحب» كما كان يطلق عليها: «الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع» . أي أنّ الأرواح هي التي تعشق وتهيم وليست الأجساد؛ فحب الجسد يتساوى فيه الإنسان مع الحيوان. وحتى أنّه

قال: بإنّه أحب جارية عنده وهام بها، وبعد أن فرقت بينهما الأيام وخطوب الدهر، وفارقت هي الحياة، ظل يذكرها في شعره حتى شيخوخته بحب نقي طاهر بريء من كل دنث النفوس المريضة. فكيف آل بنا الحال إلى تجريم الحب وربطه بقلة العقل، وخبل الألباب، وخراب النفوس، وأنّه «لعب عيال»؟!! فابن حزم يتحدث في صراحة بريئة عنه حبه وتجاربه هو؛ طالما لم يجعله الحب يقترف إثمًا كبيرًا أو خطأً يغضب الله عزوجل. فهل بعد ذلك، نقول بأنّ الحب حرام؟! أو لعب عيال؟ أو أنّه لا بعد أن يأتي بعد الزواج وأنّ هذا هو مراد الله؟!

إننا نوهم أنفسنا ونخدعها لتقتنع بما نعرف أنّه وهم وخداع! فما المانع بأنّ يكون الحب صادقًا كل الصدق في مقبل عمر الشباب، ومع من يشق طريقه، فهل ربطتم الحب بالمال؟! فالله أعلم حيث يجعل رسالته! فهل هناك سنٌ لحيازة العلم؟ ورجاحة العقل؟ وكذلك الحب؟

سيراني البعض صادمًا. نعم، سأكون صادمًا؛ فالمرء لا يفوق من غيبوبته إلا بعد صدمة تهز أركانه، وتخلخل ثوابته التي آمن بها، وتشقلب حياته. فالطفل لا ينتبه سوى حالما يجد نفسه في عالمٍ مختلف عن رحم أمه، عالم يصدمه، يوجعه، يحرقه، يحرمه، يعطيه. والغلام لا يدرك أهمية العمل إلا عندما يصدمه واقعه بأنّ أهله لا يقدرون على توفير متطلباته كاملة. والرجل، يعمل أكثر وأكثر عندما يقسو عليه الواقع آخذا منه غاياته وممسكًا بتلابيب أحلامه مُلوّحًا له بها في تشفٍ؛ طالبًا ثمنها. والمرأة نفسها قررت أن تخرج لميدان العمل عندما انتبهت أنّ المجتمع يقلل من وجودها وأهميتها، وصدمتها العقول المتحجرة. بل إنّ تلك الكلمات لم تأتِ من فراغ، وإنّما خرجت بعد عدة صدمات حياتية متتالية.. واقعية في وجودها،

خياليـة في تصديقهـا. فيـا قـوم أجيبـوا داعـي اللـه!

لكنـي لم أكتـب هـذا المقـال لأقـول بأنّنـا هلكنـا أو كفرنـا ولا مرجـع لنـا، لا، إنّمـا كتبتـه ليكـون منبهًـا لنسـتيقظ مـن غفلتنـا التـي طالـت، فطالنـا علينـا الأمـد فقسـت قلوبنـا. وإنّ الخـير والـشر، والصـح والخطـأ مشـكلة كونيـة أذليـة لـن تسـقط ولـن تُحـل ألغازهـا إلا بفنـاء تلـك الفـلاة. ولكـن، مـا رجوتـه أنّ نؤمـن بأحلامنـا ونتمسـك ببشريتنـا التـي دوسـنا عليهـا فاسـتغاثت فلـم نلتفـت لهـا، لا نكفـر بأحلامنـا ونتركهـا في منتصـف الطريـق، واهيمـين أنفسـنا بأنّنـا بذلنـا كل نفيـس ولا سـبيل أمامنـا. ولنعلـم أنّ الـشر موجـود وأنّ الخـير موجـود وأيُّ الفريقـين آمنـا بـه غلـب! كتـب الكاتـب الفرنـسي فولتـير روايـة فلسـفية عالميـة اسـمها: كنديـد أو التفـاؤل، وهـي روايـة تطـرح هـذا السـؤال الأبـدي الذي يتسـائل عـن وجـود الـشر في الكـون؟ وحكمـة اللـه في السـماح لـه بالتمكـن أحيانًا؟ وهـو قـام الكـون عـلى الخـير أم الـشر؟ واختلفـت إجابـات الفلاسـفة والعلـماء والمفكريـن والأدبـاء؛ باختـلاف ظروفهـم وخلفياتهـم وخبراتهـم. منهـم المتشـائم مثـل شـوبنهور وهـاردي وليوبـاري وهاوسـمان والمعـري، ومنهـم المتفائـل مثـل الفيلسـوف الألمـاني لايبنتـز صاحـب مقولـة: «إننـا نعيـش في أحسـن العـوالم الممكنـة.»

وكنديـد هـذا شـاب سـاذج مثـالي يكتشـف، عـلى نـار الخـبرة الحارقـة، كنـه الحيـاة وكيـف يسـلك طريقـه فيهـا. ومعلمـه بنغلـوس يدعـوه دومًـا لرؤيـة الجانـب الإيجـابي المـشرق في الأشـياء ونصـف الكـوب المـلآن. ويـشرع كنديـد في رحلتـه للبحـث عـن محبوبتـه كونيجونـدا، فيـزور بـلادًا كثـيرة، ويقابـل أناسًـا عديـدة، وتعاكسـه الظـروف في كل خطـوة لـه. وتتـوالى كـوارث طبيعيـة. وبعـد عـدة مغامـرات يقتنـع كنديـد بـأنّ الوجـود مؤلـف أساسًـا عـلى إحباطـات وبـؤس، ولكـنّ الأمـل لا يفتـأ ينبثـق في نفسـه، رغـم كل الخـبرات المُـرة، فينتهـي إلى خـير عـلاج لشـقاء

الإنسان بعيدًا عن كل الفلسفات والوصايا النظرية، وهو أن نتقبل ما لا نستطيع تغيره، وتغيير ما يمكننا تغيره؛ أو كما قال في آخر الرواية: «يتوجب علينا أن نفلح حديقتنا».

يمكننا أن نفلح حياتنا بأن نطرد عنها الوهم الخادع الذي اتخذناه رفيقًا وهاديًا ودليلًا. ما أجمل أن نتمسك بإنسانيتنا الربانية التي خلقنا الله بها، وألا نتشدد في حياتنا وندع الحياة تسير في صيرورتها التي قدرها الله قبل خلق الخلق. فالكون شاسع ومتسع للحب والخير والرحمة بيننا، ولكننا ضيّقنا قلوبنا فضيّقها الله علينا في معايشنا. وإن كان قد جاء المقال مشاكسًا ومحبطًا في بدايته، فليكون وقفة نقف عندها نتأمل ما انكسر منا وتركناه في عجلة الحياة وسرعتها. فالفنان العالمي بيكاسو يقول: أحيانًا ترون في إحدى لوحاتي أنفًا محطمًا! لقد حطمته عمدًا لكي أجعل الناس يتوقفون عنده، يرونه بدلًا من مجرد المرور على منظر أنفٍ عادي جميل! وعندما يتوقفون عنده، ويتأملونه، يجدون أنه غير محطم إطلاقًا! ويقول: الحقيقة هي ما أفكر فيه لا ما أراه! الحقيقة أكثر من مجرد الشيء نفسه كما نراه.

فأرجو أن تعذرني لو وجدت أنفًا محطمًا في المقال، ولكن تلك الأنف ما هي سوى: الوهم!!

ولكنك لم تُجبني حتى الآن: أثمة مكان في عالمنا الحالي للحب؟!

هـل مـن المعقـول أن يكـون للحيـاة وجهـان ولكننـا لا نجيـد سـوى قـراءة واحـدًا منهـما؟!

أجمـل مـا في إطلالـة الفجـر سـكونه بعـد تخبطـات الليـل.. وأجمـل مـا في الفـرج ركـون صاحبـه إلى مـولاه ونفسـه.

يوضـع الإنسـان بـين شـقي الرحـى منـذ لحظـة ميـلاده إلى لحظـة مماتـه. فحياتـه تترنـح بـين السـعادة والحـزن، الأمـل واليـأس، القـدرة والعجـز، الألم والراحـة، الحيـاة والمـوت. وقضـت الحكمـة الإلهيـة ألّا تسـتقيم حيـاة الخلـق إلا بـين هاتـين الراحتـين وبدونهـما لا حيـاة للمـرء؛ فالإنسـان كومـة مـن اللحظـات العابـرة التـي تشـكل كومـة مـن الذكريـات هـي في اسـترجاعها حيـاة كاملـة. والأيـام دولٌ. فـلا شيء يـدوم غـير خالـق الكـون. ولـو دققنـا النظـر قليـلًا لوجدنـا أنّـه لا وجـود حقيقـي لكلمـة «مطلـق» في الحيـاة البشريـة بأجمعهـا، بـل واتفـق العلـماء والمفكـرون والفلاسـفة عـلى ذلـك؛ فـلا أحـد يملـك الحقيقـة المطلقـة والفـرح المطلـق والحـزن المطلـق والألم اللامتناهـي! فالكـمال للـه وحـده والمطلـق صفـة مـن صفـات اللـه عزوجـل لا ينازعـه فيهـا أحـد غـيره. صحيـح، أنّ اللـه قـد يضفـي عـلى الإنسـان نفحـات مـن صفاتـه العليـا، ولكـنّ الكـمال فيهـا لـه وحـده. فاللـه يسـمع ويـرى وكذلـك الإنسـان، ولكـن لمـن كـمال السـمع ومطلـق الرؤيـة؟

يـسرني اليـوم أن أقـول لـك، عزيـزي القـارئ، أنّنـي لـن أكتـب علـمًا أو منطقًـا، وإنّمـا هـو حديـث نفـس أصابهـا القـرح حتـى أضناهـا ثـمّ زحـف عليهـا الفـرح حتـى أنسـاها ذلـك الـذي أضناهـا! حديـثٌ تبعث فيـه النفـس أعـز مكنونهـا مـن الشـعر والإحسـاس. حديـث فيـه تاريـخ حـال مـن أحـوال نفـس بشريـة يظفـر منـه القـارئ بجـزء صغـير مـن أجزاء تلـك الحقيقـة التـي يجهلهـا الكثـير مـن النـاس والكثـير لا يلتفـت حتـى إلى وجودهـا.

قال لي صديقي المستأنس لحديثي في صراحة عندما سألته ماذا دهاك يا صديقي؟

لا شيء داهني يا صديقي إلا أنّي أشعر أنّ حياتي منحدر كلما هممتُ بصعوده، سقطتُ ونزلت للخلف مجبرًا.. فأستجمع قواي وأحاول النهوض، فأقع! لن أقولُ لك: أني سيزيف أو برومثيوس؛ فأنا لست هؤلاء ولن أكون، فما أغضبتُ إلهًا وما عصيتُ، أتكون جريمتي الحلم! أيحكم عليّ بالخلود في العذاب لمجرد أني أحلم. أعرف أنّ الحلم رفض وكفر بالواقع، لكني، في نفس الوقت، أذعن لربي وخالقي وراضٍ بكل ما يعتريني. فلم لا أكون مؤمنًا يمحصه الله من خطاياه؟ لكني لست لهذه الدرجة من الإيمان التي تجعلني قاب قوسين من الجنة فيرزقني الله التمحيص لرفعي لجنته! إذن فمن أنا ولِمَ لا أصل أبدًا إلى ما أحلم؟! ولِمَ أراك دومًا مبتسمًا متفائلًا؟!

قلت: إنك تحسبني من أهل السرور وأنصار الصفاء. يغريك بذلك ثغري الضحوك، وارتفاع صوتي في محافل الأنس والطرب، والتماس المجون في كل إشارة وكل عبارة. وما أنا إلا نسخة منك ومما يعتلج في صدرك ولكني أرى ما لا تراه أنت وأعلم من الله ما لا تعلم. تعلم أنّ العين لا ترى إلا ما ينعكس عليها؛ فهي ترى النور لأنه نور.. والظلام لأنّه كذلك.. والرؤية المشوبة لأنها غير واضحة. كذلك نفوسنا وعقولنا وقلوبنا، لا ترى إلا ما تعكسه أنت عليها؛ فلو أردت أن ترى شعاع النور وسط العتمة ستدركه، ولو أردت أن تُظلم نهارك سيُظلم! فاجعل في قلبك نبراسًا.. وعقلك موجهًا.. وروحك حالمة... يا صديقي لا تجلس بجوار النار وتلعن لاسعتها وتمكث في ظلام حالك وتسب ظلمته. إنّ كل نائبة تمر بها وإن كانت أحلك النوائب وأجل المصائب، حتمًا، ستمر وتنقضي دورتها وبعدها تدرك حكمة خالقك فيها. فكم مرة قلت بأنّها النهاية وأدركت كونها البداية؟ وكم مرة

تملكك اليأس وذرفت الدمع حزنًا ثمّ عرفت أنّ الفرح كان يختبأ وراء دموعك؟ بل كم مرة أيقنت بالهلاك ثمّ وجدت ضالتك تقف على رأسك في فلاة الدنيا؟ ألا تتذكر معي عراقيل الطفولة التي كنّا نظن بأننا لن نكبر بسببها ثم بانت لنا تفاهتها بعد ذلك؟ وفي مراهقتنا، كم مرة ضاقت بنا الدنيا بما رحبت وضقنا بها وسببنا الحياة ولعنا الوجود واختفى الأمل ونبت الخرف في ظل اليأس وعجزت الإرادة وقل النصير وضعفت الحجة وكانت البداية تطرق بابنا ونحن نعرض عنها في جهلٍ وقح؟!

يا صديقي، على هامش ذكرى كل نائبة أصابتني وأصابتك، صاحبتني فيها وصاحبتك، أقول لك: لا تنطق بحروف الاستسلام وأنت على وشك الوصول وتيقن أنّك عند استسلامك تكون قد دنوت من النهاية! إنّ كل ما نحتاجه في مشوارنا الحياتيّ هو أن نطلب عون الله دومًا وألّا نترك منفذًا لشك كافر يتسرب إلينا خلسة، وندعو الله أن يثبتنا ونسأله أن يرينا قدرته في تحقيق ما نرجوه بعد الأخذ بالأسباب. ولتعلم يا صديقي، أنّ سؤال الله أن يرينا قدرته في وصولنا لمبتغانا ليس كفرنا ولا شكًا في قدرته أو ضعفًا في عقيدتنا، وإنّما هو يقين نبتغيه منه سبحانه وتعالى. ولا تنس أنّ الحواريين سألوا الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء لتطمئن قلوبهم بها وليعلموا أنّ الله معهم، وكذلك فعل أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما سأل الله أن يريه كيف يحيى الموت، ولمّا سأله الله: أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي. وهذا حال أنبياء الله وأصفيائه من عباده، فما بالنا نحن الضعفاء المتخبطون في خبايا النفوس. ألا ترى نفسك مؤمنًا حين يعتصرك الألم، فتبتسم بقلبٍ مسامحٍ وعقلٍ صافٍ؟ بل أنت مؤمن، وكل ما يحدث معك تمحيص وترقية لمكانتك في عليين يا صاحبي. استعد نفسك الماضية واحفر قبر أحزانك بيدك وادفنها

فيها ولا تنظر خلفك أبدًا. فلك في حاضرك ما تتبغيه في ماضيك لكنك تشيح بوجهك عنه.. ولك في مستقبلك ما تمنيته في ماضيك الغابر، بيد أنّك تعزف بنفسك عنه! واصل مشوارك يا صديقي، لك في الغد مشوار يستحق المثابرة والصبر والتحمل وإنّ غدًا لناظره لقريب.

أرجوك لا تجعل حماسة وهمة الأحرار تقذف بك في سلاسل العبيد. وإذا بلغ بك الأمر إلى الحد الذي لم تعد تفرق بين الكفر والإيمان، والرغبة في تحقيق ما ترنو إليه وحب التملك وبات الأمر بالنسبة لك نضال يكون البقاء فيه للأشرس والأدهى، فهذا غاية التمزق والاضطراب، والحيرة والضياع؛ ستصبح نملة في متاهات الصحاري، حرقتها وقدة الهجير، تبثُّ همومها لليل البهيم، فلا الماء يرويها من حمّارة القيظ، ولا الموت يواريها مما تقاسيه. فالحياة يا صديقي انتصارات وهزائم، أفراح وأتراح والعاقل هو من لا يسمح لهزائمه الصغيرة أن تطغي على انتصاراته الجليلة، ويرى في كل شيء هدية وفي كل محنة منحة ويصنع كما يقولون: من الليمون شرابًا حلوًا. ولتعي كلمات الفيلسوف العظيم طاغور حينما قال: إذا بكيت لأنّ الشمس قد خرجت من حياتك، فإنّ الدموع ستمنعك من رؤية النجوم» ولتعرف أنّه لا بد مما ليس منه بد! فالحياة لا تتوقف انتظارًا لأحد ودورة الأيام تدفن بداخلها كل شيء، فاشحذ ذاتك وخذ ما أتاك الله من قوة واسع في طريقك.

تأكد أني لا أطلب منك أن تغالي في فرحك أو تتعلق بالتفاؤل بكل ما آتيت من قوة؛ فالفرح الشديد والحزن الجارف والمرح الوحشيّ من سمات البؤساء الذين يريدون أن يثبتوا لمن حولهم أنّهم سعداء وأنّهم بخير. كل ما أطلبه منك أن تعافر في واقعية لا تجعلك ترى الحياة سوادًا والنهار ليلًا والأمل خرفًا. لا تسمح للذة الحديث عن همومك وتأخر تحقيق أحلامك تجرفك في تيار الاكتئاب

واضمحلال رونق الحياة بداخلك؛ فالصمت يقبض على ميزان الحكمة. لا أنكر عليك أنّ لغيرنا حظًا وفيرًا يجعلهم يحققون ما يريدون بقليل من الجهد والسعي، وأنّ كثيرًا ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. ولكن ألا ترى معي أنّ السفن لا بد أن تجاهد وتعافر وتصمد وتغالب حتى تصل إلى مرساها أو حتى لو لم تصل فيكفي أنّها لم تترك نفسها فريسة سهلة لتلك الأمواج العاتية تغرقها في قاع محيطها الغادر أو بحرها الفاجر؟! افعل مثلها يا صديقي ولا تكن فريسة سائغة في يد اليأس والزمان، واصمد واسع وصل وادع الله أن يرزقك الحظ والعقل والصبر والرضا.

إنّ حياتنا تبدأ ببراءة الطفولة أولًا، وتمضي تلك البراءة وتحل محلها لذة الاندهاش والتعجب والتساؤل، ثم يعقبها لذة الألم والإدراك، ودائمًا تقع وراءنا بدايتنا، وأمامنا السلوان في الغد. وأن نكبر يعني أن ننظر وراءنا في خوف أحيانًا، وفرح أحيانًا أخرى. فإيّاك أن تترك السلوى في غموض المستقبل وتتعلق بأستار وضوح الماضي لأنّه ماضٍ فقط. أو كما يقول الشاعر الفيلسوف طاغور في ديوانه: إن المعلوم، في هذا الكون، يلعب مع المجهول لعبة التخفِّي. كل ما أرجوه منك هو أن ترى بوضوح وتزيح تلك الغمة عن عينك، وتزيح غمائم الجهل عن وعيك؛ تذكر دومًا كلمة الأب بيير دي شاردان حينما قال: إمّا أن ترى أو تموت! حاول أن ترى كل جميل حولك واستمتع بكل ما تقع عينك عليه وحوّل الحجارة التي تتعثر فيها إلى لبنات في صرح نجاحك. فالفارق بين الحيوان والإنسان أنّ الحيوان ينظر لكنه لا يرى! أمّا الإنسان ينظر ويرى فيدرك ويعي ماهية الخلق والكون ويجدد القديم ويخلق الجديد. وإذا صعب عليك تأخر أمانيك وراودك الشك في تحقيقها واختفاء معية الله معك؛ فخذ أربعً من الأماني وفرقهن على جبال أهدافك وادعهن إليك واترك زمامهن لله وسيأتينك سعيًا

واعلـم أن اللـه عزيـز حكيـم. أي : عزيـز لا يغلبـه شيء ، ولا يمتنـع عنـه شيء ، ومـا شـاء كان بـلا ممانـع لأنـه العظيـم القاهـر لـكل شيء، حكيـم في أقوالـه وأفعالـه وشرعـه وقـدره.

اجعـل حياتـك مثـل صفحـة الكتـاب اقـرأ مـا بهـا بدقـة وافهـم مـا ترمـي إليـه ولا تنـسَ أن تخـط عـلى هامشـها كلمـة واحـدة: انتظـر! نعـم، انتظـر قليـلًا! واعمـل أنّـه عـلى هامـش الذكـرى تتفتـح سـوانح الفهـم وتتجـدد فـرص الإدراك والوعـي الخـافي عنّـا في عجلـة حياتنـا «ولهوجـة» طريقتنـا في السـير! صحيـح أنّ الصحـة تـاج فـوق رؤوس الأصحـاء لا يعرفـه إلا المـرضى.. وكذلـك الحلـم تـاج فـوق رأس الحالمـين لا يعرفـه إلا الخاملـون.. فاحمـد اللـه عـلى مـا أتـاك مـن فيضـه الإلهـي بالحلـم والسـعي وراء أحلامـك؛ فهـي نعمـة سـتدركها بعـد قليـل.

إنّ القـدرة بـلا طمـوح مثـل السـيارة بـلا موتـور! والحيـاة بـلا أحـلام تسـتعصى عـلى الإنسـان قليـلًا في أولهـا مثـل الخـراب الـذي يملكـه الإنسـان منتشـيًا بأنّـه مـن أصحـاب الأمـلاك!!